زكريا محمد

اللعب في الوقت الإضافي

الرابعة ليلاً توقفتْ دبابة «الميركافا» تحت نافذتي. صرت أعرفها من صوتها الذي يشبه الزلزال. قلت: ها قد جاء الوقت، سوف يأتون بعد قليل ويقتحمون البيت. فهل أنهض وارتدي ملابسي وأحلق ذقني، أم أنتظر في فراشي حتى يضربون الباب؟ لا أحبّ أن «يصطادوني» وأنا بالبيجاما وبذقن غير حليق. لكنني خفت إن نهضت الآن لأحلق وارتدي ملابسي أن أذعر الولدين. إنهما ينامان الآن ملتصقين بأمهما في الغرفة الأخرى. فمنذ اليوم الأول للاجتياح لم يعودا قادرين على النوم وحدهما.

قررت أن أنتظرهم في فراشي.

لست خائفًا على نفسي. لقد مضى زمن الخوف بالنسبة لي. فقبل عام ونصف أصبت بسرطان القولون وأجريت عملية، وبدا لي – كما آمل – أنني قد نجوت. ومنذ تلك اللحظة اعتقدت أن الله قد منحني وقتًا إضافيًا لكي افعل بعض الأشياء. لذا فأنا الآن ألعب في الوقت الإضافيّ، ومن دون خوف. لكنني خائف على إبني ذي الخامسة عشرة. فهم يأخذون الذكور من سن الخامسة عشرة حتى سن الخمسين. يهينونهم، يحققون معهم، ويعتقلونهم. أي أنهم يريدون جيلاً بأكمله وليس قائمة من مئة أو مئتين من «المطلوبين». لقد أبعدت إبني عن السياسة. فالسياسة دم وسجون عندنا. لكنني لم أستطع أن أمنعه من بلوغ الخامسة عشرة من عمره. لقد بلغها، وصار مهددًا. لكن وجهه ما زال وجه طفل، لولا الخط الأسود تحت أنفه.

فكرت أن أقنعه بإزالة هذا الخط – الشارب، لكي يبدو أصغر من عمره، فيتركونه. لكنني لم أفعل ذلك، خاصة وأنني طالما طلبت منه أن يعتني بشاربه الصغير. لو طلبت منه إزالة الشارب لزرعت الخوف في قلبه. سوف يعرف أنني أفعل ذلك خوفًا عليه، الأمر الذي سيزيد من خوفه.

الساعة الخامسة والنصف غادرت «الميركافا».

لم يقتحموا البيت. لكن ذلك ليس ضمانًا نهائيًا. فغدًا قد يفعلون ذلك. حاولت أن أنام فلم أستطع. نهضت في الساعة السادسة، ونهض معي الكلب الصغير «كيوي» الذي صار ينام معنا في البيت بعد الاجتياح. فعندما سمع صوت القذائف وصوت جنزير «الميركافا» في الليلة الأولى للاجتياح خرج من بيته الخشبيّ في البلكونة وخرمش الباب وعوى بجنون. لا، بل بكى بجنون حتى سمحنا له بالدخول. وهكذا تركناه ينام في البيت. لكنه صار يبول عندما يسمع صوت «الميركافا». يدخل تحت سريري، أو تحت الكنبة خائفًا ويبول.

الساعة الثامنة والنصف اتصل بنا صديق ليقول لنا إن حظر التجوّل سيُرفع اليوم الساعة التاسعة صباحًا ولمدة أربع ساعات. في المرتين الماضيتين رفعوا الحظر عند الساعة الواحدة. لذا ذهبت وأيقظت سلمى والأولاد رغم أنهم لم يشبعوا نومًا. علينا أن لا نخسر ولو دقيقة واحدة من الساعات الأربع. في التاسعة وعشر دقائق خرجنا من البيت، أنا مشيًا وزوجتي بالسيارة. إذ أن عليها أن ترسل الأولاد ليلعبوا مع أصدقائهم. أنا لا أقود السيارة. لم أتعلم ذلك، ولا أريد.

مشيت باتجاه «مركز خليل السكاكيني». وعلى بعد مئة متر من منزلي صاح بي صوت بعربية مكسّرة: وين رايح؟ قلت: رايح أشتري أغراض. ولمحت عيني جنديًا يطلّ من وراء مدرسة «عزيز شاهين للبنات». لقد احتلّوا المدرسة إذن. قال لي: إرجع، فرجعت دون مناقشة. لكنني اطللت بعيني، فرأيت عددًا من الشباب مربوطي الأيدي وراء ظهورهم، معصوبي الأعين، يجثون على ركبهم في ساحة المدرسة. لقد تحوّلت المدرسة إلى مركز اعتقال مؤقت. هذا يفسّر الضجيج الهائل للدبابات والمصفّحات حول بيتنا.

أخذت طريقًا آخر نحو «مركز خليل السكاكيني». الطريق مصابة بشدّة. جنازير الدبابات دمّرت الأرصفة وحفرت الإسفلت. وحين وصلت إلى البناية الجميلة وجدت أنهم قد نسفوا الباب بالمتفجرات ودخلوا. دخلت. مشيت على الزجاج الذي يفرش أرضية المركز. اللوحات على الجدران مصابة. بعضها مائل وبعضها على الأرض. مكتب الشاعر محمود درويش منتهك تمامًا. الكتب على الأرض، ومسوّدات قصائده رميت وديست بالأقدام. الورقة الأولى من إحدى المسوّدات كانت تحمل طبعة حذاء جندي.

سألت منال، العاملة في المركز: هل أخذوا شيئًا؟ قالت: لقد سرقوا خمسة آلاف شيكل (أكثر من ألف دولار)، ونحن نحاول أن نعرف إذ كانوا استولوا على أشياء أخرى.

وللتذكير فخليل السكاكيني مربٍّ وكاتب فلسطيني مجن وكاد أن يُعدم في الحرب العالمية الأولى لأنه حمى يهوديًا وأخفاه في بيته عندما كانت تطارده السلطات العثمانية. إنهم يردون له الجميل بعد ثمانين عامًا أو أكثر قليلاً.

مضيت إلى وسط المدينة، إلى ساحة المنارة. هنا كان مركز الإعصار. هنا دار وعربد. لا أكاد أعرف الساحة. الدبابات هناك على طرف الساحة. الشيء الوحيد الذي نجا هنا هو الأسود الأربعة للدوّار. الأسود الحجرية الزهرية التي تنظر إلى جهات المدينة الأربع. ذهبت إلى الأسد الذي ينظر إلى الشمال، إلى الدمار الرهيب الذي يبدأ من الساحة حتى يصل إلى مقر الرئيس عرفات. نظرت أنا والأسد معًا إلى الشارع الذي يدعى شارع الإرسال. ففي آخره كان برج الإرسال لإذاعة القدس، ثم إذاعة فلسطين في ما بعد، الذي دمره الإسرائيليون قبل شهرين. لقد انحنى وانهار تحت ضغط الجرافة بعد أن وقف لأكثر من خمسة وستين عامًا.

هذا الأسد، أسد الإرسال، أو «الأسد أبو ساعة» كما يدعوه بعض الناس، أسد فريد حقًا. فهو الوحيد في العالم – ربما – الذي يحمل ساعة على يده. فعندما أنهى الرسام اسكتشه كانت الساعة الثالثة والنصف. لذا رسم ساعة على معصمه وضبطها على الثالثة والنصف. أما المنفذون فقد ظنوا أن الساعة رمز ضروري ما، لذا نحتوا الأسد بساعة تشير إلى الثالثة والنصف على يده. وكنت دومًا أتساءل: أهي الثالثة والنصف بعد الظهر، أم الثالثة والنصف فجرًا؟ وكنت آمل أنها تشير إلى الفجر.

تجوّلت في المدينة. كل مؤسسة خاصة أو عامة تم اقتحامها. أينما ذهبت وجدتهم قد نسفوا الباب وحطّموا كل شيء وأخذوا الـhard disks والـmother boards والـfiles. الناس يعتقدون هنا أنهم يريدون تدمير أسس الدولة الفلسطينية المقبلة. لا يعتقدون أن هذا التدمير غير مخطط.

ثم ذهبت إلى مكتب الإذاعة المحلية التي كانت مجموعة سياسية صغيرة تحاول إنشاءها. لقد طلبوا مني قبل شهرين أن أساعدهم في إنشاء هذه المحطة. تعرّفت إلى عدد من العاملين هناك خلال هذين الشهرين وعلى الأخص هشام وأحمد وأبو حسين الحارس. في اليوم الأول للاجتياح اقتحم الإسرائيليون المكتب ويبدو أن أبا حسين الحارس قد قاومهم فقُتل، وقُتل معه هشام. أما أحمد فقد أصيب ثم قفز من النافذة وانكسر عموده الفقري. سمعت في البداية أنه مات، لكن ثبت أنه أصيب إصابة خطيرة ولا يزال يرقد في المستشفى.

دخلت المكتب. كان كل شيء محترقًا تمامًا: الكمبيوترات، الكراسي، الأبواب، الأوراق. جمعت من الأرض بضعة أشياء حديدية محترقة: كبّاسة الأوراق، الخرّامة. ثم ذهبت إلى غرفة صغيرة منزوية، فوجدت أنها لم تحترق كلّها. كان هناك على الطاولة كأس «ليبتون» (Lipton mug) محترق لكن علامة «الليبتون» ما زالت بارزة. نظرت إلى الكأس فوجدت فيها بقايا شاي أعشاب (Herbal tea). كنت أعرف أن هذه هي كأس هشام. لم يتمكن المسكين من أن يكمل شايه. لم يسمحوا له بذلك. أخذت الكأس المحترقة معي،

لكي أحتفظ بها.

بعد ساعتين اتصلت بي زوجتي والتقينا في وسط المدينة. مشينا معًا وسلّمنا على الناس. سألنا عن الذين اعتقلوا، والذين قتلوا. لقينا في الشارع المدرّسة قيرا، زميلة زوجتي في مدرسة «الفرندز». عانقت قيرا زوجتي سلمى وبكت. بكت بمرارة. قالت إنهم أخذوها كدرع لاقتحام بيوت حارتها. وضعوا بندقية (إم ١٦) في ظهرها وسارت أمامهم من بيت إلى بيت واعتقلوا عشرين شابًا. هي تبكي الآن لأنها تعتقد أنها المسؤولة عن اعتقالهم. قلنا لها: لا، لست مسؤولة عن ذلك، ومضينا.

في الطريق صادفنا علي، ٨ أعوام، من ذوي الحاجات الخاصة، فركض إلى سلمى وعانقها. قال لها بلغة مركبة من العربية والإنجليزية: مس سلمى، لقد حصل dangerous. قالت له خائفة: ماذا حصل يا علي؟ قال: لقد مات الهامستر (The Hamster). حزنًا من أجل الهامستر، لكننا كنّا نخشى أن يكون الأمر أكبر من ذلك. ثم ودّعنا وقال: مس سلمى السيارات بطّلت تمشي في الشوارع. قالت زوجتي: علي مغرم بسيارات الفولكسفاجن، فهو يجلس على سياج داره منتظرًا مرور واحدة منها لكي يصيح بفرح. ومنذ ١٨ يومًا توقفت السيارات عن المرور، ولم يكن يحظ برؤية أية سيارة تشبه «البيتلز».

من بعيد سلّمنا على العشرات قائلين لهم: الحمد لله على السلامة. ثم رأينا الناس يتراكضون مذعورين في الشوارع، فاحتمينا بباب أحد المحلات. ثم أخبرنا أن بعض الأولاد رموا حجارة على الجنود فردّ هؤلاء بالغاز المسيل للدموع، فهرب الناس.

من بعيد سلّم عليّ وليد، فسلّمت عليه وقلت له: الم يمسكوا بك؟ قال: ليس بعد. ومضى. لم أكن أتوقع أن أراه. كنت أظن أنه قد اعتقل أو قتل أو فجر نفسه. لا يمكن لي أن أنسى هذا الشاب أبدًا بسبب القصة التي حكاها لي قبل أكثر من سنة. ففي الإنتفاضة الأولى في نهاية الثمانينات، عندما كان لا يزال طفلاً في العاشرة من عمره، أجبر «حرس الحدود» الإسرائيليون – وهم الأشد فظاظة – والده على تقبيل طيز (مؤخرة) الحمار. كانوا عائدين من قطف الزيتون فلقيهم الجنود وأرغموا والده على فعل ذلك. قالوا له: إما أن تموت أو أن تقبّل طيز الحمار. فاضطر المسكين لفعل ذلك. طلبوا من الولد أن يرفع ذيل الحمار وقبّل والده ما تحته.

وقفنا أمام الفرن واشترينا خبزًا، ثم اشترينا بطّاريات للراديو وعدنا. لقد انتهى الوقت. قادت زوجتي السيارة وجمعنا الأولاد، وعدنا. لن نخرج إلّا بعد أربعة أيام أخرى.

بعد ساعة كان على واحد منّا أن يخرج إلى السطح لنشر الغسيل. أقول لزوجتي: سأصعد أنا. وتقول هي: لا. أنا من سيصعد، فقد يطلقون النار عليك، لكنهم لن يطلقوا

النار على سيدة . إبنتي رند ذات الثانية عشرة لا تريد لاحد منّا ان ينشر الغسيل . وأقول في نفسي : ما هو الأسوأ للاولاد ان يموت الاب أم الأم؟ وأضيف : الام بالتأكيد . فأنا العب في الوقت الزائد . كما أن هناك مثلاً شعبيًا فلسطينيًا يقول : إن ماتت الام راحوا على المقابر، وإن مات الاب راحوا على المنابر . أي أن الام تستطيع أن ترعى الأولاد بعد موت أبيهم، وتجعلهم خطباء على المنابر . اما موت الام فيودي بهم إلى الهلاك .

استطلعنا من النوافذ الموقف من جميع الاتجاهات فلم يكن هناك جنود ولا دبابات . لذا ذهبت زوجتي ونشرت الغسيل وعادت سالمة . ما زلنا نسمع أصوات الإنفجارات بلا توقف . كل بيت مغلق، كل مؤسسة مقفلة، يتم نسف بابها واقتحامها . المشكلة ان كثيرين من أهل رام الله يعملون في الولايات المتحدة ويعودون إلى منازلهم في الصيف . لذا فهناك بيوت كثيرة مغلقة . سوف تنسف أبوابها كلها .

ثم نادت عليّ زوجتي : زكريا . . زكريا . . تعال شوف! كانت هي وابنتي على الشباك، وقبل أن أصل إليهما سمعت صوت طلقة، فرأيتهما تنزلان إلى الأرض خائفتين . لقد أبصرهما الجندي من المصفحة وأطلق النار باتجاههما . لا اظن أنه كان ينوي قتلهما . كان يريد أن يخيفهما ويمنعهما من النظر من الشباك . فامام المصفحة كان يسير نحو خمسين شابًا ورجلاً مربوطي الايدي، معصوبي العيون والبنادق في ظهورهم . كانوا يأخذونهم إلى المدرسة المجاورة بانتظار نقلهم إلى معسكرات الاعتقال . لم يكن الجنود يريدون لاحد ان يرى ما يجري، لذا كانوا يطلقون النار على من ينظر من النافذة .

في الثامنة مساء اتصل أحدهم بي بالـ« موبايل » . قلت : من؟ قال : محمد . قلت : كيف الحال؟ وين انت؟ قال : في مقرّ الرئيس . ظننته يمزح . قلت : بلاش مزح . قال : اقول لك في مقر الرئيس . سألت مندهشًا : ماذا تفعل هناك؟ قال : بالصدفة كنت اوصل صحافيًا إلى مقرّ الرئاسة فحصل الهجوم وحوصرت مع الرئيس . ثم قال : إسمع لا أريد ان أستهلك البطارية . فقط اردت ان اقول لك : الامور صعبة . دير بالك على الأولاد . ثم قطع الخط . وكان يطلب منّي أن أعتني بأولاده إن حصل له شيء .

وقفت مدهوشًا لا أدري ماذا أفعل؟

قالت زوجتي : ماذا حصل؟ قلت : محمد محاصر مع الرئيس .

ثم استأنفت بعد عدة ثوان : كلّنا محشورون مع الرئيس . كلّنا .

شاعر وكاتب فلسطيني مقيم في رام الله/فلسطين

أحمد دحبور

ما دامت كذلك.. فالدنيا بخير..

أنّى لك أن تشهد على دمك؟ وأي عمل هجين هذا، أن تصرف الموت والجوع والقهر والحيرة إلى حبر وادعاء، فحواهما أنك صرت من أدباء المقاومة أو شيء من هذا القبيل؟.. لا، لست من أدباء المقاومة. وليكن واضحًا، من أولها، أن هذا التصريح لا يمكن أن ينطوي على أي نوع من التنصّل أو المزايدة المقلوبة. ولكنه محاولة ارتقاء إلى شرف الحقيقة. وقد أزفت ساعة الحقيقة فعلاً، بغض النظر عن استهلاك هذا التعبير على أيدي الغزاة المحتلين هذه الأيام.. والحقيقة هي أن تكون نفسك، مثلما هي، أو مثلما هو أنت، كما تجد نفسك في لحظة المواجهة، لا أن تختطف الألقاب والصفات كيفما اتفق..

على المستوى الإجرائي: أعيش في غزة، منذ مساء الأربعاء ٢٤/٨/١٩٩٤. وروحي معلّقة بحيفا، مسقط راسي، مدينة أبي وأمي وأجدادي التي لن يمنعني أي احتلال في الدنيا عن أن أكون ابنها وأن تكون مدينتي. فلست ممن يختزل فلسطين إلى بعضها، على ما للجزء المتاح لنا من الوطن، أي الضفة والقطاع، من غلاوة ومعزّة وقداسة.

لم أكد أصحو من دهشة رؤيتي أول مشهد من فلسطين، حتى بدأت الأحداث الدراماتيكية تتصاعد. ونفذ جنود الاحتلال عملية عسكرية ضد قاعدة للفدائيين، فاستشهد ثلاثة ووقع اثنان في الأسر. كان ذلك يوم الجمعة ١٤/١٠/١٩٩٤ في قرية بير نبالا. وكانت قاعدة الفدائيين تابعة لحركة «حماس». ولأنني لا أكتب تاريخًا – ولست مؤرخًا – فدعوني أستطرد على طريقتي، فأقول إني قرأت يومها اسم القرية المهاجمة «بيت نبالا». وقد قامت العملية الدموية بتصحيح معلوماتي أو تقويم لساني. لعلي أردت القول إن القهر طال جانبًا من ثقافتنا الجغرافية حتى تجاه وطننا. فعملية الاحتلال ثم التشطير والتشتيت، وزّعتنا أيدي عرب، على حد تعبير المرحوم إميل حبيبي، وهذا يعني أن علينا الكثير الكثير مما نفعله في أرضنا ولأرضنا حتى نستعيد ميزان الحقيقة الذي لن نهتدي إليه

إلّا باعتماد بوصلة الحق..

حتى تكتمل المفارقة، يجب الا انسى انه في ذلك اليوم تحديدًا، أعلن عن جائزة «نوبل» للسلام. وكانت، في تلك السنة، من نصيب إسحاق رابين وشمعون بيرس و.. ياسر عرفات. ليس لي جلد على المماحكة السياسية. ولكن ثقتي وطيدة بوطنية هذا القائد الفلسطيني الذي حيّر العالم. فقد كان عليه ان يمشي، طوال عقود من السنوات، بين خيوط المطر من غير ان يتبلل. وان يتحالف مع الخطر فيموت غير مرة وينهض من رماد المفاجأة ليصل بشعبه إلى بر الامان. اما تكتيكاته المعقدة التي يتّبعها، فليس هذا وقت مناقشتها – مع انه لا شيء خارج البحث والتقويم – ويكفينا، إذا كانت العبرة بالخواتيم، انه يصمد الآن هذا الصمود الاسطوري الذي أحرج حكام العرب جميعًا، واشعل حماسة الامة، واذهل العالم..

اما ان يأخذ رابين وبيرس جائزة «نوبل»، فلنقل إنه السياق الذي مكّن مناحيم بيغن من اغتصاب هذه الجائزة يومًا ما، من غير أن يغيب عن الذهن أن أبا عمار نالها في السياق الذي أوصلها إلى مارتن لوثر كينغ، وقبله الالماني البرت شويتسر الذي قال: من الأفضل تحسين المستقبل وليس تحطيم الحياة، وقبله الامريكي كورديل هيل الذي قال إن السلام كالهواء للبشرية.

ويبقى الخلاف على المصطلحات، فكيف تكون المساواة؟ وكيف نفهم المستقبل؟ وما هي استحقاقات السلام؟

بعد هذا الاستطراد الطويل اعود إلى اول السطر. فاقول إني أعيش الآن في غزة التي لم تتعرض مباشرة للعدوان الاخير الذي بدأ في ٢٩/٣/٢٠٠٢، بعض الغارات الجوية بـ«الفانتوم» و«الاباتشي» والبرية بـ«الميركافا»، وقتل بضع العشرات من المدنيين، والارتداد الذليل أمام صمود جباليا ورفح وخانيونس، فهي مما يمكن اعتباره تقليدًا صهيونيًا عاديًا. ولكن الجنرال البدين البطين سفّاح قبية وخانيونس وصبرا وشاتيلا ومخيم جنين، إلى آخر سلالة المجازر، فيسمّي ذلك التقليد، بالحرف، نشاطًا عسكريًا.. إذن لم يصل إلى غزة من النشاط العسكري الاخير إلّا القليل، ولكن هل كنا في مأمن؟

سيبدو وصف العذاب على المعابر ضربًا من الترف، قياسًا إلى العذاب اليومي للمواطنين الذين يقصدون أماكن عملهم في غزة من خانيونس والقرارة والمغراقة ودير البلح. ولن يجد هؤلاء المعذبون في الوطن وقتًا لوصف معاناتهم وهم يستقبلون، صباح مساء، أنباء استشهاد الشباب في ضواحي القطاع من بيت حانون وبيت لاهيا إلى المنطار إلى عبسان وبني سهيلة إلى رفح.

وقد ننتبه – بل إننا، جميعًا، نسمع ونرى الصور – إلى البيوت المهدمة المنسوفة والمقصوفة، والأراضي المحروقة، لكن أن ترى أثر هذا الخراب رأي العين، فإن الأمر يختلف.. ثم إنهم يجثمون على صدر غزة التي يحاولون احتزاز عنقها في الضفة. فالذبح واحد هنا وهناك. والأسرة واحدة. وقد «نجحت» بعض الصناديق المقفلة المشحونة بالشهداء أن تصل من الضفة إلى القطاع فانضمت إلى الجنازات اليومية باعتبار أن «النشاط العسكري» لم يتوقف يومًا هنا.

– هل سيدخلون؟ هل يحسبون حسابًا للكثافة البشرية في غزة؟ هل يؤجلون ذلك ليتفرغوا تمامًا للضفة؟ إذا كان حي بسيط من نابلس، ومخيم جنين الصغير، قد سببا لهم هذه الخسائر والفضائح فماذا سيكون من أمرهم في القطاع؟ ألم يأخذوا درسًا من جباليا؟

مثل هذا الحوار تسمعه يوميًا. وتستمر الحياة. ويغبطك أن الصمود ليس كلمة مصدّرة إلى أجهزة الإعلام. إنه الحياة ببساطتها وهذا كل شيء. وتأتي أخبار المعابر فتعرف أن الاكتظاظ الخانق هو من جهة الدخول فقط. بمعنى أن من هم خارج الجزء المتاح لنا من الوطن يحرصون على العودة إلى بيوتهم، أما المغادرون فهم أقلّ القليل ممن لهم حاجة ضرورية في السفر كالعلاج والدراسة وبعض الشؤون الإنسانية.

– يبدو أن شارون قرر قتل الضفة حرقًا وقتل غزة خنقًا، فهناك الإبادة الدموية، وهنا الحصار..

– فشر، لن ينجح.. وهذه فلسطين وليست لعبة..

يقال مثل هذا الكلام، ويتبعه سؤال عن حليب الأطفال، عن الوقود، عن الدقيق. وهناك متسع من الرفاهية أحيانًا للسؤال عن الكهرباء. ومع ذلك تستمر الحياة، وتنتشر السواتر الترابية. وقد كفّ الأطفال عن إحراق إطارات السيارات بعد أن أقنعهم الكبار بأنهم يخنقون مدينتهم بذلك، وأن من المبكر توظيف هذه الإطارات المحترقة في وجه غزاة ما زالوا على الأبواب. وإذا كف الأطفال عن هذا العبث الاحتجاجي، فإن الكبار لم يكفوا عن صبغ الجدران بالشعارات والوعود. وأذكر ما كنا نقوله قديمًا من أن الحيطان دفاتر المجانين. ولكن علينا أن نأخذ الجنون هذه المرة بمعناه المتحقق من الخوف والحسابات المنطقية المؤدية إلى الخوف. وهذا الجنون هو الذي يرسلنا إلى أعمالنا يوميًا. مع أن العمل متوقف أو يكاد. لكن لا بد من فتح المحال والمكاتب والمؤسسات. إن هذا، وحده، معناه أن العدوان لم ينجح في تدمير البنية التحتية، وهو شعاره اليومي الأثير. صحيح أننا اكتشفنا كلمة جديدة، هي «الإخلاء»..

ولكننا لا نخلي الاماكن إلا بعد ازدياد وتيرة الطيران، وبعد وصول أصوات القصف. وبكل خفة الدم الشعبية يعطي المواطنون أسماء طريفة لطيران العدو. فهذه «أم كامل»، وهذه الزنانة.. أما الزوارق العسكرية التي يغص بها البحر فهي أشبه بالثآليل التي تشوّه تلك البشرة الزرقاء. وتستمر الحياة..

تضيق غزة، فالحصار يطبق شيئًا فشيئًا. ويذهب زميلنا عبد الله ابو دقة، هذا الشاب الخجول الوديع، لتخليص بعض الكتب من الجمارك فيعتقلونه على الفور. لا تفسير ولا وعد بالإفراج: تستطيعون أن تعينوا له محاميًا. ولكن ما هي التهمة؟ ليس هذا شأنكم.. إنه عندنا وكفى.. وقبل اعتقال عبد الله، كان عبد الحميد الحرطي، الرسام الشاب الذي ترك رواية قصيرة، عائدًا إلى بيته في المغراقة، فمزقوا جسده بالرصاص.. وتركوه ينزف حتى الصباح. وبلغت بهم الإنسانية حد أن سمحوا لاهله بنقل جثمانه، بعد يوم كامل، إلى مقبرة الشهداء.. مقبرة الشهداء؟ وهل هناك مقبرة في الجزء المتاح لنا من الوطن لا تحمل هذا الإسم؟

مسيرة وراء مسيرة وراء مسيرة.. بيانات احتجاج، برقيات موجهة إلى العالم: أنتم يا من هناك، نحن هنا.. ولا نزال على قيد الحياة. نختنق باخبارنا القادمة من كل مكان. لقد وحدت فلسطين حقلاً من الفضائيات. والغضب العربي في الشارع يغمر الدنيا.. والعالم ليس مصابًا بالصمم هذه المرة. لكن ماذا عن مراكز القرار؟

في هذه الزحمة رفعت السماعة، وطلبت صديقًا قديمًا في بلد عربي يظن أنه آمن. كانت مفاجأة كبيرة له، وصرخ باعلى صوته كأنه يريد إيصال الصوت إليّ مباشرة لا من خلال السماعة: كيفك؟..

اجبته مازحًا: أنا بخير.. ولكنني قلق عليكم. أتصل لأطمئن عليك حيث أنت. وطمئنونا عنكم.. فلسطين باقية.. وما دامت كذلك فالدنيا بخير.

شاعر وكاتب فلسطيني مقيم في غزة/فلسطين

محمد علي طه

لكم شيطانكم ولي شيطاني

مرة أخرى تراودني هذه المثقلة بالآلام والأسى حيث تكسّرت النصال على النصال – كما قال عمّنا وشيخنا أبو الطيّب – أن أبحث عن الملجأ الأخير، كتاب «الأغاني» لإمامنا ومعلمنا أبي الفرج الأصبهاني، طيّب الله ثراه؛ فهل التاريخ يعيد نفسه وكأننا «يا بدر لا رحنا ولا جينا»؟

أذكر فيما بقي من ذاكرتي التي أغار عليها الزمن وتراكمت فيها الحكايات أني قرأت نصًا أدبيًا جميلاً لكاتب غربيّ عن مأساة مجموعة من الناس اختبأت في قبو لتخزين البيرة المخمّرة في أيام الحرب العالمية الثانية، فوجدت شبهًا كبيرًا بين ذلك القبو وبين كتابي الأثير لديّ فابتسمت ابتسامة مجروحة وأنا أقارن بين قصص الملوك والأمراء والشعراء والخلفاء وبين زجاجات البيرة والنبيذ المعتق، وبين محاصري الحروب أينما كانوا ومهما تعددت أجناسهم وبلدانهم. وحملني خيالي المتعب إلى صورة ذلك الشاعر العربي الصعلوك الذي حاصره الأعداء وهو يجتني العسل من خلايا النحل البريّ في قمة جبل أجرد من جبال صحرائنا التي شوّهها الذهب الأسود فصبّ العسل على صخرة طويلة ملساء وتزلّج هاربًا كما يتزلّج الأغنياء وهواة هذه الرياضة المغامرة في جبال سويسرا.. ونفد بجلده. وأما حالنا في هذه الأيام فمختلف من الأساس. لا عسل بريّ ولا ثلج طبيعي ومن العار أن ينفد المرء بجلده ما دام حامل الصخرة، سيزيف هذا العصر، يؤكد للعالم «يُريدونني أسيرًا أو طريدًا وأقول لهم شهيدًا شهيدًا». ونحن نرد عليه بصدق: «نريدك رئيسًا رئيسًا رئيسًا!!».

هذه الحرب تختلف عن سابقاتها بأمور كثيرة منها أن الحرب تعصرنت وتعولمت وبدورنا تعصرنّا وتعولمنا معها. وخجل كتاب «الأغاني» فانكمش مختبئًا في رفّ من رفوف الكتب فاسحًا المجال للفارس الجديد الذي دخل بيوتنا وصالوناتنا وغرف نومنا ليلاً ونهارًا، صباحًا ومساءً، «بدون شور أو دستور» فشدّ نظرنا إليه فتعلّقت عيوننا بشاشته وتعلقت راحاتنا بأجهزة التوجيه التي تنقلنا من فضائية إلى أخرى حتى جعلتنا «ندوخ» بعد أن صار عندنا

خمس وسبعون محطة أو مائة ونيّف. وصارت الفضائيات تنقل مباشرة ساحة القتال إلى صالوناتنا وغرف نومنا، وكل شيء ع المكشوف ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد!!

تروي كتب تاريخ الأدب العربي ان الملوك والأمراء تنافسوا على اقتناء كتاب « الأغاني » الذي وصفه العالم العلامة ابن خلدون بانه « ديوان العرب وجامع أشتات العلوم التي اجتمعت لهم » فيما وصفه الصاحب بن عباد « انه مشحون بالمحاسن المنتخبة والفقر الغريبة. فهو للزاهد فكاهة، وللعالم مادة وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رُجلة وشجاعة، وللمتظرّف رياضة وصناعة، وللملك طيبة ولذاذة. ولقد اشتملت خزانتي على مائة الف وسبعة عشر الف مجلد ما فيها سميري غيره ».

وإذا كان الملجأ الأخير، فيما قبل، أغنى الصاحب بن عباد عن ١١٧ الف مجلّد وهو رقم يفوق عمّا تحتويه المكتبات القومية ومكتبات الجامعات في أيامنا فإنّ سميرنا الجديد، آسر عقولنا وقلوبنا وحواسنا، حاصرنا بكل قواه وطاقاته حتى أدمنّا حصارنا واستطبناه وصرنا فيه وصار فينا. نسهر معه وننتقل من فضائية إلى فضائية. « الجزيرة » تحملني إلى رام الله وغزة وبيت لحم وجنين. تلميذي الإعلامي الناجح وليد العمري يكسب ثقة ومحبة أهل البيت.. ويصبح واحداً منهم. نسهر معه حتى ساعة متأخرة ونشرب قهوة الصباح معه. وتتوطد علاقتنا بشيرين ابو عاقلة وجيفارا البديري. وصرنا نقرأ الأخبار من ملامح وجوههم. وليد غضبان. شيرين تبكي. وجيفارا ترثي الحالة. وتساءلت ذات مرة وأنا أشاهد جيفارا البديري وهي تقدم تقريرها من بيت لحم: يبدو أن والديها معجبان جداً بجيفارا الثائر الاممي الشهير حتى أسميا ابنتهما بإسمه. انثى تحمل إسم ذكر. وابتسمت عندما تذكرت أمرًا مشابهًا قبل إثني عشر عامًا. كانت زوجة إبني البكر، علي، حاملاً. وفي مساء هادئ دافئ قال علي ونحن نشرب القهوة: قررت أن أسمّي المولود محمداً على إسم والدي! قلت: حتى يأتي الصبي ونصلّي على النبي!! فأجاب ضاحكًا: سواء جاء المولود ذكرًا أو أنثى سأسميه محمداً.

وضحكنا.

الضحك غاب في هذه الأيام. دبابات شارون وطائرات موفاز تقتل وتدمّر وتهدم وتخرّب. شهداء شعبنا ثلاثة او أربعة يوميًا. امر عادي. وإذا ارتفع العدد إلى سبعة أو ثمانية نهتزّ ونغضب. جنامين الشهداء على الشاشة. الدم النازف يصبغ الشوارع والأزقة. وشاشة التلفاز لا ترحمنا. « الجزيرة »، « أبو ظبي »، « دبي »، « المستقبل »، « النيل »، تتسابق في نقل جنامين الشهداء وغضب الناس الذين يشيّعون أحبابهم. صور تصدع القلب وتُدمع العين. بث مباشر لقصف طائرات الأپاتشي للوزارات والمؤسسات وأجهزة الأمن في غزة ورام الله

ونابلس. البنايات تنهار والغبار يملأ الفضاء. هي الحرب. حرب جديدة. حرب بين جيش عصري يملك أحدث أجهزة الدمار والقتل وبين شعب أعزل يملك الإرادة والصبر. حرب القرن الحادي والعشرين. أولى حروب القرن. والتلفاز ينقل الحرب إلى صالوناتنا. غرف نومنا. بالصوت والصورة. نسهر مع القتل والدمار. نشرب قهوتنا ممزوجة بالغبار. ننام مع صور الدبابات. نصحو في الصباح على صوت القصف. ونتساءل عن عدد القتلى. صار الاستشهاد أمرًا عاديًا. وجنازات الشهداء عادية. وغضب الشبان يطفح على وجوههم ويفيض. أنهار الغضب تجرف شوارع المدن والمخيمات. غضب ساطع. غضب عادل. غضب غاضب. غضب على الاحتلال. غضب على الصمت العربي. غضب على الموقف الأوروبي الخجول. غضب عارم على الانحياز الأمريكي للإحتلال. امريكا هي الشر والأفعى. امريكا هي السرطان. والرئيس الأمريكي غبي. والجمعيات المسيحية المتزمّتة التي تدور في فلك الصهيونية تسيطر عليه. وشعبنا يدفع الثمن. والثمن باهظ. العروس جميلة وابنة أصل كريم ومهرها غالٍ.

أشعر بحيرة وحرج. الاحتلال يحاصر المدن ويحوّلها إلى سجون كبيرة. والجوع يغزو البيوت. وملاك الموت ينفذ أحكامه في الشوارع والساحات والحواجز العسكرية. والحصار يحاصرني.. ماذا أفعل؟ الدائرة صغيرة ومحيطها سور شائك. البحث عن نقطة ضوء في خط التماس. عن كلمة عاقلة. عن صوت جريء. عن شمعة صغيرة. عن الذين كانوا أصدقاء في ساعات الرخاء واختفوا في ساعات الشدّة. عن الحمامات الشهيدة. عن الزغاليل الساقطة غيلة وجبنًا على قارعة الطريق.

أنا لا ألوم أحداً. لا ألوم ملكًا أو أميرًا أو رئيسًا. نحن نعرف «البير وغطاه». هؤلاء أصحاب الجلالة والسمو والسيادة لا يملك أحدهم قرارًا بشراء خوذة تحمي قفاه. لا أريد سوى صمتهم ولا أطمح إلاّ في عدم تدخلهم أو تآمرهم. لا حاجة إلى مؤتمر قمة عربي. هذه مؤتمرات كالأصنام تضرّ ولا تنفع. يبذّرون الأموال في مؤتمرات القمة على مؤتمرات القمة هباء منثورًا في مهب الريح. لو استراحوا وأراحوا وتبرّعوا بهذه الأموال للعائلات الجائعة في الحصار.. أليس أجدى؟ ولكنهم لا يملكون الحق بالتبرّع. الوصي لا يسمح. قبل سبعين عامًا كتب شاعرنا ابراهيم طوقان قصيدة ساخرة يخاطبهم بها:

أنتم «المخلصون» للوطنيّة   أنتم الحاملون عبء القضيّه
أنتم العاملون من غير قول   بارك الله في الزنود القويّه
و«بيان» منكم يعادل جيشًا   بمعدات زحفه الحربيّه

و« اجتماع » منكم يردّ علينا ... غابر المجد من نتوح أميّه
وخلاص البلاد صار على الباب ... وجاءت أعياده الورديّه
ما جحدنا « أفضالكم » غير أنّا ... لم تزل في نفوسنا أمنيّه
في يدينا بقيّة من بلاد ... فاستريحوا كي لا تطير البقيّه

فهل يستريحون ويريحون؟ لا اعتقد. فالوصي يحركهم ببنان إصبعه. أية إصبع؟ لا ادري.

يقول القرويون: لا احد يسدّ جورة احد. واقول لا احد يحارب حرب آخر. إخوتنا في الجزائر حاربوا إمبراطورية عظمى وقدّموا مليون شهيد على مذبح الثورة مهرًا لحريتهم. والشعب الڤيتنامي حارب الإمبراطورية الفرنسية وهزمها ثمّ حارب إمبراطورية الكاوبوي العظمى وقدّم أرواح الملايين مهرًا لحريته وما زالت صور الجنرالات الهاربين بملابسهم الداخلية تغطي شاشات التلفاز والصفحات الأولى من صحف العالم. ونحن شعب صغير وحي. شعب يعشق الكرامة والحرية والحياة. شعب صمّم على أن يقبض على أذن الفجر ويجرّه حتى يبزغ.

النقطة تجتاز المدار الشائك. وأنا كاتب صناعتي الكلام. أقدّم فناجين الزوفا الساخنة للقراء واطلب من عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ان يسامحني. لست من ضعفاء الإيمان. انا أملك لسانًا وقلمًا. اقاتل الاحتلال بكلمتي، بمقالتي، بقصتي. احيانًا ارضى عن دوري واحيانًا اقول طز في كل الكلام والقصائد والقصص والمسرحيات التي لا تضمد جرح جريح ولا تقدم رغيفًا لجائع ولا تجفف دمع أم ثاكل ولا تزرع ابتسامة على وجه يتيم.. ولا ترجم محتلاً بحجر!!

في شهر شباط الماضي، في التاسع من ذي الحجة من العام ١٤٢٢، صليت لله تعالى مع الملايين. وقفنا على عرفة خاشعين متسربلين بملابس الإحرام البيضاء مكشوفي الرؤوس نبتهل ونتوسّل للخالق الناصر أن ينصر شعبنا. وقف الشيخ أبو حسني، بجسمه القوي ولحيته الطويلة السمراء، وسط الخيمة بين مائة رجل يرشدنا. قال: سوف نغادر عرفة مع الغروب إلى المزدلفة وسوف نصلّي صلاتي المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، ونجمع الجمرات تسعًا وأربعين جمرة لنرجم بها إبليس. وردد الأحاديث النبوية والفتاوى الشرعية عن ضرورة الرجم.. واكثر من الاسناد والعنعنة. عن فلان.. عن أبي فلان.. عن إبن فلان عن أبي هريرة عن رسول الله صلعم انه قال.. وفي وسط هذا الجو الروحاني، في فضاء الإيمان، قاطعته بادب وقلت: « عن الشيخ محمد بن علي بن عبد القادر بن علي بن طه، غمرهم الله تعالى جميعًا

برحمته وثوابه قال: الفلسطينيون المرابطون مُعْفون من رجم إبليس! » وسكت. وتعلقت نظرات الحجيج برأسي المكشوف وبلحية الشيخ متسائلة عن سر الفتوى وصحتها، ونظر الشيخ أبو حسني إليّ مستغربًا متسائلاً عن هذا الشيخ الذي أسندت إليه الفتوى. أين درس الفقه؟ وما مدى تمكنه من علوم الدين؟ وما مكانته؟ وما يفتي ومالك في المدينة. وسألني بحدة: «لماذا هم معفون؟».

قلت بهدوء: أنتم ترجمون إبليس ثلاث مرات في يومين أو ثلاثة أيام من أيام الحج في السنة بينما يرجم الفلسطينيون المرابطون الاحتلال طيلة أيام السنة. لكم شيطانكم ولنا شيطاننا.

وارتبك الشيخ المرشد لدقائق قليلة طويلة ثم مسح العرق عن جبينه الأسمر العريض بظاهر كفه وقال: حسنًا يا أخي ما تقوله. ولكن ما يمنعك بأن ترجم الإثنين: الشيطان والإحتلال؟

فأجبته: لا. فالدين هو المساواة. وهذه الأيام هي رمز المساواة. فإذا رجمتم أنتم الإثنين الشيطان والاحتلال رجمنا نحن الإثنين أما إذا رجمتم الشيطان وحده نرجم الإحتلال فقط. وأنا على ثقة بأنكم تكتفون برجم الشيطان. فلكم شيطانكم ولنا شيطاننا. ولكم دينكم ولنا ديننا!!

وحدث هرج ومرج بين الحاضرين. بين مؤيّد لي وبين معارض، وبين مؤيد ولكنه يخشى أن تنقص حجته.

وانتقل خبر الفتوى من خيمة إلى أخرى وجاء البعض مستفسرًا وجاء البعض الآخر معاتبًا. وناقشته بعضهم ورفضه بعضهم.. وحذّرني صديق قائلاً: «أخشى أن يتهموك بالبدعة!».

وبعد الاجتياح في ٢٩ آذار للمدن والمخيمات الفلسطينية اتصلت امرأة من إحدى مدن الجليل هاتفيًا بزوجتي تشكو لها: هل صلينا طيلة شهر في مكة والمدينة ودعونا الله تعالى ليجتاح شارون الضفة الغربية؟

وتحمل الرياح رائحة الموت. وفي ساحة مستشفى رام الله يحفر الأطباء وطاقم المستشفى قبرًا جماعيًا للشهداء.

القبر الجماعي

نرجوكم. دعونا وحدنا للحظات نبحث عن قتلانا. عن شهيدنا الذي مات دفاعًا عن الأرض وما نال قبرًا يُدفن فيه فيها. شهداؤنا في قبر جماعي بعدما ضاقت بهم الأرض كما ضاق البحر بالسردين. محشورون. مكوّمون. لا بحبوحة في الحياة ولا في الموت. دفنتهم جرّافات الجنرال. بدون أكفان. بدون صلاة. بدون شواهد مكتوب عليها سورة الفاتحة.

من هؤلاء الاموات الأحياء في القبر الجماعي؟ بلا أسماء؟ لا . لا . لكل شهيد إسم . له أم ثاكل وأب حزين مثل زيتونة بتروا أغصانها . له أخوة يحبون الفجر ويغنون لبزوغه . له شقيقات انتظرن طويلاً طويلاً ليغنين ويرقصن في عرسه . وقد تكون له زوجة شابة أرملة . وطفلة مثل الملاك ما زالت تنتظر منه هدية عيد ميلادها . وله عم وبنات عم . وله خال وأبناء خال . وله جيران . وله سيرة حياة . آيّة زهرة كان يحب؟! الورد الجوري أم النرجس أم شقائق النعمان؟! وأي مكان كان يحب؟! تحت التوتة ام سطح الدار أم بين القندول والزعتر البري؟! وأي شراب كان يحب؟! الشاي أم القهوة على الريحة ام الزهور؟! وأية أكلة كان يحب . الكبّة النيّة أم السمك المشوي؟! وأية أغنية كان يحب ومن مطربه المفضّل؟! فيروز وأغانيها العاطفية والوطنية ام مارسيل خليفة وصوته الهادر الثائر الحزين؟!

الفراشات تطير تحلّق تطلع تنزل تدور حول القبر الجماعي .

الفراشات تغني . .

الفراشات تعدّد وتنوح وتبكي .

الفراشات تحترق .

يا أحبابنا ولحمنا ودمنا وأكبادنا . . هل أنتم أحياء بلا أسماء؟

هل متّم لتعطونا الحياة؟

قوموا . . إنهضوا وشاهدوا . . !!

هنا آثار أقدامكم التي ما تمكّن حديد الجنزرات والدبابات الشارونية - البوشية أن يمحوها .

هنا رائحة أنفاسكم ممزوجة برائحة دخان القنابل والقذائف والصواريخ .

هنا كلماتكم الأخيرة ما زالت تتماوج بين أنقاض البيوت التي كانت بيوتًا للدفء والحب . . صداها يتردد في كهوف الحياة .

هنا أرواحكم تطارد القتلة السفاحين المجرمين البرابرة .

هل تسمحون لنا بالبكاء؟

نحن بشر .

ما زال في عيوننا نظر .

وما زال في قلوبنا حب للزعتر وعبير البرتقال .

نحن بشر نضحك ونبكي . . ونردد آخر نكتة في مأتمنا كما رددتم في الخليوي آخر نكتة قبل استشهادكم!!

إيه أيها الشهيد!!

يخافك الاعداء حيًا وميتًا.

خافوك حيًا فصادوك بالطائرات الحربية كما تُصطاد النسور.

وخافوك ميتًا فاخفوا جثمانك كما تُخفى الحقيقة.

يرتعدون من ضحكتك الطالعة من القبر الجماعي.

لا ينامون.

باردة أسرة حبيباتهم.

طاردهم بسخريتك من غيابهم.. نعامات العصر. هذا الهائج مثل ثور كلما شاهد مخيمًا للاجئين. وهذا القاعد على عرش زئبقي مكتوب عليه Made in U.S.A. وقل: الا تعرفون ان التاسع من نيسان ٢٠٠٢ يختلف عن التاسع من نيسان ١٩٤٨؟ جنين ليست دير ياسين. صحيح ان المجرم واحد. وصحيح أن الضحية واحدة. وصحيح أن الأرض هي الأرض.. وصحيح أن الهواء هو الهواء. وصحيح ان الملوك الرؤساء الأمراء هم الملوك الرؤساء الأمراء. ولكن الفلسطيني اليوم ليس هو الفلسطيني في الأمس. دير ياسين بكت مرمية على الأرض.. ومخيم جنين يعانق السماء. وهذا ما يرعب الجنرال الذي وصل إلى سدة الحكم. يأتيه كوابيس في المنام.. إبرًا في الفراش!!

أيها الشهيد القتيل الذي بلا إسم بلا قبر بلا كفن.. يا ميتنا الحي.. يا عطر الزهر ونوّار الشجر. اراك اسمعك.. اراك اسمعك. اراك اسمعك. تنهض من القبر الجماعي.. تشقّ الأرض مثل حبة القمح وتقول: لو اعطوني الجثة صرخت ناديت «آه يا وطني»!!

رام الله

اشتقت إلى هذه المدينة الصغيرة مثل طفلة.. الجميلة مثل وردة برية في أول الربيع. رام الله العالية ابدًا القريبة من حضن الله. تُقبّل قبة الصخرة وكنيسة القيامة في الصباح وتبتسم للبحر ويافا في المساء.

رام الله الناس والبيوت والحدائق.

رام الله الحضارة والثقافة والحياة والحب والدفء.

اشتقت إلى الاخوة والاصدقاء والاحباب فتعال يا ابن أمي نراود صديقنا أبا السعيد محمد بركة لنخترق الحصار العسكري في صباح الغد ونتسلل مثل الندى إلى رام الله عسى أن نلتقي بالجياد الضامرة الاصيلة والمهرات البرية وشجرات الزيتون الرومية.

اخونا ابو فارس، مرعي عبد الرحمن، الشجراوي الأصيل، ذو اليدين النظيفتين، والعقل الكبير، والقلب المتعب حبًا بالوطن وبلدته الشجرة والناس البسطاء، ينتظرنا ليحدثنا عن

الحرية والسلام والاشتراكية والمسألة اليهودية.. وليصطحبنا في مشوار، في الشارع إياه، حتى نصل إلى بيت الشاعرة أنيسة درويش ونتفرّج على حديقة بيتها الجميلة الأنيقة. هل بقي البيت؟ وهل بقيت الأزهار الجميلة الباسمة والنباتات الخضراء الفرحة أم داستها ومعستها جنازير المحتلين الهمجيين الحضاريين؟

هذا زمن حضارة الهمج وهمج الحضارة!!

تعال يا ابن أمي نبحث في شوارع المدينة التي حفرتها الدبابات والمجنزرات.. وفي أحيائها.. بين الفيلات الجميلة التي كانت.. عن أحبائنا وأصدقائنا.. عن أخينا أبي الهيثم، يحيى يخلف، السمخاوي عاشق بحيرة طبريا ومُؤَنِّسِها، عن عزيزنا أبي منهل الطبراني الرجل الطيب الدمث، وعن صديقنا أبي خالد البطراوي الشيخ الشاب ليحدثنا عن ارنست همنجواي وتشيخوف وتولستوي.. وعن أخينا الوفي علي الخليلي وعن محمود شقير وليانة بدر وممدوح نوفل والمتوكل طه. ونسأل عن صحة الموهبة الكبيرة حسين البرغوثي، شفاه الله وأبقاه لأثر ويثرا ولنا!

وهل نزور رام الله ولا نعرّج على «مركز خليل السكاكيني»، مكتب الشاعر الكبير أخينا أبي سليم محمود درويش؛ لنبحث عن اللوحات التي شوهها العساكر وعمّا بقي من الصرح الثقافي الذي أغار عليه الجنود المتحضرون!

يكرهون الثقافة الفلسطينية!

يعادون الثقافة!!

اغتالوا كمال ناصر، الشاعر الرقيق. واغتالوا غسان كنفاني القاص والروائي والباحث الكبير. واغتالوا ماجد أبو شرار الكاتب المثقف السوري. واغتالوا.. واغتالوا.. واغتالوا «مركز خليل السكاكيني»؟!!

اغتالوا «بيت الشعر» ووزارة التربية.

اغتالوا وزارة الزراعة ومكتب إحصاء السكان.

اغتالوا معارض الرسم والمكتبات والمسارح.

اغتالوا عنادل الحدائق وعصافيرها..

ماذا بقي في رام الله سالمًا من عدوانهم؟

ها.. ماذا بقي؟

الإنسان أم الشجر أم الحجر؟

هل سلمت المقاهي الجميلة؟

ما أخبار لقمة الحمص عند سامر؟

وما أخبار «مطعم شقيرة» الصغير وما أخبار مطبّق زلاطيمو؟

يعقوب حجازي، يا ابن أمي، تعال معي لنرى المقاطعة التي تحوّلت إلى كعبة يتوجّه إليها الثوّار والاحرار والوطنيون في كل العالم.. ربما.. ربما أطلّ علينا من هناك تشي جيفارا ونجمته الحمراء.. ونلسون مانديلا وقميصه الملوّن.. وعرفات وكوفيته الأبيّة!!

قصفوا، لا باس

هدّموا، لا باس

دمرّوا، لا باس

قتلوا، لا باس

أسروا، لا باس

نهبوا، لا باس

ولكنهم، يا ابن أمي، لن ينتصروا.. لن ينتصروا.. لن ينتصروا.. فشعبنا الصبور الأصيل يعرف كيف يقبض على الفجر من اذنه ويسحبه حتى يطلع. فتعال لنرتاح قليلاً قليلاً.. بعد المظاهرات وجمع المواد الطبية والغذائية.. تعال لندخّن نرجيلة عند أبي السعيد ذي الطربوش الاحمر والسروال الاسود والقميص المطرّز.. في البردوني!!

هو عمر واحد..

نبكي ونضحك..

نجوع ونشبع..

نتفاءل ونتفاءل..

ونتمتع قليلاً قليلاً!

ونبني رام الله من جديد!

ويحاصرني الحصار.

وأتمرد لاحاصره.

وأشارك في المظاهرات. الجماهير تشحن المرء بمعنويات عالية. والمظاهرة تطرد اليأس وتنقي النفس من الإحباط.

حاجز قلنديا يختلف هذه المرة عن السنة الماضية. في آذار ٢٠٠١ وصلت إلى الحاجز مع كوكبة من الادباء والشعراء والفنانين لنزيل الحصار.. وجاءت من الطرف الآخر.. من نصفنا الآخر.. مجموعة كبيرة من الادباء والفنانين.. واشتبكنا مع المحتلّين. وأزلنا الحواجز واعتلينا تلة صغيرة والقينا الكلمات.

تكلم الاستاذ فيصل الحسيني بحماس شديد. فيصل إنسان نقي ورائع ومحبوب.

وتكلمت الدكتورة حنان عشراوي.. وحنان طاقة فكرية وإعلامية هائلة. وتحدثت وركزت في حديثي على أن «الاحتلال هو الإرهاب».. ورددتها كثيراً لأرسّخها!!

وأما في هذه المرة فالدبابات والمجنزرات والعساكر يملأون الشوارع والساحات.. والمتظاهرون كثر. أعضاء برلمان ورؤساء سلطات محلية وأدباء وفنانون وعمال وطلاب وقوى يهودية وأطباء وممرضون!

المتظاهرون يهتفون بغضب ويصرون على إزالة الحاجز وإيصال المواد الغذائية والطبية والجنود متوترون والحقد يطلّ من عيونهم.

وتتساقط قنابل الغاز..

ويتطاير الرصاص المطاطي.

وأشعر بضيق بالتنفس.

والعمر لا يتفق مع المظاهرات الصاخبة والعنيفة.

وتنقل سيارات الإسعاف الجرحى.

ويقترب مني شاب يناولني بصلة ويقول: «لماذا جئت إلى المظاهرة؟ مكانك ليس هنا. نحن بحاجة إليك!!».

مكاني ليس هنا؟! لا. لا. بل هنا. مع الناس.

وأشارك في مظاهرات أخرى في حاجز صندلة وفي حاجز سولم وأمام السفارة الأمريكية وفي مدينة حيفا وفي غيرها.

في المظاهرات أحاصر الحصار. ألم يقل محمود درويش «حاصر حصارك»؟

لا بد أن نحاصر الحصار. نطوّقه. نخترقه. نتغلّب عليه. هذا الجنرال غبي ولا يفهم منطق التاريخ. التاريخ يقول إن النصر للشعوب. وشعبنا سوف ينتصر. الاجتياح لن ينتصر على إرادتنا.. على صمودنا. يا شر.. شر.. شرشر.. شارون.. يا شرّاً لا بدّ منه. هذه هي المعركة الأخيرة. لن ننهزم. لن نرفع راية بيضاء.. أمامنا خياران.. خياران إثنان. إثنان فقط لا غير. إما النصر والاستقلال وإما النصر والاستقلال!!

ومرة أخرى تراودني هذه المثقلة بالآلام والأسى وتقول: إدفنوا أمواتكم وانهضوا..

ورحم الله شاعرنا!!

آمين!!

قاص فلسطيني مقيم في كابول

أنطوان شلحت

تهويمات في حضرة الحصار..

(توطئة)

التهويم، معجميًا، هو النوم الخفيف. وهذا هو المعنى الذي يناسبني أن أستأنس به في لاحق السياق.

في تفسير التهويم أورد «لسان العرب»، ضمن أمور أخرى، قول الفرزدق يصف صائدًا:

عاري الأشاجع مشفوة أخو قنص،
ما تطعَمُ العينُ نومًا غير تهويم

(١)

غير التهويم ما أظنّ أن العيون طعمت نومًا في الحصار الأخير. وصادف، في حالتي المخصوصة، أنه كل مرة كان يأتي في وقته، لجهة الإيذان بالتمرّد على مقولة: «أنا الصورة أنا الواقع». فهذه المقولة كادت أن تتكرّس من فرط تعلّقنا بأهداب فضائيات عربية أصبح عددها، في زمن «السماء المفتوحة»، يقارب عدد «البعوض في المستنقعات» (من حيث دلالة الكثرة). وتنوس بين التنافس المهني وبين قوة تأثيرها المقدورة على مطاردة غاية تعليب الواقع من خلال الصورة، على صورة الذين تنطق بإسمهم.

(٢)

الواقع، في حقائقه، سرعان ما يستدعي الذاكرة.

وفي تهويم الحصار تداهم، من دون استئذان، ذاكرة التشخيص.

تداهمني في الصباح الكابي، كما في الليل المدلهم الذي يرخي سدوله على الكلام.

ذاكرة التشخيص مكتظة بأشخاص مختلفين من عصور غابرة. ومكتظة بغيرهم من أشخاص هذا العصر – عصر الحياة بين حصار وآخر في انتظار الحصار القادم.

وجميعهم، بلا استثناء، يرون ما أريد.

والعودة إلى رؤيتهم، في حضرة الحصار، تكفيني أيضاً مؤونة الرؤيا.

عيونهم الثاقبة لم تعلّل فقط بما فعل الآخرون بنا، ولم يكن ما فعله هؤلاء قليلاً.

من هنا تبدو الطريق إلى رؤية ما فعلنا لأنفسنا، بأنفسنا، قصيرة.

لكن،

لماذا ذاكرة التشخيص بالذات؟

ربّما – أحاول الإجابة على تساؤلي بيني وبين نفسي – لأن التجربة الثقافية العربية تختلف عن تجارب ثقافية أخرى، بقدر ما تيسّر لي الإطّلاع عليها هنا واليوم، بكون إبداعها في تشخيص الحال لا يدانيه إبداع آخر في هذا المضمار.

ولكي أقطع أي شك بأن محاولة الجواب السالفة تنطوي على شهادة «حسن سلوك» للسلطة السياسية العربية أضيف على الفور:

لعل التأثير السحريّ للكلمة على العربيّ وتعلق العربيّ بالكلمة – كما يقول أحد المفكرين من نزلاء ذاكرة التشخيص – هو ما يفسّر اهتمام هذه السلطة على تفرعاتها الشتيتة بوسائل الكلام ومدّها بكل عوامل التطوير الظاهرية، بما في ذلك الفضائيات، وهي الضامنة بأن يظلّ هذا كله على حساب الفعل والعمل والإنجاز، وهو ما يجعل للمثل العربي المعروف «إم لسان غلبت إم أفعال» معنًى ومغزًى.

لكأنّ التشخيص هو أقصى ما يحقّ لمن يتمتعون بتفاؤل العقل (ليس الجميع، بطبيعة الحال) أن يبدعوا فيه تحت سقف «ثقافة التفكير» العربية، لمجرّد هذا التفاؤل الذي اقترفوه.

(٢)

يحق لنا – يقول زكريا تامر – أن نسير في المظاهرات الغاضبة ونصرخ بحماسة حتى تبح أصواتنا آملين أن تلمحنا الكاميرات التلفزيونية لتؤرّخ مواقفنا الوطنية والقومية والإنسانية، فهذا كل ما نستطيع تقديمه للذين يموتون مقتولين مظلومين.

ويحق لنا أن نضحك، فقاتلنا لن يؤجل عمله إذا رأى وجوهنا عابسة.

ويحق لنا أن نتكلم من غير توقف، ففي القبر الموحش سنحرم الكلام وقد لا نجد من نكلمه ويكلمنا.

ويحق لنا أن نبتعد بنفور وعداء عن كل ما هو مصنوع من ورق مطبوع، فقد خرجنا من بطون أمهاتنا متخمين بأشمل ثقافة.

ويحق لنا أن نتذمر من زوجاتنا وأولادنا وجيراننا وأطبائنا وجرائدنا وأدبائنا وأفلامنا،

حتى لا نتذمّر من حكام أشباح هم الماء المالح والسمك الفاسد والهواء الملوّث. فالتذمّر الأول مؤدب حكيم مستساغ مشوّق، والتذمّر الثاني مجلبٌ للمهالك..

ويحق لنا الإيمان بأن حياتنا هي جهنم، ولن يحكم علينا بعد مماتنا بجهنم أخرى حتى لو كانت ذنوبنا جبالاً..

ويحق لنا أن ننام نومًا عميقًا طويلاً لا نهاية له، فليس لدينا ما نفعله إذا ما استيقظنا.

(٤)

زكريا تامر هو واحد من المشخصنين للواقع العربي، الذين رجعتُ إلى نصوصهم دون استئذانهم، وقد أسمح لنفسي بعدم ذكرهم لأن «وضع لائحة بمراجع العمل مزعج»، بتعبير إيزابيل الليندي التي تضيف في تسويغ ذلك قولها: «النسخ عن مؤلف واحد سرقة أدبية، والنسخ عن كثيرين بحث».

أما غاية البحث فمحدّدة في اختيار شذرات من سياحات التشخيص في «العقل العربي» تتصل مبنًى ومعنًى بالصراع مع الصهيونية وإسرائيل، مبرِّر هذه الكتابة التي ترِفّ على سطح الكلام كما يرفّ التهويم بين اليقظة والمنام.

(٥)

نبدأ بالأولين.

ومنهم يكفي نجيب عازوري الذي أعلن في كتابه «يقظة الأمة العربية» (١٩٠٥)، فيما يشبه الرؤيا التاريخية، أن «ظاهرتين هامتين، متشابهتي الطبيعة بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن، تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية، أعني: يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفيّ لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى. وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلّق مصير العالم بأجمعه».

هذه الرؤية الإجمالية لم تغر صاحبها بالقفز عن تفاصيل مهمة. ومهما تكن هذه التفاصيل فإن واحدًا منها يبدو شديد الأهمية وعظيم الدلالة، وهو تبيان التفاوت البيّن في مستوى التطوّر الحضاري بين يهود أوروبا وبين الفلسطينيين والعرب (مع أنه اكتفى بإرجاع تدنّي مستوى التطوّر لدى الآخرين إلى كونهم «مقيمين تحت مظلّة العثمانيين في آسيا»). فعلى الجانب الفلسطيني رأى عازوري «النزاع وعدم التنظيم

والجهل والبؤس». وعلى الجانب اليهودي المقابل طالع «الاتحاد والغنى والمركزية والعمل الموجه بفكرة واحدة فقط وطبقًا لبرنامج مصمم سلفًا».

ما يهمني أن استقطره من المقبوسات السالفة أن لغة عازوري «ليست بديلاً عن الواقع، إنها وسيلة للتعبير عن التجربة والاقتراب من الحقيقة».

هذه اللغة، في دلالتها المذكورة، يرفعها مثقف عربي، بعد انقضاء حوالي مئة عام على استعمالها، إلى مصاف أحد شروط النهضة العربية المشتهاة في أيامنا: شرط تسمية الأشياء بأسمائها.

«لا يستطيع العالم العربي تأسيس نهضته - يضيف - من دون أن يعي هزيمته. نعم تبدأ النهضة عبر تسمية الهزيمة باسمها. لقد هزم العرب أمام المشروع الإسرائيلي - الأمريكي. وعليهم الاعتراف بذلك. هذا إذا أرادوا مقاومة الهزيمة، أما إذا أرادوا البقاء في مياه الانحطاط الآسنة، فما عليهم سوى تسمية الهزيمة انتصارًا والذلّ فخرًا والركوع وقوفًا».

عندها لا يلومنّ أحد سوى نفسه.. «ويل لأمة لا ترفع صوتها إلاّ إذا مشت في جنازة، ولا تفخر إلاّ بالخرائب، ولا تثور إلاّ وعنقها بين السيف والنطع.. ويل لأمة فنّها فنّ الترقيع والتقليد.. ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير، لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير».

(٦)

أتذكّر هذه الكلمات لجبران، التي قد تكون استُهلكت كثيرًا، والنتيجة ليست النتيجة.

«ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها، وتخنع لها في يقظتها».

في هذه المقولة دلالة الطلاق بين الحلم والحقيقة.

دلالة تحيل، بكيفية ما، على الغموض في التفكير العربي، الذي اعتبر في أكثر من مناسبة امتدادًا - أو نتيجة - لسيطرة الثقافة اللغوية العربية القائمة على المجاز والاستعارة والكناية والتورية والجناس والسجع والطباق والمقابلة والمترادفات والقافية، وعشقها للألغاز البلاغية أو النكات البيانية أو المقالب اللغوية التي يصعب أحيانًا فهم المقصود منها، فتغدو وسيلة للحيلة.

يقرّ بيار بورديو بأن عملية انتقاء الدلالات، من حيث أنها نظام رمزي يحدّد موضوعيًا ثقافة جماعة، هي عملية تعسفيّة وذلك لأنه يبقى مستحيلاً استنباط بنية هذه الثقافة أو استنباط وظائفها من أي مبدأ عام بيولوجي أو ذهني / روحي، كونها لا

تتحدّد من خلال أي نوع من العلاقات الداخلية / الخاصة مع مقولتي «طبيعة الأشياء» أو «الطبيعة الإنسانية». مع هذا يؤكد أن العملية المذكورة هي بمثابة نظام رمزي ضروري من الناحية الاجتماعية – المنطقية.

(٧)

قال الشاعر:

الشهيدُ يعلمني: لا جماليُّ خارج حريتي.

إنها الحرية، إذًا، في المبتدأ وفي الخبر.

وهي ليست ضنينة، في المطلق، حتى بهذا الهامش من التهويم في حضرة حصار يزداد تطويقًا..

كاتب وناقد فلسطيني مقيم في عكا

ماما.. طيّارة.. طخّ

(١)

لم يكن الليل أشدّ حلكة من سواد الانتظار، أن تنتظر موتك أو حياتك، اختزال مخلّ لإنسانيتك، واستسلام غير مقصود للعبة الموت التي يجيدها الآخر، الإسرائيلي. في انتظار الموت أكثر من موت، وأيضًا أكثر من مخيلة تتحايل على ما هو قائم باستنهاض اهتمامات صغيرة توارت خلف طموحاتنا غير المدروسة وغير المسنودة التي عجت بها حياتنا في السنوات السابقة. فقد طرزت جنين استشهادها بروح عالية لتقول لنا الكلام الذي أزحناه وواريناه ثرى نفوسنا الواهمة. وجاء صغارنا ليعلمونا درسًا أهملنا استذكاره كما يحق له. ها نحن، نتناول جيدًا موتنا ضد موتنا. لا وقت للعزاء ولا وقت للفرح، هنا وقت فلسطين كما كانت تكون، تنسج هويتها من دمها، تعيد إحياء مفهومها المنسيّ، تؤثث لبهاء لا آنية فيه.

من هنا نحن، من هذه الأرض الصغيرة.. الصغيرة، الكبيرة.. الكبيرة. لا شيء يخاتل هوى نفوسنا غيرها، ولا جرح يروق لروحنا غير جرحها. ما توارثناه من حزنها أجمل من شتات الفرح. هنا ولدنا، وفيها ما يستحق الحياة والموت. يا خزانة الذاكرة، وسّعي تمامًا غرفك، وافتحي شرفاتك على وجع لا يزول، وحلم يتصيّد أدواته من وحدانية جرحه.

(٢)

في يومها ذاك، أصبحت غزة على فجيعتها، مشهدًا لم تصنعه المخيلة، إنه هناك يتنامى من أعضائنا. في ذلك الصباح تأجلت أفراح محتملة، وأخذ الترقب والحسرة يتموان بين الجلد والثياب، بين وقتنا ووقتنا. وغامر ليلنا بيقظة متوترة. كلنا انطوى على فجيعته وبنيه. يا هول أيامكم يا أبناءنا، هل يكفي خوفنا عليكم لحمايتكم.

يقول بسام: أين ستهربين، هل الغرفة في آخر البيت الصغير أكثر حماية من غرفة في الواجهة. أصرخ فيه وأنا أجري حاملة أوغاريت بين ذراعي بعد أن أكون قد اختطفتها من نومها خوف ألا تستيقظ منه. الآن لم يعد ينفع ذلك، أصبح لك ابنتان يا دنيا. لا الجري بين الغرف، ولا هلعك عليهما وعلى أيامهما يكفيان لتوفير الأمان لهما. ماذا إذن.. لا شيء أكثر من هذا ولا أقل منه.

شام ابنتنا الثانية منحناها ستة أشهر من خوفنا وما يزيد في انتظارها. يستطيل التساؤل فينا، هل كان خطأ أن نكون آباء وأمهات، يأكلنا الخوف على الأبناء ليل نهار، وهل يجعلنا ذلك نستحق هذه الأرض.. لا نملك إجابات، فقط نملك لحظتنا، ماضيها وحاضرها، ونبذل محاولات جادة للمستقبل. إننا نخاف على أبنائنا لأننا نخاف على هذه الأرض، ولا بديل لنا عن كليهما.

أقول لنفسي: لا تخافي من نفسك. أنت قوية لأنك على هذه الأرض، ولأن الآخرين مثلك يتجاوزون خوفهم اليومي إلى خوفهم المستقبلي. نعم امنحي خوفك حقه من الرعاية ومارسي حياتك، احبي زوجك وابنتيك، واحفري ذلك نصوصًا لا تنسى.. هل بالإمكان، حقًا ذلك.

(٢)

الساعة الثالثة عصرًا، شارع النصر الأكثر ازدحامًا في غزة، سرّح عابريه إلى بيوتهم، رغبة في المشي غير الهادف تملأ كياني. هل تمنحني القدمان ما فقدته الروح، أفتش عن أحد أعرفه التقيه صدفة، لكن لا أحد ولا نفسي.

شاشات التلفاز سرقت الجميع من شواغلهم، من خناقاتهم ولقاءاتهم، خلت عتبات البيوت من جلسات لعب «الشدة»، وحلّت محلها مشاوير التموين، وهواتف الاطمئنان. تخلخلت برامجنا اليومية ليصطادها القلق والترقب والألم واللعنات على العرب وعلى أنفسنا. الطائرات تجرح انطوائنا المشروع، وتعلّم الأطفال مبكرًا لغة الموت والحرب والفزع، تزعق أوغاريت: «ماما.. طيّارة.. طخ»، يحاول بسام تلهيتها بشيء آخر، غير أن أزيزها يفوّت علينا الفرصة.

(٤)

في الحصار فقدنا وظائفنا وامتهنّا لعبة الانتظار القاتلة، وبعض نشاطات صغيرة لمواجهة محتملة، ونتتبع نشرات الأخبار مع لعنات وحسرات متوقعة. نراقب رجال المقاومة وهم

يجوبون الشوارع حاملين أسلحتهم البسيطة، يبثون الأمان والأمل في نفوس الناس، يسيّجون الشوارع بالرمال الللعّمة، يحرسون نومنا القلق في انتظار نومتهم الشهيدة، من سيكون الأسبق إليها نحن أم هم..

(٥)

امتدَّ الانتظار حتى وصل إلى نهايته، تململ أكثرنا حتى زهقت روحه فأخرجها من حبستها، وقال لها: حين يجيء الموت لا يفرق بين الشارع أو البيت.

(٦)

تشتعل فينا رغبة الحياة، تماماً، كما تشتعل رغبة الانتقام، فأيهما التي ستنتصر..؟

شاعرة فلسطينية تقيم في غزة/فلسطين

أحمد رفيق عوض

عن «المحسوم» والمقسوم

(١)

الآن، في هذه اللحظات التي اطبق فيها العالم علينا، أحلم بموسيقى هائلة، مذهلة، تحملني إلى ذرى الجبال البعيدة الغامضة، وتسحبني إلى الأودية العميقة ذات العتمات وخرير المياه، وتطير بي فوق السهول الخضراء والصحراء الصافية، أريد موسيقى جليلة، فيها إنتشاء وطرب وأريحية، فيها قوة ومجد، أريد موسيقى أحارب بها العالم، أنظف بها الأرض والناس، أشهرها أمام المجانين والمرضى والموهومين.

لماذا الموسيقى الآن؟! لماذا الموسيقى أمام الحصار؟! لا ادري، لا ادري حقًا، ولكني صرتُ خلال هذا الحصار اغبط الناس كل شيء، السفر والاجتماع والصحبة والسهرة وحتى متعة المرض والذهاب إلى المستشفى والشجار مع الممرضات العوانس والاطباء المهملين.

(٢)

الصحفية الكندية التي تعمل في وكالة C.B.S التي كانت بصدد تقرير تلفزيوني عن صحفي فلسطيني وآخر إسرائيلي يعملان في تغطية احداث الانتفاضة، قالت إنها اختارتني – بعد ان نُصحتْ بذلك – واختارت الون بن داڤيد المراسل العسكري للتلفزيون الإسرائيلي، امضت معي يومًا في تصوير لحظات عملي في الميدان والمكتب.

فاجأتني بالسؤال: لماذا لا تلبس واقيًا ضد الرصاص؟!

فوجئت حقًا. قلت لها بسرعة: الاعمار بيد الله، ولست افضل من ابناء شعبي. ولكن العقل السياسي وتسجيل المواقف دفعني إلى القول: ونحن في المؤسسة لا نملك مالاً لشراء مثل هذه الواقيات. (وهو كلام صحيح).

قالت لي: ما رأيك بالإعلام الإسرائيلي؟!

قلت لها: الإعلام الإسرائيلي يصدق عندما يكون الصدق في صالحه.

قالت: وأنتم تحرضون على القتل!!

قلت: ما رأيك لو صرنا نسبح بحمد الاحتلال الإسرائيلي؟!

ضحكت المرأة من أعماق قلبها وكأنني قلت نكتة حقيقية.

أكملت وأنا أرغب بشتيمة بذيئة: الإسرائيلي الحالي يا سيدتي يرغب بأن يتحوّل إلى إله معبود من كل أحياء الأرض. الإسرائيلي الحالي يُصدق فعلاً بأن كل ما يقوم به مبرر لأنه قادم من أسطورة، أشبه بالأبطال الخارجين من الحكايات.

(٣)

مضى أكثر من عام دون أن أشاهد شقيقتي وأولادها وزوجها، شقيقتي تسكن في يعبد، شمال الضفة، أما أنا فأسكن في رام الله. الطريق التي كانت تستغرق ساعة ونصف الساعة في أسوأ حالاتها، صارت تستغرق أكثر من سبع من الساعات الطوال المحفوفة بكل المخاطر، فقد قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي بزرع الطريق ما بين رام الله ويعبد بالعديد العديد من «المحاسيم». هكذا صار إسم الحاجز لدى أبناء الضفة والقطاع. صار «محسومًا» ولا بد من التعامل معه بطريقة ما.

أبناء شعبي الذين اعتادوا الاحتلال والقتل والإذلال والمصادرة والكذب والخديعة، اعتادوه إلى درجة الامتصاص والتجاوز، جعلوا من «المحسوم» أسلوبًا آخر من أساليب الحياة، فعندما يعمد الاحتلال إلى وضع أو نصب «محسومه»، يقوم أبناء شعبي بنصب العرائش وعربات اليد والبسطات ويبدأون ببيع الشاي أو القهوة أو أسياخ الحديد المحملة بقطع اللحم المجمد الذي يباع على أنه لحم بلدي، يمارس الجنود فنون «سفاهتهم» ويمارس أبناء شعبي أسلوب حياتهم، وقد رأيت بعيني الناس الذين يتجاوزون «محسوم» الاحتلال بعد أن يظهر الواحد «هويته» ويطن لحمه وأعماق حقيبته، يقف بجوار بسطة خضار ليبتاع شيئًا لأطفاله، وعندما يغضب الجنود لسبب ما - وما أكثر غضبهم وفقدانهم لأعصابهم - ويبدأون بإطلاق النار، يسرع الباعة وأصحاب سيارات الأجرة والحاضرون إلى إقناع الجنود بعدم الغضب والتعهد أمامهم بأن كل شيء سيجري على ما يرام. والعجيب أن الجنود يهدأون ويتراجعون وكأنهم أطفال، ويعود الباعة وأصحاب التاكسيات إلى مواقعهم بعد أن حوّلوا الموقف كله إلى سخرية، ويبدأون بتأليف حكايات وقصص حول ما حدث وكيف تمّ إقناع الضابط الأشقر أو الأسود بعدم إطلاق النار. «المحسوم» المهين المذلّ تحوّل إلى ساحة أخرى من ساحات المواجهة العجيبة بين شعب مدجج بالقنابل والرؤى وبين شعب أعزل إلاّ من أحلامه بالحرية، بمفاهيمها الأدنى.

(٤)

كنت أرغب برؤية ضابط «المحسوم» الذي منع تلك المرأة الفلسطينية التي تعاني من المخاض من المرور إلى المستشفى. كنت أرغب في رؤية وجهه ويديه وشعره، كنت أرغب في سماع صوته وهل كلامه يشبه كلامنا وله صوت كاصواتنا؟ كنت أريد ان أساله حقًا عن والدته وشقيقته وعمته وخالته. كنت أريد أن أستمع إلى ذكرياته ودفقة الحب الاول في قلبه، وعن شكل غرفته وعن ازهار حديقته. كنت أريد أن أعرف إسمه وكيف يناديه أصدقاؤه. للاسف، لم يتسنَّ لي ذلك!!

(٥)

الإسرائيليون يحرموننا من متع الحياة الابسط، حتى الغزل نفقد الرغبة فيه، فالمكشوف والمعرى والخائف لا يرغب بالأكل أو الغزل. نحن بدون أمن. نحن مكشوفون: مكشوفون للدبابة التي تربض على التلة المقابلة، ومكشوفون للمستوطنة التي تاكل كتف الجبل المجاور، ومكشوفون لـ «المحسوم» الذي يقطع الطريق، ومكشوفون للدورية التي تجوب القرية أو المخيم، ومكشوفون للحرب الإعلامية التي تراقب مصطلحاتنا، ومكشوفون لكل شيء آخر. فمن أين كل هذه القدرة المذهلة على اجتراح النكات والقصص الهزلية التي يتبادلها الفلسطينيون عن الإسرائيليين. ومن أين هذه القدرة العجيبة للمرأة التي استشهد أبناؤها للقول: سنواصل.

الإسرائيليون لا يلتقطون روح المنطقة ابداً. الإسرائيليون سكروا بخيلاء القوة. الإسرائيليون لا يرون جيدًا. لا أريد ان ادخل في جدلٍ سياسي. أرغب بالكلام عن التفاصيل. والتفاصيل بحضورها الكثيف تشكّل المفهوم الكبير. والتفاصيل تقول إن الحكومة الإسرائيلية – حفظها الله – تريد أن تعيد اكتشاف التيار الكهربائي. فقد دفعت بآلاف مؤلّفة من جنود باعمار شابة لا تتجاوز الثلاثين وحمّلتهم بكل أنواع الأسلحة وامرتهم بان يفتكوا بشعب اعزل لا يطلب من الحياة سوى الحرية.

الجنود الشبان – الابرياء – قاموا بالمهمة خير قيام، واقتلعوا «جذور الإرهاب» ولكنهم تركوا كل شيء على حاله؛ فالإسرائيلي لم يحصل على الأمن، والفلسطيني لم يحصل على الحرية. ولهذا كانت المذابح زائدة وغير ضرورية، وعلى إسرائيل أن تدافع عن نفسها إلى ابد الآبدين. إسرائيل تندفع إلى الخانة التي يدفعها إليها العالم، وأخشى ما اخشاه حقًا ان يقبل الإسرائيلي بالصورة العامة التي ترتسم عنه في العالم. إذا وصل الإسرائيلي إلى الاقتناع بانه «مارق» ثم يقبل ما يترتب عليه من التخلّي عن الإلتزامات الاخلاقية

والحضارية، فإننا الشعب الوحيد الذي سيدفع ثمن ذلك، وقد دفعناه حتى الآن مذابح عديدة آخرها ما حدث في جنين.

الإسرائيلي لن يربح بالاستسلام للقوة وخياراتها، أقول ذلك مرتاحًا ومقتنعًا ومؤمنًا، الإسرائيلي لن يربح أبدًا إذا رضي وقبل واقتنع بأنه «القبضاي الوحيد» في المنطقة. في هذه الأرض لا «قبضاي» يدوم ويستمر.

وإذا أسس الإسرائيلي معتقداته على أساس راسخ من الأوهام والأفكار التي تبيح له أن يستعمر الأرض والرواية والمستقبل، فإن هذه المنطقة تفيض بمثل هذه النهايات.

(٦)

أمام الدم تفقد الأفكار قيمتها، يتعطّل العقل وتندفع الغرائز كالبراكين. والفلسطينيون يمتلكون ملايين الحكايات حول الدم الذي سفحه الإسرائيليون في كل المواقع.

الحكاية التي تُنسج بين الشعبين قائمة على الدم والقتل. وأمام ذلك يبدو الكلام القيّم والأفكار المبدعة أشبه بالنكتة البائخة.

قل لي كيف نقنع ذوي الضحايا في مخيم جنين بالهدوء إذا لم نقدم لهم العدل؟!

قل لي كيف نحصل على سلام بدون مساواة وبدون أمل وبدون الوعد بيوم أفضل؟!

الدم لا يُغسل بالدم، إلاّ إذا تأسس ذلك على العدل.

الإنسان ينحاز إلى العدل بفطرته ويقاتل الظلم بفطرته.

إسرائيل تقوم حقًا بحرب ضد الفطرة. ولا أحد ينتصر على الفطرة.

(٧)

لا يمكن لإسرائيل أن تصمم شعبًا فلسطينيًا على مقاسها وحسب شروطها.

ولا يمكن لإسرائيل أن تصمم الماضي والحاضر والمستقبل حسب أوهامها.

ولا يمكن لإسرائيل أن تصنع السلام مع نفسها.

هل أقول جديدًا الآن؟!

بالتأكيد لا أقول جديدًا، ولكن الجديد هو أن مجموعة من عَبَدة النصوص يعتقدون أن الكون خُلق من أجلهم فقط، وأن الشعوب خُلقت من أجلهم فقط. يريدون أن يقتلوا الغزال ثم يبكوا عليه ثم يغفروا لأنفسهم ذلك ثم يقبل العالم اعترافهم ويسامحهم، «ألم يبكوا الغزال ثم طلبوا الغفران»؟!

(٨)

إحدى الطالبات اللواتي كنت أدرسهنّ في كلية الصحافة بجامعة بير زيت، كتبت لي في الوظيفة التي طلبتها منهنّ حول تقرير إذاعي يسردن فيه تجربتهنّ عن «المحسوم» ما يلي: الجندي الذي عرف أنني أحمل جواز سفر أرجنتيني رفض السماح لي بالمرور. حاولت أن أقنعه بكل ما أملك من قوة إقناع (الطالبة كانت جميلة بشكل ملحوظ)، ولكن الجندي رفض ذلك تمامًا، وفي النهاية اعترف أنه من مشجّعي الفريق البرازيلي ولهذا سيمنع كل أهالي الأرجنتين من المرور عبر «المحسوم».

(٩)

الآن، وبعد أكثر من ثمانية عشر شهراً من القتل والدمار والحصار، والعذابات التي لا تُحصى، لم تعد هناك إمكانية للعيش مع الاحتلال. لقد قام الاحتلال بما عليه من عمل وسخ. الناس، الناس العاديون رأوا بأعينهم وجلودهم وأسلوب حياتهم ما المعنى الحقيقي لكلمة الاحتلال. أدركوا مدى غبائه وبشاعته وظلمه.

اعتقد هنا جازمًا أن الإسرائيليين لم يدركوا بعد نعمة السلام.

سلام أوسلو الذي مضى أرادوه تكريسًا للاستيطان ليس إلاّ.

أعطونا ما نريد من رموز وأخذوا ما يريدون من أرض، هكذا كانت السنوات السابقة. فهم الإسرائيلي السلام على أنه مرحلة جديدة من تكريس الاحتلال بقبول محلي وعربي ودولي، عمل الإسرائيلي خلال السنوات السابقة على أن مرحلة أوسلو هي مرحلة أخرى من مراحل الهجوم.

أعتقد جازمًا أن الإسرائيلي لم يدرك بعد ما معنى السلام، ذلك المعنى الذي يضمن العدل. ومن الغريب أن شعبًا مثل شعب إسرائيل الذي يتفاخر بمفهوم العدل والعدالة – على الأقل في أدبياته الدينية والأدبية – يمارس أبشع أنواع الظلم بحق شعب يرغب أن يعيش بجواره إلى الأبد.

إسرائيل ما تزال تواجه الأسئلة القديمة إياها، وكأن الزمن لا يمشي إلى الأمام في هذه البلاد!! الاحتلال يورّط نفسه ويورّطنا معه.

كاتب وصحفي فلسطيني من يعبد ومقيم في بير زيت/ فلسطين

زيــاد خـــداش

ابتسمي رام الله يا عاصمة الحب والندى

(١)

مهيب المجنون ثملٌ في غرفته، مهيب الشاعر الرديء الذي جاء الى فلسطين بتصريح زيارة انتهى مفعوله لا يملك الآن حق الاقامة في وطنه في عاصمة الروح والندى، خائف مهيب هذه المرة.

– انهم يصعدون الدرج يا صديقي وما زال الكتاب في يدي.

– اي كتاب؟

– «زمن القتلة».

(٢)

جالسًا في محراب يقيني اليائس في عمق الهبوب الأخير أمارس موهبة الندب أتأمل فكرة مجنونة، فكرة ان يكون خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي وطارق بن زياد مجرد أحلام مدرس تاريخ محطم. واقفاً في مهب حنيني، في جنون انحداري في حكمة دمي أمارس موهبة الصباح: يا حسين البرغوثي يا صديقي ويا معلمي أيها الرائي المشتعل هل فتشوا بيتك في كوبر؟ ماذا قلت لهم يا حسين ؟ ماذا قلت للضابط الروماني حين شاهد مندهشاً كتب سيوران على الطاولة وابتعد ست خطوات الى الوراء وغمغم بارتباكٍ ثم اختفى.

(٣)

أملّ من الجلوس في البيت، أمل من نواح النسوة وصياح الرجال في محطات العرب الفضائية، أمل الاخبار والتحليلات، أمل الأمل بتحرك عربي يكسر العادة. أخرج الى الجبل متأبطاً نيتشه وريتسوس مثقلاً بذهن مسكين قتلته بحثاً عن اجابات ضائعة

لأسئلة قديمة: هل العرب بالفعل ظاهرة صوتية؟ هل كنا بحق يوماً ما أسياد العالم؟ هناك غريزة تدعي الكبرياء وهي متفاوتة من شخص الى آخر ولكنها موجودة، حتى القطط تمتلكها.

على رأس الجبل أقف شاهراً حيرتي ويأسي في وجه المستوطنة.

آه، المستوطنة مرة أخرى.

صوت القذائف يزداد جنوناً.

أرى بوضوح طرف رام الله الغربي، عمارات شاهقة وصمت.

رام الله الآن على موعد آخر مع الدبابة والجرافة والبسطار.

(٤)

لم تهنأ رام الله يوماً بأيام صفاء، هي هكذا دائماً تترنح بين الطلقة والجدار.

أبناء أخي ورائي:

«عمو اقتحموا مكتب ابو عمار وأبو عمار مش رح يستسلم».

اربت على رؤوسهم وأسألهم: ما العمل إذن، ما الذي تقترحونه؟

قالت حنان، ابنة الثامنة: نهجم على المستوطنة نخطف عشرة مستوطنين ونبادلهم بأبي عمار.

اضحك بصوت عالٍ، يحذرني محمد ابن السادسة:

«عمو بسمعوك اليهود».

أطلب منهم أن يعودوا الى البيت فيرفضون قائلين: لا لن نعود لأن هناك دبابة تحت الشجرة ونحن خائفون.

لا أدري أأضحك هذه المرة أم أبكي..

أهاتف الشاعر عايد عمرو فيقول لي: أنا في ضيافة الشاعر المتوكل طه.

أجلس مع أمي وزوجات أخوتي وأبي أمام محطة «وطن» التلفزيونية الخاصة، أداعب شقاوة إبنة أخي «ميار».

فجأة أسمع صرخات أمي وزوجات أخوتي أراهن يخبئن عيونهن بأيديهن ويشرن نحو الشاشة بفزع:

يا إلهي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي..

ادركت ما حدث بسرعة.

اقفلت المحطة وسمعت لهاثي وركضت نحو المرحاض لانقيأ وهناك سمعت

نفسي أهمس:

«الله الله.. يا إبداع النازية الجديدة»..

(٥)

نجلس صامتين أمام محطة «ال بي سي»، أبي وأمي وأعمامي وأخوتي وبعض جيراني.

– والآن ننتقل الى نسرين سلمي مراسلتنا في فلسطين.

– نعم ليلى قبل قليل بُلّغنا بوجود ست جثث لشهداء تم اعدامهم رمياً بالرصاص في «بنك القاهرة عمان».

– صاح أبي: عمادددددددددددددددد.

– صرخت أمي: «يا حبيبي يا إبني».

أغمي على زوجة أخي عماد.

بينما غرقت أنا في هاجسٍ مريح: الوطن يطالبنا بحصته من دمنا، الحلم يصر على حقه في ألمنا، إذ ليس من المعقول أن تفلت عائلة فلسطينية من هذا الثمن، جاء مخيم الجلزون كله بنسائه وأطفاله ورجاله ودموعه المختزنة في المآقي، وأحزانه المعتقة في العيون.

وعادت نسرين سلمي لتقول فجأة إن المجزرة حصلت في الطابق الأخير من عمارة «بنك القاهرة عمان» وإن الضحايا هم من أفراد الأمن الوطني، توقف الصراخ وتحول الى تهنهة متقطعة أو بالأحرى انتقل الصراخ الى بيوت أخرى في بيت لحم أو غزة أو جنين، لم يمت إذن أخي عماد، حارس «بنك القاهرة عمان».

آه يا دمنا الدافق،

يا أمهاتنا الحزينات الذاهلات،

ماذا تقول الكلمات غير أن الحياة مهنة حشرات ونسور كما قال الفيلسوف الروماني سيوران لكن الذي لم يقله هذا الرجل هو كيف تنتصر الحشرات على النسور؟

لا أعرف،

لا أعرف.

لا أعرف..

(٦)

الرئيس العنيد محاصر، فلسطين محاصرة، ذاكرة تجاعيد جدي محاصرة، ابتسامات الندى في الأمسيات الهادئة هناك بعيداً بعيداً حيث كنا ذات يوم، انحناءات

ظهر جدي على سنبلة، شقاوة خالي في حيفا وتواطؤ جدتي معه، رشفات الشاي في الليل الكثيف، حس الأمان اللذيذ حين تنفجر في الخارج غرائز الضباع، تعب الكتف البهيج حين العودة من الحقل مساءً، رئيسي هناك وحده في الطابق الأخير، رجال قليلون وشموع.

آه يا بخل اللغة أو عجزها أو مؤامرتها.

لماذا أجد نفسي أردد هذه الجملة الكافرة لسيوران رفيق حصاري وعزلتي وجبلي: عندما يتعذر على وطنك أن يصبح وطناً فاختر أجمل الأوطان وأبقاها (الموت).

كاتب فلسطيني مقيم في مخيم الجلزون – رام الله / فلسطين

منى خليفي

داخل جهنم

الخميس ٢٨/٣/٢٠٠٢

أصبحت الشائعات عن اجتياح قادم من الكثافة بحيث لم يعد ممكنًا تجاهلها. اتصلت بأختي وأخي واتفقنا على التسوق لغرض تخزين المواد الغذائية والحاجيات الضرورية (الشمع، بطاريات لراديو ترانزيستور، انبوبة غاز، طحين). التجربة تقول إن المعلبات هي الاكثر فائدة، فالمواد الغذائية الطازجة لا تصمد في حالة انقطاع الكهرباء.

في السوبرماركت اتضح ان الجميع صاحب تجربة، وكان علينا شق طريقنا في الزحام. السرعة التي تختفي بها البضائع عن الرفوف مذهلة.

اتصلت زوجة اخي بالهاتف النقال. انها تعمل سكرتيرة في ادارة احدى المدارس. قالت إنه يجب اخذ الاولاد الى البيت، لان الجميع يفعل ذلك. اصطحبنا ابنتي أولاً، ثم كان علينا خوض ازدحام السيارات والبشر في وسط المدينة، لاخذ الابن ايضاً. ذهبنا بهم الى والدتي وعدنا لاستكمال التبضُّع. اندفاع الناس للتبضع اخذ يصل حد الهلع.

في المساء تابعنا الاخبار في كل محطة ممكنة ورغم ان أيًا منهن لم تؤكد اي شيء، فقد بتنا على يقين من اننا سنصبح على اجتياح.

الجمعة ٢٩/٣/٢٠٠٢

في الثالثة صباحًا دخل الجيش الاسرائيلي. ضجيج الدبابات ايقظنا. وبدأت التخمينات: الى اين سيصلون هذه المرة؟ وكم سيبقون؟

في الصباح فهمنا انهم يطوقون مقر عرفات. أزيز الرصاص الفلسطيني، يرد عليه مباشرة دوي القذائف الاسرائيلية، اشتد. نحن ندرك ان لا حيلة للرصاص امام المدرعات وقذائفها. لذلك نتساءل: ماذا تخبئ لنا الايام؟

شقتنا تقع في مجمع من اربع عمارات في منطقة الى الجنوب من وسط مدينة رام الله،

في واد بين تلتين. في الاجتياح الاخير لم يُظهر الاسرائيليون اي اهتمام بالحي الذي نسكنه، كنا نشاهد الدبابات عن بعد. يبدو ان الامر سيتكرر في هذا الاجتياح، هذا على الاقل ما نامله.

لكن صوت الرصاص ودوي المدافع الرشاشة ذات العيار الثقيل، ومدافع الدبابات، تقول غير ذلك. واضح ان المعارك كثيفة في رام الله التحتا وفي منطقة المقاطعة. الهواتف النقّالة تثبت نفسها، امام كل هذا الكم من اصوات المعارك، لا يعود يكفي ما تقوله الاخبار عن السيطرة على هذه المنطقة او تلك، بل هنالك حاجة لاهفة لمعرفة التفاصيل: اين سقطت تلك القنبلة، وعلى من يطلق قذائفه ذلك المدفع الثقيل.

اخت جارتنا اتصلت بها. اقتحم الجنود بيتها. انها تسكن في منزل مستقل خلف المقاطعة، مقر عرفات، امروها بان تاخذ ما تحتاجه، وتنزل مع طفليها التوأمين (عمرهما سنة واحدة)، الى الطابق السفلي من البيت، بينما تمركزوا هم في الطابق العلوي. لم يأخذوا منها الهاتف النقّال، لانها كانت قد اخفته بين حاجياتها.

اولادنا، البنت والولد، هما الامر العاجل الذي يجب معالجته. الولد، ظاهرًا، كان مهتمًا بما يسمعه من اصوات المعركة. البنت كانت تجفل مع كل انفجار. اخذنا نتحدث اليهما، نحاول تهدئة مخاوفهما، مخاوف البنت خاصة. لا ندري مدى نجاحنا، لانها كانت تحاول هي بدورها طمأنتنا.

اتصلت اخت جارتنا مرة اخرى. انقطعت الكهرباء عندهم، واصبح انقطاع الاتصال بها واردًا، ما ان تتوقف بطاريات الهاتف النقّال عن العمل. بعد يومين اصبحت اخت جارتنا تواجه ازمة في الحليب الخاص بالتوأمين.

السبت ٢٠٠٢/٣/٣٠

اتصلت صديقة لي تسكن وسط المدينة. قالت ان الجيش اعتقل اخا زوجها. طوّق الجنود العمارة التي يسكنونها، امروا الجميع بالخروج الى الطريق، فصلوا بين النساء والاطفال من ناحية والرجال من ناحية اخرى. اوقفوهم اربع ساعات في البرد بينما كان الجنود يفتشون العمارة شقة شقة ويفجرون الابواب المغلقة. اخيرًا سمحوا للنساء والاطفال بالعودة الى شققهم، وذهبوا بالرجال، ولا احد يعرف الى اين. المشكلة ان اخا زوجها كان بينهم، وهو رجل مريض ولا يستطيع الانقطاع عن دوائه. لم يسمحوا له بأخذ الدواء.

الاحد ٣١ / ٣ / ٢٠٠٢

انقطاع الكهرباء وصل الينا. اتضح ان احدى الدبابات دمرت المحول الذي يزود حيّنا بالتيار.

من الشبابيك اتضح لنا ان الدبابات اخذت تقترب من منطقتنا. بدأنا نراها في الطرف البعيد من الحي. منظرها يثير في الاولاد الخوف وحب الاستطلاع في الوقت نفسه. اصبحنا نقضي جزءاً كبيراً من نهارنا على الشبابيك نتابع حركة الدبابات. تعبر الدبابات شارعًا في الطرف البعيد للحي، تتوقف امام عمارة، ثم تبقى رابضة لفترة طويلة. وقبل ان يفقد الاولاد اهتمامهم، تُسمع اصوات الانفجارات. يمر يوم او يومان قبل ان نفهم انها اصوات تفجير ابواب الشقق غير المأهولة في العمارة المستهدفة. يتصاعد التوتر.

نعلم انهم سيصلون الينا عاجلا ام آجلاً. ولان الطقس ما زال باردًا جدًا وماطرًا احيانا، فنحن نقلب الراي فيما نفعل اذا فعل الجنود بنا ما فعلوه بعمارة صديقتي، اي اذا اخرجونا الى الشارع في البرد والمطر. زوجي يعاني من مشاكل في شرايين القلب، وقد شدد طبيبه ان لا يعرّض نفسه للبرد. وجدنا ان افضل حل هو ان يرتدي ملابس الشتاء كاملة، ويبقى بها ليل نهار، حتى في اثناء نومه. سرعان ما اقتدى به بقية الرجال في العمارة. قمت بإعداد ملابس للطفلين ولي ايضاً. وخوفًا من ان يمنعونا من اخذها معنا، ابقيناها في متناول اليد، حتى اذا شعرنا انهم يقتربون من عمارتنا بشكل ينذر بالاقتحام، البسناهما إياها بأسرع ما يمكن.

الاثنين ١ / ٤ / ٢٠٠٢

اقتربت الدبابات. داست الشوارع المحيطة بعمارتنا في البداية. ثم اخذت تطبق تدريجيًا على الشوارع الملاصقة بنا مباشرة. الشارع المار امام العمارات ضيّق. على رصيفه المقابل بيت قريب من الرصيف. قلنا لانفسنا انه اذا قررت الدبابات المرور من الشارع، فهذا البيت سيكون في خطر. وهذا ما حدث فعلا. عندما اقتربت الدبابة من ذلك البيت، تحت شرفتنا مباشرة، توقف سيرها قليلا، كأنما يشاور سائقها نفسه، ثم استأنفت سيرها آخذة معها الحائط الخارجي لبيت الجيران. هدمت إحدى غرف النوم والمطبخ والحمام. بعد ذهاب الدبابة اطلت صاحبة البيت العجوز من داخل الغرفة المهدومة، واخذت تولول: «هدتوا بيتنا يما».

بعد ان اطمانينا لذهاب الدبابات، نزلنا نحن والجيران لمساعدتهم في سد الفجوات بالواح من الصفيح لمنع دخول مياه المطر. بقيت لهم غرفة لم تصب في الناحية الاخرى من الحوش، انتقلوا جميعًا اليها.

عدنا الى همومنا. نخشى انقطاع الغاز والماء اضافة الى الكهرباء المقطوعة منذ امس. اخذ نقص الخبز يظهر. لدينا طحين، لكن لا يمكن خبزه بدون غاز وكهرباء. كما انه لا يمكن شحن بطاريات الهاتف النقال، مما يعني الانقطاع عن العالم.

لكن المشكلة الاكثر الحاحًا هي الاطفال. منذ اندلاع الانتفاضة وهم يتعرضون لمشاهد العنف في التلفزيون يوميًا. بذلنا جهدنا لعزلهم عنها، لكن ذلك اشبه بمحاولة افراغ البحر بواسطة كأس. الآن، باقتراب العنف منهم الى هذه الدرجة، يتجسّد ما كانوا يشاهدونه في التلفزة، ونكتشف ان الحديث عن الصور المجردة هو شيء، والحديث عن العنف المتجسد هو امر مختلف تمامًا.

الثلاثاء ٢ / ٤ / ٢٠٠٢

ليلة امس، تدهور الوضع دفعة واحدة. استيقظنا الساعة الواحدة والنصف. هدير المدافع كان يصم الآذان. تبادلت النظر مع زوجي. ماذا يجري؟ هل يقصفون عمارتنا؟.. اتضح ان الذي يتم قصفه هو مقر «الامن الوقائي» في بيتونيا، على بعد نصف كيلو متر من بيتنا.

في الغد اتضح ان بضع دبابات تمركزت على التلة المجاورة لنا، على بعد مئتي متر، وفتحت نار مدافعها على مبنى «الامن الوقائي». طائرتان مروحيتان تمركزتا فوق عمارتنا تمامًا واخذتا تطلقان صواريخهما. ظننا ان ابواب الجحيم قد فُتحت.

نهضت من الفراش وذهبت الى غرف الاطفال. كانت البنت مستيقظة، كلّمتها، كانت عيونها المفتوحة تعكس الرعب، ولم تكن قادرة على الكلام. اخذتها بين ذراعي، وذهبت بها الى سريرنا. لم تنبس ببنت شفة. انتقالها الى فراشنا لم يطمئنها إلا قليلاً.

اما الولد فلم يكن مستيقظًا، طالما حسدته على نومه العميق. قررت مع ذلك نقله الى غرفتنا. ايقظته، وقررت ان نلبس جميعنا ملابسنا الدافئة، اسوة بزوجي الذي كان ينام بكامل ملابسه منذ يومين، فلم يكن قد اتضح لنا بعد ما هو هذا القصف وكان الاحتياط واجبًا، فقد نضطر الى ترك الشقة.

الاربعاء ٣ / ٤ / ٢٠٠٢

لكننا كنا محظوظين. لم يستمر القصف سوى ١٨ ساعة، ولم تكن عمارتنا هدفًا له، كانت تتخلل القصف فترات هدوء تمتد احيانًا الى ساعة كاملة. وباعجوبة، عاد التيار الكهربائي.

لكن القلق انتقل الآن الى زوجي. زوجي يعمل في معهد الاعلام العصري التابع لجامعة

القدس، حيث يدرّس الجوانب العملية للعمل التلفزيوني. صباح هذا اليوم تلقى مكالمة من زميل له، يخبره ان الجيش الاسرائيلي اقتحم مبنى كلية المهن الصحية، التي يحتل معهد الاعلام العصري الطابق الثالث فيها. عطّل الجيش بث التلفزيون التربوي، والذي هو جزء من المعهد، وطرد عامل البث وطالبًا متطوعًا كان معه. واضح ان هذا الاقتحام جاء لغرض الاقامة. وفعلا ابلغنا السكان المجاورون للمعهد، ان المبنى يتحول الى مقر قيادة للجيش. بعد ذلك علمنا ان بعض قاعاته تستعمل كمعتقل مؤقت.

كل ما تم انجازه خلال عشرة اعوام في المعهد مهدد الآن من قبل الجنود. والاخبار عن اقتحام تلفزيونات اخرى ومكاتب مؤسسات تعليمية واهلية لا تطمئن. فقد عاث الجنود فيها تدميرًا. واشد ما يثير هياجهم هو وسائل الاعلام، التلفزيونات خاصة، التي يعتبرونها كما يبدو «بنية تحتية للتحريض».

لكنني اعتبر اننا محظوظون، خاصة اذا قارنت وضعنا بمن احتلت بيوتهم او اعتقل ذووهم، او لا سمح الله بمن قتل. والواقع انني لا اجرؤ على مجرد المقارنة، عندما افكر مثلا بعائلة عابدي التلحمية وقصتها المأساوية. فالعائلة، الجدة والاب والام والعم والاطفال، لجأوا الى دكان لهم تحت بيتهم البسيط. حاولت ثلة من الجنود اقتحام الباب، ولما عجزت، مشّطت الحوش والدكان بصليات من رشاشاتها. قتلت الجدة والعم امام انظار الاطفال. وباءت بالفشل محاولات الاب اقناع الجنود بالسماح لسيارة اسعاف بالوصول لنقل الجثمانين، فبقيا مسجيين امام الاطفال، والجنود يهددون الوالد بالقتل كلما حاول التوسل اليهم بالسماح بنقل الجثمانين. الم يأت الجنود لمحاربة الارهاب؟

المؤلفة تقيم في رام الله/فلسطين

(مترجم عن جريدة «ذي غارديان» الصادرة في لندن بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٤)

هـشـام نـقـاع

أصوات وأشياء في جدليّات خاسرة

لافتة: «لا تلمس أجسامًا غريبة». تحتها (٤) صور لأغراض بشعة. الجدار الذي عُلّقت عليه يقف شاحبًا مطلاً على جيرانه. جسده مثقوب بالرصاص ومع ذلك ظلّ واقفًا، خلافًا لجدران أخرى تجلس مكوّمة على حجارتها، وأخرى تتشّح بالأسود البارودي.

أقف أمام شافع، تحت اللافتة ذات الصور البشعة، وأسجّل: الواحد مش جاي على باله إشي. أعصابي دايمًا متوتّرة. يقول إن عمره (١٤) عامًا وأنا لا أصدقه. يبدو أصغر بكثير، ولكن في الوقت نفسه كلماته أكبر بكثير. شافع يضيّعني تمامًا. أهو أكبر أم أصغر من الـ(١٤) التي يخدعني بها. أواجه جسده الصغير بكلماته البالغة أكثر من اللازم فأعرف أنني أزداد تورطًا في التساؤل.. مع ذلك ما هو عمر شافع؟ هل يمكن أن يكون له أكثر من عمر: عمر واحد لجسده، عمرٌ ثانٍ لكلماته وعمرٌ آخر يخدعني به؟

محمد

اليوم الجمعة. حركة الناس تفتقر للانسجام مع المكان. ما معنى كل هذه الحياة على كل هذه الخلفية من الدمار؟ هذا المشهد غير مُقنع. لو أن سينمائيًا مرّ من هنا كان سيقصّ الصورة من فيلمه، خاصة عربة البطيخ وبائعها الصغير وصوت مناداته المغنّى. حتى الكاميرا المحشورة بين الما – بعد وبين الحداثة لن تحتمل هذا التناقض.

«هشام..». لم أكمل الالتفاتة وإذا بمحمد أمامي. سلّم عليّ بحرارة ولكن بكثير من الهدوء. لم أتحمل هدوءه فعانقته. محمد هو صديقي الأول هنا، منذ دخلت في المرة الأولى حين كانت الأجساد لا تزال تحت ركام البيوت. يومها كان لا يزال مصير أهل محمد مجهولاً منذ اعتقلوه وحتى أفرجوا عنه ضمن الإفراجات الجماعية! فالاعتقالات حين تكون جماعية لا يمكن للإفراجات إلاّ أن تنافسها، ربما لأن الأمور لا تعيش خارج الجدليّات: الاعتقال هو الخطوة الأولى في التحرّر، مثلما أن الحصار هو الشرط المطلق للصمود. لا يمكن

الصمود هكذا عبثًا، جزء من المعنى هو النقيض: الحصار. هناك معانٍ نحن بالغنى عنها إذن. فخذوا هذه البطولة، لا نريدها. أتركوا محمد وشأنه، ومدرسته وبيته.

أهل محمد بخير. والمدرسة كذلك. «هون فش لعب، النضال إله وقته والعلم إله وقته». محمد رتّب ذقنه بعناية اليوم، الشفرة رسمت خطًا دقيقًا على وجنتيه بنات الـ(١٧) سنة.

علاء

«الأصل من إجزم». قضاء حيفا (٤٨). بيت علاء وأهله كان يقع مرة في الطابق الثالث. كان له جيران: جده وثلاثة أعمامه. الطوابق الثلاثة الآن متناثرة وقضبان حديدها تحاول اتخاذ شكل نبتة دغليّة وحشيّة. تحاول الظهور بابشع ما يمكن. هي الأخرى تلعب بالديالكتيك. تنافس بشاعة هدم بيوت في مخيم للاّجئين بصواريخ المروحيّات والدبابات. لكن قضبان الحديد هذه تبدو سخيفة جدًا: مهما فعلت ستظلّ عاجزة عن الاقتراب من بشاعة القوة. ماذا تفعل أصلاً: حوارية مع صاروخ MADE IN U.S.A؟

الأعمام والأجداد الذين عاشوا معًا لاجئين، لجأوا إلى الهدف والسويطات وجنين المدينة.

لجوء اللاجئ: جدليّة سوداء: هل ينفي اللجوء اللجوء كما تنفي الأشياء نفسها؟ كالخطوة الأولى إلى وراء التي تصبح «أمام» بعد خطوة ثانية إلى وراء؟

جد علاء قال له: عام (٤٨) خرجت بملابسي وكندرتي. واليوم أيضًا خرجت بملابسي وكندرتي.

لماذا لا يزال هناك من يصرّ على إشعال ذاكرة أكثر ما يدبّ الرعب في قلبه: لجوء اللاجئين؟! لماذا هذا التداخل بين الساديّة والمازوخيّة، أهي حاجة أمنيّة أيضًا..؟

لافتة

بيضاء وجديدة. مكتوبة بالأحمر والأخضر وهي تدعو إلى مهرجان العودة إلى جنين. بياضها فاضح مثير للإرتباك. عليها أن تتّسخ قليلاً حتى تلائم جدرانًا نزلت عليها الصواريخ من سماء الجنرالات المرصّعة أكتافهم بالمعادن التي فاضت عن حاجة معادن الصواريخ.

هذه لافتة وقحة، أفكر. كوقاحة الحياة في هذا الدمار. وقاحة رائعة. أمام القهر يتعلّم الناس الوقاحة. إذا كان الموت هو قمة القهر، فالحياة هي قمة الوقاحة. أعيد صياغة طموحاتي: حين أكبر ساصير وقحًا.

اليابان

محمد وعلاء وساري وعميد يرفضون الفكرة تمامًا: لا نريد إبقاء هذا الركام شاهدًا على الجريمة. البيوت يجب أن تعود كما كانت بالضبط «ومش بنايات عالية.. بيوت. الحياة يجب أن تعود كما كانت».

محمد كان يأتي من دارهم ويفرّغ على أعمامه وجدته خلال خمس دقائق. اليوم بدّك نهار كامل في قضاء جنون. لا يريد هذا.

محمد يريد اليابان: هدموها وعمّرت نفسها وصارت في المقدمة.

أردت المماحكة والقول إن اليابان كانت في الطرف الثاني يومها، وأن المقارنة لا تعجبني، ولكن أعجبني أن محمد اختار اليابان. اختار الشرق البعيد. لم يختر أي مملكة أو جمهورية أو جماهيرية أو إمارة أو سلطنة في الشرق القريب مثالاً له.. فماذا سيأخذ من هناك سوى الصّراخ المتلفز والبلاغة المبرمجة العائمة في الـcyberspace.

محمد لا يريد أي cyberspace.. بدنا نعمّر.

بقعة

مساحتها أمتار. متران في الطول والعرض. بلاطها واضح جداً، إذا تجاهلنا الغبار: أبيض دافئ منقط بالبني والأسود الصغير. فوقها يمكن رؤية ما يلي: حذاء طفل، حقيبتان مدرسيتان متماثلتان زرقاوان، جزء من ماسورة ماء بلاستيكية، ماسورة معجون أسنان أوروبية الصنع عليها خط أخضر عريض، حذاء رياضي قديم ومكنسة مكسورة العصا من الوسط تقريبًا.

هذا ما تبقّى في الجهة التحتا من حارة «الدمج». حولها سقوف فوق وتحت الجدران بشكل مكوّم ومتداخل. خلافًا للمشهد الذي كان سيقصّه السينمائي في البداية، ربما أنه كان سينهي فيلمه عند هذه البقعة بعد أن يضيّق عدسة الكاميرا ببطء، يلمّ كل الركام المحيط بنا حتى الحذاء الولادي على البقعة الوحيدة المبلّطة في هذا المكان.

هذه البقعة من النظام تعطي معنًى للركام. أو ربما بالعكس. ما رأي الكاميرا؟

عميد

إشارة غير نشيطة، بل متباطئة ومترددة بالسبابة: هناك كان بيتنا. عميد يترك يده في الهواء للحظات ثم يعيدها وأنا لا أكف عن مراقبتها: حين كادت تستوي بجسده وتوازيه التفت خلف ظهره قليلاً، ظلّت لحظات ثم عادت لتفرك اليد اليسرى.

إحنا (١١) في الدار مع أبوي وامي. لمّا قصفوا البيت انصابت أمي وأختي الصغيرة. حطوا أمي على الدبابة وداروا في المخيم (٦) ساعات، بعدها رموها حدّ المستشفى. ظلّت برّا المستشفى ساعتين.

دبابة «الميركافا» كانت تحتمي بجسد أم عميد المصاب بشظية قذيفة من دبابة زميلة، أو ربما من الدبابة المستجيرة نفسها. جسد أم عميد المصاب كان الدرع الواقي لضعف جنود الدبابة.

جسد آدميّ يتحوّل إلى غطاء لضعف القوة، لهشاشة الفولاذ، لجبن الطغاة.

إسترسال: يومها، أو بعدها بيومين، لا بد أن الضابط المناوب استعمل الجملة التالية في الحديث الإذاعي العسكري / العسكري الإذاعي اليومي: «... لأننا الجيش الأكثر أخلاقية في العالم..». بعدها ربما جاءت أغنية قومية أو دعاية تجارية. لكن المحرّر الإذاعي لم يخبر أحدًا عن جسد أم عميد المصاب بشظية قذيفة حين حوّله الجنود إلى أداة، إلى شيء، إلى غرض.

التشييء يحوّل الذات إلى مطلقة مغلقة صلدة قوية طاغية. إلى شيء عديم الضعف، عديم الحسّ. التشييء ليس لعبة مع الآخر، بل لعبة ذاتية: عملية إنتحارية.

أم زيد

هاي الصواريخ ما شفناها بحياتنا. هربنا حوالي (٣٠) عيلة عند الختيارة. ولادها واحد بالسعودية وواحد بعمّان. كنا حوالي (١٠٠) نفر. ما كنّا نعرف إلاّ إنو الطيّارة بتحوم وتضرب. إحنا كنا نخاف ونظل مبطوحين. حمي الضرب علينا، صرت حاملة الشبشب بإيدي نص ليل وأركض. إحنا نقول «يا رب» و«يا الله». هذا المسكين (إياد، ١٢ عامًا) كان رافع إيديه أحسن ليقع السقف عليه. الجرّافة أجت وهدّت سور الختيارة وعملت طريق.. صرنا نصيح. دشعنا على دار سليم وأبو سريع والطحيش.. استسلمنا وفوّتونا كلنا على دار سليم. قعدنا (٣) ليالي. الطيّارة ما قصفت الدار لأنو الجيش كان في الطابق الثاني.

أم زيد من «المنسي»، قضاء حيفا (٤٨). أخذتنا إلى الطابق الثاني: هون فات الصاروخ. أبو زيد يشير إلى بلاط الحمام على الأرض «وقع من هزّة الصواريخ». أم زيد تستعجلنا أن ننزل لأن السقف خطر وتشير إلى شقّ طويل في المصطبة. أحد الأطفال يصرخ: شوف الحمامة. أم زيد تنهره على هذه الولدنة: شو بدّو بالحمامة إسّا، يلاّ إنزل؟ أتمرّد على أم زيد وأنظر حيث أصرّ الطفل أن يشير: فوّهة تركها صاروخ، وعلى طرفها جناح طائر انفلش ريشه. الجسد متيبّس تحت قطعة معدنية رمادية. أقترب أكثر فأرى جسد الطائر محروقًا

أسود. هذه الحمامة خرّبت الأسطورة بموتها: غصن الزيتون الذي عادت به جدّتها الحمامة القديمة إلى سفينة الحرية التي قادها نوح قبل آلاف السنين تحوّل إلى إشارة عاجزة. فالأسطورة لم تحمِ هذه الحمامة من صاروخ يطلقه طيّار إسرائيلي على سطح بيت أم زيد.

نور

كتابها بيدها، تجلس القرفصاء في ساحة الخراب. أسألها عن بيتهم بعد أن تكون قد وقفت. الجواب لا يعترف باللّغة: اليد الممسكة بالكتاب تحرّر إصبعًا واحدًا وبه تشير بحركات متلاحقة للأرض. صمت.

كنّا جوّة جوّة. قالولنا الدار أمينة. قصفوا المطبخ، طلعنا على غرفة ثانية، بعدين على الساحة، أجت طيّارة لفّت وصارت تضرب بالرشاش. كانت أضواء، مثل إشي بيضوي وبيطفي بسرعة. طلعنا عندار الجيران – اليوم صارت مهدومة، تستدرك – بتنا ليلتين ورحنا عالهلال الأحمر.

«وكتبك؟» – لقيت دفتر واحد، مش من هاي السنة، من العام، من صف تاسع..

نور تريد أن تدرس علم النفس في جامعة «النجاح». قررت ذلك منذ سنتين. أما لماذا جاءت اليوم إلى هنا؟ أجيت أدوّر على نظاراتي، معيش مصاري أشتري نظّارات.

دكتورة

الأطفال ينتظرون ما وعدوهم به: رحلة إلى جنين. ما كدت أقول كلمة واحدة حتى علا الصراخ. شو بدك تصير بس تكبر: لا يجيب، وبعده تتوالى الصرخات الطريّة: جندي، مقاومة.. يخرج طفل ينظر بين وجهي ومفكرتي ويقول: إرهابي.

طفلة تدقّ كتفي: أنا عمّو بدّي أصير دكتورة.

في هذا المكان تحمل المهن نفس درجة الخطورة: أتذكّر الهلال الأحمر.

أم عمر

إحنا من الحليصة في حيفا. بيتنا من ثلاثة طوابق. بجانب جامع الحاج عبد الله. اليوم يسكن فيه يهود.. من شطارة قرايبنا شردوا وأهدوا البيت لليهود. (أهي السخرية مرّة، أم أن المرارة ساخرة؟ انشغلت بهذا التقييم بوقاحة).

بيت أم عمر لا يزال عامرًا. فالجنود حوّلوه إلى مقرّهم لمدة (١٣) يومًا. استضافة الجنود أنقذت البيت من الصواريخ والحرافات. لكن البستان لم ينجُ: هناك شجرة تين ممدّدة في

الخارج وقد انكمشت أوراقها الخشنة إلى الداخل وصار لونها رصاصيًا. الجذع الرمادي مغطّى بالغبار والأتربة، فللأشجار جثث أيضاً.

حين جاء الجنود رَجتهم أم عمر ألاّ يقتحموا الباب بالمتفجرات: هذا المفتاح، خذوه. نهروها، حجزوها مع أهل البيت في التقعيدة تحت، واليوم يمكن أن يعدّ الواحد ثقوب تركتها (٧) رصاصات في الباب.

في الطابق العلوي: الطاولة عليها خبز إفرنجي يابس، معلّبات «تونا» بعضها تحوّل إلى منفضة فيها أعقاب سجائر أمريكية «لايت»، صورة ممزقة (هاي صورة أم كنتي، قالت أم عمر، وأخفتها).

غرفة ابنها وزوجته: ملابس مرمية على الأرض، أغراض مكسّرة، أدراج خزانة واطئة مفتوحة ودرج آخر مكوّم على الأرض. وعلى المرآة كلمات عسكرية غير مفهومة كُتبت عاموديًا بأحمر الشفاه: أوج – ٩، أوحانا – ٥، مسياعت – ١٢، وتحتها دائرتان في كل منهما نجمة سداسية، إحداهما ممحية بخربشات.

المطبخ: الخزائن مفتوحة، كؤوس بيضاء مكسّرة وصحون تشظّت، كومة من القهوة والسكر والأرز والزيت تحت الحنفية، وثلاّجة اقتلع منها الجزء الخلفي.

غرفة نوران وحنان، ٣ سنوات وسنتان: أكوام من ألعاب الأطفال، دب إسفنجي لونه أزرق فاتح ممزّق عند العنق وقد ظهر منه القطن الإصطناعي، لعبة بصورة مرأة رأسها مفصول عن جسدها، وبجانبها أعقاب سجائر وبقايا أطعمة، كمّيات من الأوراق الممزّقة هي البحث الجامعي الذي كان يعدّه عمر، والد الطفلتين.

في الأسفل ترى جهاز الحاسوب الذي قذفوا به من الشباك، وفي الصالة تلفزيون مكسّر تختفي شاشته تحته.

لماذا فعل الجنود ذلك؟ لماذا كسّروا صحون وكؤوس المطبخ البيضاء، لماذا مزّقوا الصور التذكارية، لماذا يجب اقتلاع محرّك الثلاجة، وما الدافع إلى رمي جهاز الحاسوب من الشبّاك، لماذا مزّقوا الدب الإسفنجي الأزرق الفاتح وجعلوا القطن يطلّ من عنقه؟

هدم البيوت وتحويلها إلى ركام كان باسم الأمن. أريد أن أفترض.. هناك أوامر، هناك خطة عسكرية، هناك عملية قتالية.. سأنسى الجريمة للحظة:

ولكن لماذا كسّروا الصحون البيضاء ولماذا مزّقوا الصور العائلية التذكارية؟!

ربما أن المشكلة في اللغة أيضاً: حين تسمي الجريمة جريمة، فإن المعنى يبتلع الفعل. الجريمة جريمة لأن فعلها إجرامي. هذا ينطبق على القتل والتدمير والتفجير. الجريمة تحمل منطقها في داخلها بحكم تعريفها فتصبح فعلاً له تسمية، تقترب من الفهم ومن شرعية قسرية.

وهذه مأساة.

ولكن ماذا بشأن ألعاب نوران وجنان. فهي لن تسمّى جريمة لأنها فعلة أصغر من أن تحظى بهذا اللقب، لا تملك مقوّمات كافية، لا تجد أية تسمية لها.. وربما أن بقاءها دون تسمية هو ما يكشف الفظاعة، فظاعة الفعلة التي لا تسمّى ولا تُذكر ولا تُصوّر ولا تُروى ولا تسجّل على هامش سجلاّت الجريمة.

ماذا ستفعل القصص الصغيرة التي ظلّت بدون تسميات، أتراها تحسد الركام الكبير، فهو سيؤرّخ على الأقل..

ومرة أخرى: لماذا مزّق الجنود الدب الأزرق الفاتح الصغير وجعلوا القطن يطلّ من عنقه..؟!

رسالة

في بيت أم عمر، في البيت نفسه، ترك الجنود الرسالة التالية باللغة العبرية:

«إلى العرب الذين يسكنون هنا

آسفون على الأضرار

كل هذا جرى لأنه لم يكن مفرّ

كونوا على اتّصال

كتيبة براك جولاني

أقازي كفرا، شكراً ونحن نحبّكم»...

ولكن لماذا لم يحيّوا ألعاب نوران وجنان..؟!!

(مخيم جنين، الجمعة ١٠/٥/٢٠٠٢)

كاتب فلسطيني مقيم في حيفا

فاطمة المحسن

منذ متى نعرفها؟

هل قيّض لنا ان نرى فلسطين الآن بعد كل هذا الزمن، وبوضوح اشد، وضوح لم تعتده عيوننا. تقترب الكاميرات وتبتعد مع حركة الدبابات، وهي تغوص في شوارع بيت لحم والقدس ورام الله ونابلس وطولكرم والبيرة. تلك المنحنيات وأشجار الصنوبر، البيوت الحجرية وسقوف القرميد. الضباب الذي يلف الهضاب الصغيرة وهامات الاشجار. الصخور البيضاء المفتتة وقباب الكنائس. الدبابات الإسرائيلية تدلّنا عليها، نحن الذين عشناها وعايشتنا منذ متى، منذ ما لا نعرف من الاوقات. تقترب الصورة، ثم تتوضّح أكثر في الذاكرة، حين ندخل نادي الجامعة في بغداد ذات مرة من ربيع العمر. عاد الأصدقاء من لبنان والأردن، وبقي حلم المقاومة مؤجلاً، إلى اليوم الذي دخلنا المخيم. ثم حلّت بنا ذاكرته. كنا نسمع ونسمع من الشيوخ والمرتحلين عنها، حتى كدنا نتخيّل فلسطين خيمة تسع كل السماوات، خيمة تقيم في ممالك الذاكرة لا على الأرض.

ها نحن نراها رؤيا العين. تلك كانت أمنية حققتها لنا كاميرات العالم الآن فقط، وبهذا الوضوح المبهر. كان خليل عبد ربه قبل ان يموت قد أخبرني وهو يضحك: عندما تجوّلت في القدس ورام الله والمدن الأخرى، أدركت لماذا اختارها الصهاينة. إنها جميلة إلى الدرجة التي تستحق كل أهوال الفراق.

كلّما قابلت أحد الأصدقاء، كان السؤال المحرق يسكنني: كيف وجدت فلسطين؟ كانما كنت اقول لنفسي، كيف وجدت بغداد بعد كل هذا الغياب؟ كتمت أنانيتي إلاّ عن زكريا الذي قال إنني مررت ببعض الخيبات، ولم افهم من ليانة إلاّ القليل عندما اجابتني عن السؤال الذي الحّ عليّ حتى ارتبت بنفسي إن كنت أحلم بالعودة إلى رام الله ام بغداد. خليل عبد ربه في آخر زيارة له إلى لندن، وقبل ان يكتشف انه سيموت، تحدث بانشراح عن تلك التي اشاهدها الآن، تلك التي تدلّني عليها الدبابات الإسرائيلية.

قالت المذيعة البريطانية: نحن على مبعدة أمتار فقط من مكان يقع في أقصى جنوب العراق. دخل الفرنسيون، أول ما دخلوا بجنودهم الزاحفة في حرب الخليج الثانية، زريبة فلاح، يفتشون بين تلال التبن عن الاعداء. انعطفت الكاميرا نحو هامات النخيل وسكون النهير الصغير، البرتقالي الشاحب وغبش الضباب العراقي ساعة الفجر. في هذا المكان، وقبل أكثر من عشر سنوات، ومن خلال عدسة الـ «بي.بي.سي.»، عبقت رائحة العراق براسي، ولم أكن أعرف أن سنوات الفراق تنسيني رائحة بلدي.

ها أنا أرى فلسطين وأتذكر خليل عبد ربه، الصديق الذي لم يكن شاعرًا مثل بقية الاصدقاء، ولكنه نقل الصورة بالضبط. وبعقله العملي، شرح الاسباب والدواعي. قال إنها جميلة، مناخها فاتن، هادئة حنونة مثلما يحلم كل منفي بوطن. قال: لن نغادر مرة أخرى حتى ولو اضطررنا إلى البقاء تحت التراب. لم يكن خليل من بين كل الاصدقاء عاطفيًا، ولم أسمع منه كلمة نضال مثلما تتردد على شفاه البقية. كان رجلاً عمليًا أزعجتني بعض مرات تحليلاته الباردة. ولكنه هذه المرة، وأنا أشاهد أمامي فلسطين، بدا أكثر صدقًا ودقة، بل فوق هذا مسرفًا في عواطفه، فقد استوطن قبرًا قريبًا من المكان الذي ولد فيه.

كم تشبه مدن الاحلام المستباحة، غرناطة رفائيل البرتي التي اشاهدها الآن خطوة خطوة مع سير الدبابات. كأنني أسمعه وهو يغني بصوت لوركا:

من يسجن حدائقها اليوم، ويضع

سلاسل على حديد نوافيرها؟

لم أدخل غرناطة أبدًا

دماء بين شجيرات الريحان، دماء بين مياه الباحات.

كانت الدماء ذاتها قد منعت الفتى من أن يكمل مشواره، وينزل الدرجات المؤدية إلى البيت العتيق. كان غافلاً عن الموت، ولعل حرية جسده أنسته تلك السلاسل التي امتدت لتحجز الرخامات المؤدية إلى المسجد. ذهب الولد للعب أو الصلاة، ذهب لرمي الحجارة أو التنزّه. كان يحمل متفجرة في جسده أو كان يحتفظ فقط بدفتره المدرسي؟ من الصعب على الكاميرا أن تشرح وتستفيض، ولكنها سجلت لحظات هبوطه ثم ركوعه. ثم حركة التواء جسده، وذلك الخط الاحمر الرفيع. بقي الفتى هناك لوحده من دون أن تطاله الجماهير، أو تشيعه بالطلقات وبصرخات الهستيريا. كان موته بهيًا، كأننا كنا نتطلبه كي نقول إن المكان يعود إلى نفسه ببساطة وينتسب إليها.

هو الموت، لا خيار غيره. ربّ الجنود الغاضب خلع خوذته أخيرًا في فسحة استراحة

الدبابة، فبدا على ما هو عليه، غير مكترث بتلك الأساطير التي حملت صهاينة اليهود من أقصى العالم إلي هذا المكان الغريب. هو إبن اليوم وإسرائيل لا تحتاج سوى تقنية الموت كي تعيش على وهم امتلاك أرض بلا بشر. إنهم عمليون وواقعيون إلى الدرجة التي انتخبوا فيها شارون حيث بمقدورهم المضي معه في خيار الحرفة التي يجيدها، تلك التي تجعل القاتل يغصّ بدم الضحية.

ما فعلوه في الخفاء قبل نصف قرن يظهر الآن علنًا أمام أعين الكاميرات، لا لكي نشاهد نحن فلسطين التي نعرفها، بل ليصبح الغرب شاهدًا على الجريمة التي أخفاها تحت معطف حضارته.

كاتبة وناقدة عراقية تقيم في لندن

فايز ملص

سلاطين الكلام يجهزون
على وليد مسعود

السابعة من صباح الاربعاء ٢٤ نيسان. كعادتي منذ أشهر، افتتحتُ نهاري باخبار «إذاعة الشرق»: الجيش الإسرائيلي ينسحب من جنين ليداهم قلقيلية. يخرج من رام الله (عدا «المقاطعة») ليضرب قرى قضاء نابلس. الأمير عبد الله في واشنطن يحاول إقناع «صديقه بوش» بإقناع «شارون» ليقنع «موفاز» بالانسحاب من أراضي السلطة، ولا يُخيِّبُ الرئيس الاميريكي ظن صديقه الأمير، فيعدهُ بمحاولة إقناع سفّاح جنين بالانسحاب، إذا لم يعارض الكونغرس هذه المحاولة، شريطة ان «يبذل عرفات مزيداً من الجهد في إيقاف الإرهاب»!

في ظل هذه المساعي الحميدة، وتلافياً للضجر، يتابع شارون تدمير «البنية التحتية للإرهاب» قتلاً ونسفاً وإعتقالات وقصف بيوت على رؤوس ساكنيها. فإن تبقى له فائض وقت، حَرَّكَ ملفّ «معاداة السامية» في فرنسا وهاجم «محاباة كوفي أنان للعرب على حساب أمن إسرائيل».

طوال أسابيع المجزرة التي لم تنته فصولاً بعد، عشنا في منفانا الفرنسي على إيقاع الحصار وما حمله من صور الموت والدمار. صور قاسية تسيل متزاحمة على شاشات «سي إن إن» و«الجزيرة» و«الفضائية المصرية» لتذكرنا بان دم العربي لا يزال، على الرغم من ارتفاع نبرة الاحتجاج الأوروبي والعالمي على جرائم شارون، أرخص الدماء على وجه الأرض، بينما قطرة واحدة من الدم الإسرائيلي تقيم الدنيا وتقعدها..

فرنسا، مثلاً، دافعت بلسان شيراك وجوسبان وكبار مثقفيها عن الشعب الفلسطيني لكنها بقيت بعيدة عن المبادرة المجدية، لكي لا تحرج واشنطن. أما الإعلام، فإنه على الرغم من تقدم طفيف في عرض الوقائع، ظلَّ، مع بعض الاستثناءات (التي كان أهمها موقف يومية «لوموند»)، أسير تقاليده الموالية لإسرائيل: هكذا افرغت عبارة مثل «المستوطنات» في التلفزة الفرنسية من مضمونها الاستعماري لتتحول إلى واقع اجتماعي

سكاني عادي. ومن هنا الاستهجان العنيف لكل عملية فلسطينية ضد المستوطنين اليهود. كذلك اثار نعت عمليات «الجدار الواقي» في جنين بالمجزرة سجالاً عنيفاً بين الإعلاميين والمثقفين، وضع فيه «اللوبي» اليهودي كل ثقله: الفيلسوف فنكل كروقت والكاتب برنار هنري ليفي وآخرون! ونجح هذا اللوبي في إرهاب الإعلام فارضاً عليه الامتناع عن كل ما يوحي من قريب او بعيد بوجود شبه بين ارتكابات اسرائيل والجرائم النازية. كما تعرض المثقفون الذين تجرأوا على مثل هذه المقاربة (وبينهم عدد مشرِّف من اليهود الفرنسيين) إلى حملات وتهديدات فشلت حتى الآن في إسكاتهم.

من جهتنا، فتحنا، نحن «العاشقين الأسرى»، خط حوار إعلامي حول الاحداث وخلفياتها. وانشانا لهذا الغرض، منذ وصول شارون إلى السلطة، مجموعة عمل عربية – يهودية من أجل السلام في فلسطين، تولت تنظيم الندوات والمشاركة في برامج الإذاعة والتلفزة وصفحات الرأي في الصحافة الفرنسية. ولا تزال هذه المجموعة تنشط بدأب، وإن ابعدتها أجواء الانتخابات الراهنة عن الاضواء.

السبت ٢٧ نيسان. تسلل مسلحون فلسطينيون إلى مستعمرة «أدورا» وقتلوا أربعة مستوطنين، بينهم طفلة في الخامسة من العمر. كعادته، حمَّلَ شارون الرئيس ياسر عرفات مسؤولية ما حدث، معلناً الإطلاق الوشيك للمرحلة الثانية من عملية «الجدار الواقي»، وبطبيعة الحال، استغل الإعلام الصهيوني هنا مقتل الطفلة ليبرر جرائم قاتل مئات الأطفال الفلسطينيين.

غداً، ستشارك في مظاهرة كبيرة تنطلق من ساحة (الجمهورية) «لاريبيبليك» باتجاه السفارة الإسرائيلية للمطالبة بانسحاب «تساهال» من الأراضي الفلسطينية. معنويات معظمنا في الحضيض. حين نلتقي ونتناقش ترتفع الأصوات، نتخاصم كالأطفال. ربما لأننا ادركنا حجم الكارثة ويئسنا من صيحات الاحتجاج المكرورة في عالم ليس لنا ولا يأبه بصراخنا.

ها هي نشرة الأخبار تقدم لنا التعليق السياسي: «خبير» في القضية يستخلص عبرة الاجتياح الإسرائيلي مؤكداً على ان «أوسلو» هي السبب، وان الحل الوحيد الممكن يتمثل بقيام دولة ثنائية القومية. برافو يا شيخ «الفهلوية»! أعدت الكرة إلى ملعب شارون، لكنك نسيت فقط أنه لا يلعب. نسيتَ فقط انه رفض هذا المشروع من زمان، مثلما رفض «أوسلو» وينسفها اليوم عن بكرة أبيها، مبانٍ رسمية وسجلات مدنية ومخيمات. نسيتَ ان هذا السّفاح يفعل دائماً ما يقول.. واشنع مما يقول!

لا أدري لماذا أستعيد الآن صوراً قديمة لـ«أم المعارك» وأبيها. ربما لأن هذا الأخير شارك شعبه البارحة بالاحتفال بعيد ميلاده، كانت هديته للجماهير العراقية الظمآى إلى الأدب الرفيع روايته الثالثة «رجال ومدينة». أكيد أن شارون لا يملك «خفة دم» صدام، لكنه ربما تجاوزه في حسن تطبيق «وصاياه» الستة والخمسين الجديدة التي أعلنت مادة أساسية في المناهج المدرسية العراقية. إضافة إلى كل هذا العطاء، يواصل الرئيس العراقي الوعد بمضاعفة مساعداته لفتيان الأحزمة الناسفة، لكنه، لسوء حظه، لم يعد يجد مرشحين لهذه الرياضة القاتلة!

من جهتها، لم تقصّر الدول العربية الأخرى في مساعدة الانتفاضة الفلسطينية، فإلى جانب مساهمات القذافي الفكرية، أنتجت مصر عدداً من الاسكتشات والأناشيد الحماسية ومسرحية «أوبرالية» عن «قدس صلاح الدين»! حسناً فعلت مصر، فالمسرحية أقل كلفة بكثير من المئة بليون دولار التي طلبها رئيس وزرائها ثمناً لدخول حرب مع إسرائيل! بدوره، ابتهل خطيب الحرم المكي إلى العلي القدير أكثر من مرة أن ينصر فلسطين ويحرر القدس. كما قدمت المملكة إلى واشنطن ثماني نقاط لحل الصراع، وافق بوش على سبع منها مكتفياً برفض النقطة الثامنة: إرسال قوات فصل! أما سورية، فلم تكُفّ عن تنظيم مظاهرات تفدي بالروح والدم رئيسها بشار ابن أبيه. وكذلك فعلت سائر الممالك والجمالك والسلطنات..

بقيت غصة أخيرة في الحلق: إذا كانت الدول العربية عاجزة عن المساهمة عسكرياً في إجلاء جيش شارون عن أراضي الضفة وغزة، وهذا صحيح، فلماذا تحرض وتموّل الخط الديماغوجي العدمي في مواجهة عدو عقلاني يوظف كل خطأ نرتكبه في تحويل أسطورته الدينية/القومية إلى حقائق ميدانية تتسع يوماً بعد يوم، وخطأً عربياً بعد خطأ؟

لقد آن وقت مراجعة الضمير وطرح الأسئلة الصعبة: إلى أين ستوصلنا المزايدات على دم الشعب الفلسطيني. وماذا سيكون سلاح الانتفاضة الثالثة؟ وإخوتنا الاستشهاديون الذين يلفّون صدور الأطفال بالديناميت، هل اقتنعوا الآن بأنهم على خطأ وبأن توقهم إلى السلطة المطلقة سينهي القضية مرة وإلى الأبد، ولن يوصلهم إلا إلى مخيمات اللاجئين في البلدان العربية التي قد تقبل استقبالهم؟ هل سيكفون عن الإشارة في أحاديثهم المتلفزة إلى «واقتلوهم حيث ثقفتموهم»، كما فعل أحد القادة الجهاديين على شاشة الـ«سي إن إن» قبل عشرة أيام؟!

الأحد ٢٨ نيسان ـ الرابعة بعد الظهر. لم اذهب إلى المظاهرة لانني محبط ـ لكنني أعد قراء «مشارف» الأعزاء بالمشاركة في كل المظاهرات الاحتجاجية التي ستنظم دفاعاً عن «الحق العربي» طوال السنوات الخمسين القادمة!

كاتب سوري مقيم في باريس

شمعون ليڤي

«هل نمت حين عانى الآخرون؟»

ملاحظات على شخوص فلسطينية، على المسرح العبري وعلى الواقع الإسرائيلي

بنظرة مسرحية يمكن القول إنه جرى صبّ الكثير من الوقت على القليل من المكان في الأرض المقدسة، وربما إنه لهذا السبب أيضاً تشوّش الفهم بشأن ما فهمه الجمهور، الإعلام والفن من «قصص البطولة» الإسرائيلية – اليهودية. وخلال الانتفاضة الثانية، خصوصاً، تشوّشت كذلك الاستعدادية، الاستقامة والجرأة لدى المسرح العبري المموّل بحيث جعلته يمتنع عن تقديم مسرحيات إحتجاجيّة واضحة سياسيًا وفنيًا، بتوجه إنساني، دون خوف أو وجل. فواقعيًا، كما كتبت عميره هس في «هآرتس»، ليس من الحكمة ولا من الإنسانية احتقار الفلسطينيين. ومسرحيًا، كوسيلة تخلق حواراً ليس على المسرح فحسب وإنما مع الجمهور أيضاً، يجب عدم الابتعاد عن الحوار الحقيقي. فعلى خشبة المسرح، على الأقل، هناك اعتراف بالآخر، وهناك تطلّع إلى المساواة في المخيّلة والفن. وقد اعتاد المسرح الإسرائيلي عرض شخصيات فلسطينية على خشبته بدءاً بـ«أريئيلي – أورلوف الله كريم» (١٩١٢) وحتى «قتل» لحانوخ ليڤين. ومؤخراً، لأسباب مفهومة جداً، ولكن غير شرعية بالمرة، لا يعيش الجمهور الإسرائيلي موقف، معاناة وطروحات الفلسطيني. فهل يعود هذا بالفعل إلى كون المقارنة غير أخلاقية، لأننا سبّينا من المعاناة أكثر مما تحمّلنا؟ (وللقراء اليهود يجب الإضافة، فوراً، حواراً خياليًا: «كيف تجرؤ على المقارنة؟» – «ها أنا قد قارنت»).

فالعملية المسمّاة «الجدار الواقي» بدأت في الأيام الرهيبة للهوية الإسرائيلية: الفصح، يوم الكارثة، ويوم الذكرى، التي تعكس وتساهم في بلورة أوجه الهوية الإسرائيلية – اليهودية العديدة وأوساطها المشروخة. هذه الهوية لا تزال تقوم على العلاقة بالدين والموروث التقليدي، بكارثة يهود أوروبا وبالحروب. والطقوس القومية، كالعروض المسرحية، لا تكرر نفسها بالفعل. وفي كل سنة تتطلّب حواراً مختلفاً بعض الشيء بين الموعد المحدد في التقويم أو على الخشبة، وبين الوعي الإنساني الفردي والجماعي المتغيّر. ففي

كل سنة تجري دعوة اليهود إلى نسب الخروج من مصر لأنفسهم. ويتحقق معهود يجب الاستطراد والقول هذه السنة بالذات: ماذا يعني «نحن»، ماذا يعني «خرجنا»، أي: أين مصر؟! في الوقت نفسه، فإن الأعياد، أسوة بالعروض الجيّدة، تعيد إستحضار الهوة ما بين المتخيّل وبين الواقع، وتستدعي جسْرًا يبدو مختلفًا، وتوجب في الوقت نفسه وجود الآخر، والحوار مع الآخر. فالتفجير والقتل في فندق «پارك» في نتانيا عشية عيد الفصح هذه السنة عزّزا أسئلة مثل: أهي حقيقة، فعلاً، أن الرب أخرجنا نحن أيضًا من العبودية للحرية، وما هي علاقتنا الحقيقية بعيد الحرية – القومية، الفنية أو الروحانية؟ ما هو شكل تعاطينا مع الاستعباد في دور العبيد، مع الأشغال الشاقة، مع ثمن القمع الذي دفعه المصريون، وليس العبرانيون فحسب. ومن هو فرعون، من هو بليد القلب، وعلى من تنطبق مقولة «أطلق شعبي»؟

منذ ما قبل يوم الكارثة بُثّت أنباء عن ممارسات فظيعة، مجزرة، تعذيب، نهب وسلب نفذها جنود الجيش الإسرائيلي في المدن والبلدات الفلسطينية. بعد «عيد الحرية» بأسبوع، توقف الصافرة دولة بأكملها على الأرجل، ما عدا «الحريديم» والعرب والمتحفظين لأسباب قومية أو دينية من الطقس الجماهيري، للتأمل بشكل إكراهي وجماعي في تعاملنا مع صدمة إبادة شعب، وهي صدمة لها حصة كبرى في إقامة الدولة وبلورة صورة ساكنيها. كما ذكرت، «لا يمكن المقارنة»، ولكن من ناحية منطقية يمكن قول جملة كهذه فقط بعد أن تكون المقارنة قد جرت، بحق أو بغير حق. فهناك منطق خاص بالتداعيات والمتخيّلات والمخاوف: الدعاية الفلسطينية تقارن ممارسات الجيش الإسرائيلي بالنازية، وشارون يسمى هتلر. والدعاية اليهودية تدّعي بلا إنسانية الانتحاريين الذين يفجّرون أنفسهم. نشيطو يسار إسرائيليون يعرفون أنه لا توجد هنا معسكرات إبادة، لكن كان بينهم من قالوا إنه مع اشتداد تفشي الفاشية في المجتمع اليهودي، فقد بدأوا يفهمون «من الداخل» كيف سيطر النازيون على ألمانيا. وإحدى خلاصات الكارثة، المعرّضة بدورها لأشكال تضليلية أيديولوجية وسياسية، هي أنه لا يوجد مثيل للكارثة في التاريخ البشري. وإنه لا يمكن مقارنة أي شيء بكارثتنا. ولاحقًا يتّضح «مفهومٌ ضمنًا» إضافيٌ: في توليفة «نكبتنا/ كارثتنا» يؤكد كل طرف الـ«نا»، خاصته.

أصداء صافرة يوم الكارثة لم تتبدّد بعد، بينما بدأ صراخ صافرة يوم ذكرى شهداء إسرائيل، التي تجعلنا نواجه الشكل الذي يرفع من سنة إلى أخرى ثمن الحرب المتواصلة. فالتشابك المتبادل بيننا وبين الفلسطينيين (الشاعر والمسرحي الألماني جيته كتب في فاوست: «الدم هو عصير») هو نوع مميز من العزلة المزدوجة والحميميّة. وفي الإعلام

يتصاعد بخار حمضيّ من «الخوشبوشيّة» المضمنة في عدد من أوصاف القبض على مروان البرغوثي، وهناك تأييد غريب يتّضح من المقالات الصحفية عن جبريل الرجوب. وهذه السنة اغتصبت تجربة الحاضر ذاكرة الماضي في «يوم الذكرى»، وفي صفّ طقوسي طويل حمل شهداء الماضي شهداء الحاضر على أكتافهم، أما المستقبل، فإنه في التوقعات الراهنة يبدو كمن يحمل أمواتًا آخرين.

إذن، كيف يمكن إنتاج مسرح مشوّق مع تاريخ وراهن كهذين؟ كعيّنة، في الاسبوع بين ١٨/٤ و ٢٥/٤ (حسب معطيات «عخبار هعير»، ملحق «هآرتس» و«هشافوع – معريف») يعرض المسرح الإسرائيلي حوالي (١٠٠) عرض، بما لا يشمل العروض المخصصة للأطفال، أو عروض الرقص أو الاوبرا أو العروض الساخرة. هذا العرض الكبير، حتى بالمقارنة مع دول منتجة ثقافيًا اخرى، يدلّ بالتاكيد على محبة مثابرة للمسرح حتى في الفترات الصعبة، حين يكون التجمهر الشعبي نفسه معرّضًا لان يتحول إلى خطر حقيقي على السلامة. أم أن هذا العرض يدلّ على شهوة الترفيه الهروبيّة؟ لا شك أنه يدل على نزعة صراع بقاء تجارية مثيرة للانفعال لدى الخشبة المحلية. ولكن بخصوص السؤال، وهو أخلاقي أكثر منه تجاريًا، «هل نمت حين عانى الآخرون؟» (بيكيت، «بانتظار جودو»)، ستضطر غالبية مسارح إسرائيل على الإجابة بالنفي. ولا علاقة لهذه الإجابة بالنزعات الايديولوجية لدى متّخذي القرارات في شؤون أجندة المسرح العبري، لأنهم بمعظمهم يتماثلون، مع ما اعتبروه مرة يسارًا، واليوم يتّضح كحركة «حتص الآن»!

فبعد حوالي (١٩) شهرًا من الانتفاضة، الثانية، لا يزال المسرح العبري بمعظمه يمتنع عن الاحتجاج، المباشر او غير المباشر، الشعاراتي أو العميق. مع ذلك، فهناك احتجاج معين يظهر بالأساس في المسرح الأقل تمّولاً والأكثر جرأة، وفي عروض هامشية في المسرح الرسمي. مثلاً في حساب محدود للنفس لداني هوروفيتس ودنيئيلا ميخائيلي مع موشيه إيفجي جرى الخوض في أساطير إسرائيلية ومتخيّلات محلية. في «أشواق» التي أعدها واخرجها يجآل عزراتي في المسرح المحلي / السرايا أفسحوا فضاء لعدد من «الآخرين»، ولم يكونوا جميعًا فلسطينيين انتحاريين يفجّرون أنفسهم.. وكذلك في مسرحية مشروع «قلب الكامبوس» في جامعة تل أبيب، التي كتبها طلاب مع روعي رشكس، أفيطال منور – پيلچ ويجآل عزراتي، الذي أخرجها، تعرض حنينًا لمجموعات «مُخَوْزَقة» مختلفة. مسرحية No Exit التي أخرجها آفي جبسون – بارئيل في مسرح «هحيدر» لأمير أوريان، تدل على أن المسرح السياسي ليس بالضرورة مملاً، شعاراتيًا او مثيرًا للاعصاب: فالفضاء المحدود الخانق في الغرفة صمم الفضاء الدرامي لمسرحية سارتر، ووُظّف جيدًا كأداة للاتصال

الحميم بين الممثلين والجمهور. «عزلة مضاعفة» (التي أعدها وأخرجها كاتب هذه السطور) هي محاولة لفحص الصراع من خلال كولاج شعري – مسرحي دون ذكر الشعراء بالإسم (بينهم سميح القاسم، محمود درويش، أنطون شمّاس، سهام داوود، ميشيل حداد، يهودا عميحاي، يتسحاق لاؤور، داليا رابيكوفيتش، أمير جلبواع وآخرون)، لأن العديد من تمثيلاتهم متماثل. «عزلة مضاعفة» عُرضت هي أيضاً في المسرح المحلي العربي – العبري / السرايا، متمثلة بثلاثين نصّاً لشعراء عرب وعبريين عرضها ڤيكتور عطار وميرا أنور عوض مع الموسيقيين سامر عازار ويوڤال ميستير. مسرحية «تماسيح» ليهوشواع سوبول هي مسرحية «انتظار» بأسلوب «بانتظار جودو» مع شخصيات ليهود وعرب على شاطئ البحر، في مسرح هرتسليا. «كلمة حب»، لميخائيل جوريفيتش في «مسرح الخان» في القدس هي لمسة مسرحية ناعمة وساخرة في واقع صعب، مسرحية حول قدرة أو عدم قدرة المسرح على ملامسة الواقع. وسط المسرحية يخرج جنود (مزروعون في الجمهور) إلى الخشبة ويبدأون بالتنكيل بأحد الممثلين، في شخصية فلسطيني. «شيء ما انتهى في الترقيص»، وهي ثمرة عمل مشوّق للطاقم المسرحي مع دودي معيان في شلومي، تبدو كنبوءة لوضعنا الراهن: في سلسلة صور تتحرك مع الجمهور بين فضاءات مختلفة، تبلور المسرحية مراسيم فحص للحقائب، عرض أزياء مجنونًا جدًا وإسرائيليًا جداً، والكثير من الدموع والحزن.

هذا كل ما في الأمر، تقريبًا. حوالي خمسة بالمئة من المسرح العبري في هذا الموسم تتعاطى مع واقع صعب بشكل خاص. وأعتذر مسبقًا من مسرحيين سقطت اسماؤهم سهوًا. صحيح أنه يستغرقك وقت لكتابة مسرحية لإخراجها وعرضها، في حين تسابق أعقاب واقع الفظائع أجنحة المخيّلة الحلوة. ولكن معظم المسارح تعيش ذلك الصمت اللامبالي الكبير. أي، بما أنه يتّضح شيئًا فشيئًا، أن الجمهور اليهودي أقل «يسارية» من مدعي المسرح الإسرائيلي، إذن فلماذا إثارة الغضب وخسارة المال والجمهور معًا؟!

ماذا يحدث في المسرح الإسرائيلي؟ المسرحي الفرنسي انطوني آرتو اهتمّ بالمسرح في فترة الوباء، لأن المسرح هام في أوقات الازمات. وفي رائعته «الطاعون» يصف البير كامي الطبيب ريبه، الذي يعلم أن احتمالات العلاج ضئيلة، ولكنه يحاول «القيام بعمله جيداً» (de faire son metier) لمحاربة بقواه القليلة. وبتمثيل جميل لكيفية وجوب محاربة الشر بشكل دؤوب وبدون التنازل حتى لو كانت الاحتمالات قليلة، يصف هانس مجنوس انتسبرجر اندلاع بركان هلجفيل في أيسلندا، «تحت مطر النيران، هناك رجل مسن، مع حمالتي سروال، وبتجاهل وبعدم التفات إلى العاصفة، الحر، المصورين، الرماد، المشاهدين

(وأنا بينهم على السجادة، أمام الشاشة الزرقاء)، يقوم بحمل أنبوب مطاطي رفيع ولكن مرئي، وهو يتقدم ويوجهه إلى قلب الحمم . . » (غياب التايتانيك) .

هناك مهمة على عاتق المسرح الإسرائيلي : محاربة الشر بأنبوب رقيع من المطاط . والواقع الإسرائيلي سيساعد، كمخرج ممتاز، في توفير شرعية راهنية لنصوص قد تبدو جافة، وسيموضعها لدينا . فليست المسرحية وحدها هي الهامة، وإنما تنفيذها أيضاً . واليوم من الواضح في المسرح أن الشخصية المسرحية هنا والآن ليست مرتبطة بتواريخها، أعيادها وفضاءاتها، فقط، وإنما مرتبطة أيضاً بالبشر / بالشخصيات التي ترافقها على الخشبة . والشخص المسرحي ليس سوى حصيلة أعماله، صرخاته . « الهواء مليء بصرخاتنا . . في هذا المكان، في هذه اللحظة الزمنية، كل الإنسانية هي نحن، سواء أعجبنا ذلك أم لا » (بانتظار جودو) . إذن فالحبكة تبنى مع الغير، مع الآخر، مع المحاور . ومن ناحية منطقية، نفسية، مسرحية وسياسية فالوعي الذاتي مستحيل بدون فرضية – وقبول – الوعي الذاتي لدى الآخر . أما الفشل الأساسي للمسرح الإسرائيلي فهو ليس عدم الاعتراف بالمحاور، بالآخر على الخشبة وخارجها، بل أن فشله يتمثّل بكونه يعترف بوجود الآخر، ولكن يتصرف كمن ليس من مصلحته عرضه : وكأن الاعتراف بالآخر يعني في هذه الأيام التنازل عن الـ « نحن » . ولكن الحقيقة معكوسة تماماً : فقط حينما نعترف بالآخر الفلسطيني حقيقةً، قد نعود لما تأملنا مرة أن نكونه كيهود .

مسرحي إسرائيلي، رئيس قسم المسرح في جامعة تل أبيب
(ترجمة «مشارف»)

يحيى يخلف

يوميات الاجتياح

(١)

كيف يمكن للمرء أن يكتب أو يدوّن وهو وسط اللهب، أو تحت سقف النار، أو قرب المجال الجوي للزلازل.

كيف يمكن أن يجد كلاماً صاخبًا يصف فيه جنازير دبابات «الميركفا» وهي تسحق صمت الليل، وتغطي على صوت المذيع، أو كلاما مدوياً يتسلق أعلى درجات سلم «ريختر» ليصف صاروخ الف پاوند بعد أن يسقط فوق موقع قريب ويهز الأرض من جذورها، بينما طائرة الـ (إف ١٦) التي أسقطته تسلخ جلد الفضاء بصوتها الصاعق، الذي يدمر أعصاب من على الأرض وبالتأكيد يقض مضاجع الملائكة في السماء.

لماذا لا تتقدم الملائكة بالشكوى، بينما نحن الفلسطينيين نستنجد ونستغيث بالشعوب العربية، والاتحاد الأوروبي، وروسيا والصين واليابان، وراعي عملية السلام، وكوفي أنان، ونلعن تخاذل الحكام.. ترى، لمن تشكو الملائكة لو قدر لها أن تشكو ؟!!

أتردد وأنا أهم بالكتابة في لحظة جنون العالم، إذ أن الشرعية الدولية والعدالة في لعبة الأمم أضيع من الأيتام على مائدة الولايات المتحدة الأميركية. أتردد، وأكاد أقول بادئ ذي بدء «لا تبك يا بلدي الحبيب» كما قالها روائي أفريقي ذات يوم، لا تبك يا بلدي، لأن في قوة عدوك من الضعف أضعاف ما في كعب أخيل، ولأن للحرية ثمناً باهظ التكاليف، خاصة في هذا الزمن الأعوج والأحدب والأعمى، زمن اليهود والأميركان.

ليلة الاجتياح الإسرائيلي لمدينة رام الله والأراضي الفلسطينية (٢٨ / ٣ / ٢٠٠٢) كان الحذر والترقب يتسللان على رؤوس الأصابع عند كل زاوية في ميدان المنارة، هذا الميدان الذي شهد معارك طاحنة بين المقاتلين الفلسطينيين والدبابات الإسرائيلية قبل ثمانية عشر يوما عندما اجتاحت القوات الإسرائيلية المدينة، وتركزت الحملة آنذاك على مخيمي قدورة والأمعري.

في تلك الأمسية الباردة من آماسي رام الله، عشية الاجتياح الجديد، كنت أسير بصحبة صديقي د. جمال محيسن، وكيل وزارة الشباب والرياضة، في طريقنا إلى «عمارة النتشة» للاطلاع على آخر الاخبار من صديقنا صخر حبش عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح»، ومفوض الشؤون الفكرية والدراسات، والذي استأجر مكتبًا صغيراً في تلك العمارة، ظناً منه أن المكان آمن، ولا تطاله قذائف طائرات الاباتشي.

كنا نسير بمحاذاة دوار المنارة الذي يتوسطه نصب عال وتحيط به تماثيل لأسود منحوتة من الرخام. هبت نسمة باردة فجاة، وخيل إلي أن القشعريرة تسري في أجساد هذه الاسود التي تكاد تزأر لشدة الغضب المنحوت في ملامحها، وكانت ملصقات شهداء المعركة التي جرت هنا يوم ١٠/٣/٢٠٠٢ تملأ السور الحجري الذي يحيط بالنصب، وكانت عينا الشهيد العقيد أبو فادي (فؤاد العديلي) تطلان علينا بهدوء ووداعة، وتكادان تنطقان.

الشهيد أبو فادي، مناضل شجاع، سقط شهيداً بزخة من رصاصات رشاش عيار ٨٠٠، قريباً من دوار المنارة وهو يتصدى للدبابات.

وقلت لنفسي وأنا احدق بوجهه النبيل: الله وحده يعلم كم من الدماء ستسيل في هذا المكان قبل أن يرحل هذا الاحتلال البشع عن هذه الديار المتعطشة للحرية.

وفيما كنا نواصل الاقتراب من «عمارة النتشة»، لاحظنا الازدحام أمام محلات البقالة والمخابز. فالأهالي يعدون العدة للايام المظلمة القادمة، يتزودون بالمواد التموينية والأغذية لانهم ذاقوا في الاجتياح مرارة ليل الاحتلال، ومنع التجول، ورصاص القناصة.

لم يكن هناك من يستطيع التنبؤ بموعد الاجتياح، لكن الناس بخبراتهم الميدانية، وربما بحواسهم السادسة، كانوا يتوقعون الهجوم بعد منتصف الليل.

وصلنا العمارة التي يتجمهر أمام بوابتها بعض المسلحين من أعضاء مختلف التنظيمات، وبعض رجال الشرطة وقوات الامن الوطني، بالزي الرسمي، وصعدنا إلى الطابق الرابع حيث مكتب الشؤون الفكرية والدراسات.

لم يكن صخر حبش موجوداً، ولكن ربيع، مساعده، استقبلنا بحفاوة. ربيع، ذلك الشاب الذي يتقد وطنية وحماسة، والذي اصبح خبيراً في الإعلام الجماهيري، وفي المشاركة بتنظيم المسيرات الشعبية.

استقبلنا بحفاوة، وأصر على تقديم القهوة لنا، وسارع بطلب الأخ صخر على الهاتف.

تحدثنا مع صخر حول التوقعات، وتبادلنا الآراء، واقترح علينا ان نبقى معه في المكتب عندما يبدأ الاجتياح، وكان صخر قد امضى أيام الاجتياح الماضي في مكتبه

ليكون قريباً من اخبار المواجهات، وليتمكن من الوصول إلى مكتب الرئيس ياسر عرفات الذي لا يبعد كثيراً عن مركز المنارة، مركز المدينة.

كان صخر ممتلئاً بالتفاؤل، وقد جسّد تفاؤله الدائم في قصيدة شعرية باللهجة العامية عنوانها «لازم تزبط» كتبها منذ اكثر من عشرين عاماً وتحول هذا العنوان إلى شعارٍ نردده كلما ازدادت العتمة وتراجع بصيص الأمل.

وانتهى حديثنا مع صخر، وبدأنا نفكر فيما يمكن أن نفعله من اجل معرفة ما يجري أو ما يمكن أن يجري.

اقترح د. جمال محيسن أن نتصل بالصديق المناضل مروان البرغوثي، أمين سر «تنظيم فتح» في الضفة الغربية، والقائد الميداني المعروف. اتصلنا به من خلال هاتف الأخ والصديق زياد أبو عين الذي يلازمه. قال لنا زياد: نحن بانتظاركم عند قدورة.

كان مروان يحيط نفسه بجو من السرية، إذ كان على لائحة المطلوبين لقوات الأمن الإسرائيلية، وكان يخشى من عملية اغتيال بواسطة طائرات الاباتشي، لذلك احاط تحركاته واماكن وجوده بالكتمان.

خرجنا من مكتب صخر حبش وغادرنا «عمارة النتشة» متوجهين إلى «عمارة مخماس» القريبة حيث يوجد مكتب قدورة فارس، عضو المجلس التشريعي، وقد سبق لي أن التقيت مروان هناك اكثر من مرة.

فوجئنا بان المكتب مغلق، وعند ذلك فقط، عرفنا أن زياد، الذي لم يشأ ان يفصح عن المكان على الهاتف لاسباب امنية، يقصد مخيم قدورة وليس مكتب النائب قدورة فارس.

توجهنا بالسيارة إلى مخيم قدورة، إلى البيت الذي سبق أن زرناه مرة منذ شهرين، والكائن على أطراف المخيم.

استقبلنا مروان بحفاوة واهتمام، وكان بصحبته زياد ابو عين، وأبو العلاء. كانا يتابعان التقارير الإخبارية التي باتت تتحدث بوضوح عن الخطة المتدحرجة للاجتياح (مروان تعلم اللغة العبرية في السجن أيام الانتفاضة الأولى). ترجم لنا شيئاً مما تبثه التقارير، وفي اثناء شرب القهوة، قال مروان إن الضربة الإسرائيلية هذه المرة ستكون قاسية. وقال إن هذه ستكون آخر طلقة في مسدس شارون، وبعد هذه المعركة ستولد مقاومة اشد قوة واشد بأساً.

جلسنا برهة من الوقت، ثم ودعناه، إذ كان عليه أن يغادر ذلك المكان، وان يواصل عمله مع مختلف المواقع التنظيمية في مدينة رام الله ومخيماتها وقراها.

عندما كنا عائدين إلى موقع إقامتنا في الجانب الغربي لحي «باطن الهواء» كان د. جمال يعبّر عن قلقه وخوفه على مروان إذ انه سيكون هدفاً للقتل او الاعتقال، خاصة ان الحكومة الإسرائيلية قد أعلنت ان العملية العسكرية في الأراضي الفلسطينية ستستغرق وقتاً طويلاً. عندما وصلنا باب العمارة كان بعض الرجال من الجيران يتجمعون وقد بدا عليهم القلق الشديد، كانوا ينتظرون سماع هدير الدبابات التي ستصل إلى منطقتنا عبر معسكر «عوفر» أو عن طريق عين عريك. عمارتنا تطل على وادي رام الله العظيم، وادي «باطن لهواء» أو «بطن الهوا» كما يسميه الناس.

الوادي المزروع بأشجار الزيتون يمتد ويتعرج، ويوصل إلى قرى غرب رام الله.

عندما عدت إلى المنزل، وجدت أبو فراس (غسان كمال)، شقيق زوجتي، يتهيأ للخروج.

أبو فراس يمضي أيام إجازته عندنا في البيت، إذ ان أسرته تقيم في نابلس، وخلال الشهور الأخيرة لم يعد يقضي إجازته بين أفراد أسرته لأن الطريق إلى نابلس مغلقة، ولا يسمح الإسرائيليون للناس بالمرور بين المدن، والطرق الجبلية والترابية محفوفة بالمخاطر.

أبو فراس يعمل ضمن طاقم سكرتاريا الرئيس. يعمل عملاً شاقّاً، فهو يعمل ثماني واربعين ساعة بلا انقطاع، وبلا نوم احياناً. فظروف العمل في مكتب الرئيس وفي ظل هذه الأوضاع يتطلب حالة استنفار دائمة. وبعد الثماني والأربعين ساعة، كان يحصل على استراحة لمدة أربع وعشرين ساعة، يأتي إلى منزلنا، يستحم، وينام، ويمضي ما تبقى من وقت في الجلوس معنا ومشاهدة عدد لا يحصى من نشرات الأخبار التي تبثها مختلف المحطات الفضائية.

نشرات الأخبار أصبحت «كافيين» يوميًا، نتناوله صباح مساء، صارت حالة إدمان على الرغم من ان مشاهدة نشرة واحدة تكفي.. الأخبار المكررة والمعادة لم تعد تبعث على الملل، نشاهدها طمعاً في خبر عاجل يشفي الغليل، ويشفي غريزة حب الاستطلاع.. جملة «خبر عاجل» دخلت قاموسنا اليومي خلال أحداث الانتفاضة، ولسحر هذه الجملة أطلق أحدهم على مطعمه الصغير (كافتيريا خبر عاجل).

وقال لي أحد الأصدقاء إن مواطناً فلسطينياً أصر على عبور أحد الحواجز بين رام الله والقدس، فمنعه جنود الاحتلال، وعندما حاول ان يجادل، صوّب أحد الجنود بندقيته إلى صدره، وصرخ به: اذهب من هنا قبل ان أطلق النار عليك، وتتحول في تلفزيون «الجزيرة» إلى خبر عاجل.

حمل ابو فراس حقيبته، وهمّ بالخروج.

إستوقفته، وقلت له: لديك إجازة حتى مساء الغد، لماذا تعود الآن؟

قال لي: لا أريد أن أكون خارج مقر الرئيس عندما يطوقونه، فإذا لم أذهب الآن، لن أكون هناك غداً.

قال ذلك، ولوّح لنا بيده، وراح...

عندما خرج أبو فراس، ظللت جو البيت حالة وجوم.

لعل زوجتي استشعرت الخطر باكراً، فيما كان إبني الأكبر هيثم يعمل على جهاز الكمبيوتر الخاص به، وزوجته هالة تطرز بالإبرة على القماش تكوينات فنية ساحرة.

انتقلت إلى الشرفة، والقيت نظرة على الوادي العظيم الذي نطل عليه أو يطل علينا. كان ممتلئاً بالعتمة والضباب والصمت. أحسست بالوحشة، وأوجس قلبي خيفة.

أمضيت بعضاً من وقت أمام هذا الصمت الموحش.

الوقت يمر بطيئاً، والناس ينتظرون ويترقبون.

لا أدري إن كان الجيران قد انتظروا كثيراً أم أنهم عادوا إلى بيوتهم باكراً، ولا أدري إن كانوا خلدوا للنوم أم لا..

لا أدري.. ولكن هدير الدبابات داهم رام الله فجأة، في لحظة من لحظات الفجر، وكان الوقت الثالثة صباحاً.

(٢)

هكذا بدأت عملية «السور الواقي» باجتياح مدينة رام الله، الساعة الثالثة صباحاً من يوم ٢٩ / ٣ والتي اتسعت كالدائرة، وتدحرجت كالكرة الى ان شملت جميع الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية.

أعتقد أن جميع سكان رام الله والقرى المجاورة قد استيقظوا على وقع جنازير الدبابات وناقلات الجنود، وأصوات طائرات الاباتشي، وما رافق ذلك من قصف مدفعي وقصف بالرشاشات الثقيلة والصواريخ.

حرص الإسرائيليون منذ اللحظة الاولى على استعراض عنصر القوة، إذ قدرت الآليات المشاركة في معركة رام الله بثلاثمائة دبابة وآلية وجرافة.

دخلوا دفعة واحدة، وفي لحظة واحدة من محور رافات، محور ام الشرايط، محور بيتونيا، محور الارسال وشارع نابلس، محور سطح مرحبا، ومحور الطيرة..

وامتلأت الأرض والسماء بدوي المدافع، وأزيز الرصاص، وهدير الآليات.

استيقظنا جميعاً، أنا وزوجتي، وابني الأكبر وزوجته، وأسرعنا إلى الشرفة والنوافذ نحاول أن نتبيّن ما يجري. من شرفة المنزل والنوافذ شاهدنا الدبابات والآليات وهي تتقدم بأضوائها الساطعة، شمالاً على شارع الطيرة وغرباً على شارع بيتونيا، اما اصوات الانفجارات في كل مكان في المدينة فقد تواصلت بلا انقطاع.

لم يطل وقوفنا على الشرفة، أو أمام النوافذ، فقد بدأت زخات الرصاص تنهمر باتجاهنا، وبدأنا نبحث عن مكان آمن في البيت، يمكننا فيه متابعة الاخبار من خلال المحطات الفضائية.

في الواقع، كنا ننتقل من محطة إلى أخرى، ولم يكن لدى تلك المحطات سوى الأخبار الشحيحة.

بدأنا نبحث عن المحطات التلفزية المحلية، وخاصة محطة «وطن» التي تبث من رام الله، والتي حققت أداء منقطع النظير في أثناء الاجتياح الماضي يوم ١٠ آذار، إذ انه من نوافذ مبنى المحطة المطل على مستشفى رام الله ومخيم قدورة، واصلت النقل المباشر للمواجهات والمعارك التي دارت بين المقاومين الفلسطينيين والدبابات الإسرائيلية طوال أربعة أيام متواصلة.

وفي هذا الفجر الدامي، واصلت «وطن» هذه المرة ايضا البث المباشر لحركة الدبابات والآليات التي تتحرك في محيط مبنى المحطة وكانت تبث الأخبار العاجلة التي تصلها أولاً بأول، ومعظم هذه الأخبار كانت تتركز حول ما يجري في محيط مكتب الرئيس.

كان القلق العام يغمر هذا البيت، ويثير أسئلة الترقب والانتظار، وكان قلق زوجتي غادة مزدوجاً. فبالإضافة إلى قلقها العام، كان هناك قلق خاص يتعلق بشقيقها أبو فراس (غسان كمال) الذي يعمل ضمن طاقم سكرتاريا الرئيس، وكان في تلك اللحظات موجوداً في مقر الرئيس في مبنى المقاطعة.

ما الذي يجري هناك في محيط المقاطعة؟

كنا نسمع أصوات القذائف والرشاشات، وحركة الآليات المزنّرة.. كنا نحاول أن نميّز المكان الذي تجري فيه اعنف الاشتباكات، لان المواجهة كانت جارية في كل مكان، على أطراف شارع الطيرة، بالقرب من سرية رام الله، وفي رام الله التحتا، وفي شارع المنارة، وعند «مطعم الناصرة» و«بنك القاهرة عمان»، وعلى أطراف البيرة، وفي محيط المقاطعة.. الخ. ولم نستطع أن نحدس بالضبط أين هو المكان الذي يشهد اعنف

قصف وان كنا لم نستبعد أن يكون محيط المقاطعة، خاصة ان التقارير التي تبثها الإذاعات ومحطات التلفزة تشير إلى هجوم وشيك هدفه اقتحام مقر الرئيس عرفات لاعتقاله وابعاده، وربما قتله .

مضى الوقت بطيئاً ورحلت العتمة، واطل ضوء الصباح بطيئاً وفاتراً . كان هذا الصباح بطيئاً ومذعوراً وهو يتسلل من تحت سقف النار، وفي اعماقنا ظل ينتشر القلق وتتناثر الأسئلة .

عند الساعة السادسة صباحاً، رن هاتف المنزل . . وكان « أبو فراس »، شقيق زوجتي، على الخط . قال إن الجرافات الثقيلة بدأت تهدم سور المقاطعة، وان القصف الآن مركز على مكتب الرئيس والمباني التي تحيط به، لكنه اضاف ان المعنويات عالية، وان الرئيس بخير، وان قرار الصمود لا رجعة عنه .

كانت مكالمة سريعة وقصيرة، لكنها أكدت أن مكتب الرئيس هدف اساس لهذه الحملة في هذه الآونة .

هل ازداد قلقنا أم بقي على حاله؟

في الواقع أننا، وبعد ساعات ثلاث، كنا قد استوعبنا الحقيقة، وخرجنا من حالة الكابوس إلى حالة الوعي بما يجري .

اننا نتعرض إلى غزو، إلى إعادة احتلال، إلى عدوان تستعمل فيه إسرائيل أقصى ما لديها من قوة .

تركز الانتباه في ساعات الصباح الاولى على حصار مبنى المقاطعة، ومحاولات اقتحام المبنى الذي يتواجد فيه الرئيس .

وفي الساعات الاولى أجرت محطة « الجزيرة » اتصالا عن طريق الهاتف بالرئيس عرفات، فاكد على خطورة الوضع، وقال كلمته التي ظلت اجهزة الاعلام ترددها طوال أسابيع الاجتياح : يريدونني اسيرا أو طريداً أو قتيلا، ولكني اقول لهم ساكون شهيداً . . شهيداً . . شهيداً .

بعد هذه المقابلة التي بثتها « الجزيرة » بقليل، أجرينا، أنا والوزير عزام الاحمد، الذي يسكن في الطابق الاول من العمارة التي أسكنها، اتصالاً مع مكتب الرئيس لمعرفة الاحوال هناك، وعندما علم الرئيس أننا على الهاتف تحدث معنا .

تحدث مع عزام الاحمد أولا ثم تحدث معي . . عبرت له عن تضامني، وأشدت بكلماته التي عبرت عن العزة والكرامة والكبرياء، فاكد لي أن العهد هو العهد . وردد شعار : « ع القدس رايحين شهداء بالملايين »، وهو الشعار الذي استفز شارون عندما ردده

الرئيس في لقاء جماهيري قبل شهرين، واعتبر شارون وأجهزة الإعلام الإسرائيلية ان هذا الشعار يشجع الإرهاب حسب زعمهم، ولعل الرئيس حين ردد الشعار على الهاتف في اثناء حديثه معي، كان يدرك انهم يتنصتون على مكالماته، فاراد إغاظتهم واراد ان يرسل لهم رسالة تحد.

قبل الظهر توقف تلفزيون «وطن» عن البث..

اقتحم الاسرائيليون مبنى التلفزيون، وأوقفوا البث، واحتلوا المكان، ومكثوا به. بإغلاق محطة «وطن»، أغلقت نافذة هامة من نوافذ مصادر المعلومات.

بعد الظهر، أعاد الإسرائيليون البث، وهذه المرة احضروا طاقماً اسرائيلياً وشغلوا المحطة، وإمعانا منهم في العدوان والسادية، اخذوا يبثون افلاما إباحية حقيرة.

بعد انتصاف النهار ازداد عنف الهجوم الإسرائيلي على المواقع كافة، وكنا نسمع من كل الاتجاهات دوي القذائف، ودوي الانفجارات، وأصوات الرشاشات الثقيلة.

وقريبًا منا كانت الدبابات تذرع شارع بيتونيا جيئة وذهابًا، وتعلن من خلال مكبّرات الصوت عن فرض نظام منع التجول.

الهجوم الأعنف، كان حول محيط المقاطعة، اذ استطاعت البلدوزرات والجرافات هدم السور الشرقي وجرف البوابة الرئيسية مما مكن الدبابات من الوصول إلى مهبط الطائرات المروحية الذي كان يستعمله الرئيس وضيوفه، والى الساحة المجاورة التي تفضي إلى مبنى الرئاسة. وكان من الواضح ان الدبابات الإسرائيلية تتقدم وسط مقاومة ضارية.

عند الغروب، خرجت من جحيم الاخبار التلفزيونية، إلى هدوء الشرفة المغلقة ذات النوافذ الزجاجية والتي تكشف المشهد كاملاً.. كانت الشمس قد حجبت وراء الغيوم والضباب، ولكنني حاولت ان اتخيل إطلالتها الأخيرة قبل ان تحتجب وقد تحولت إلى قرص احمر يصبغ بلونه الغسق كله.

ووراء النافذة كنت أشاهد عصفورين يمارسان الحب واللهو على الرغم من برودة الطقس، بل انهما لم يكونا عابئين بكل ما يجري من معارك خارج محيط الوادي..

ظلا يمرحان امامي الى ان حل الغروب، وهبطت العتمة.. إلى أين ذهبا.. لا ادري، ولكن لا بد أن لهما عشاً على غصن من أغصان شجرة بلوط في مكان ما من السفوح القريبة.

حل الظلام وكان اشد حلكة من اي ليلة مضت، كانت زوجتي تجيب على المكالمات

التي تصلنا من الأهل والأصدقاء، ولم يكف الهاتف عن الرنين.

حاولت الاتصال بأصدقاء يعيشون بالقرب من المقاطعة، لكن دون جدوى، إذ ان الجرافات قد جرفت كوابل الهاتف هناك، فانقطع الاتصال، فيما أطلقت الدبابات أجهزة التشويش على الهواتف النقالة.

بدأنا نتلقى اتصالات عن مداهمات تقوم بها قوات الاحتلال للاحياء السكنية في مختلف المناطق، وقيل لنا انهم يعتقلون الذكور من سن الخامسة عشرة وحتى الخمسين. يجمعونهم في الساحات بالملابس الخفيفة أو الملابس الداخلية، في جو البرد والصقيع، ثم ينقلونهم إلى معسكر «عوفر» في ضواحي بيتونيا، وهناك يخضعونهم للتحقيق والتعذيب والتنكيل والإهانة.

عند الحادية عشرة مساء اتصل بي أحد الاصدقاء، وابلغني ان «عمارة النتشة»، حيث يتواجد الاخ والصديق صخر حبش، تتعرض الآن لهجوم عنيف من قبل الدبابات والجنود المشاة.

وعلمت فيما بعد أن عدداً من المدافعين كانوا بداخلها في الطابق الثاني، وان مجنزرة تتقدم قوة مهاجمة عبرت مدخل العمارة، وبدأت تطلق الرصاص والقذائف. فقام المدافعون بهجوم معاكس استعملوا فيه الاسلحة الخفيفة، والقنابل اليدوية، وأوقعوا بعض الإصابات في القوة الاسرائيلية المهاجمة. وأمام غزارة النيران اضطر الإسرائيليون إلى التراجع والخروج من العمارة.

وغيّر الإسرائيليون خطتهم، وقرروا التوقف عن اقتحامها والاكتفاء بمحاصرتها، وقصفها من الخارج.

تساقطت قذائف الدبابات على الطوابق المطلة على الشارع الرئيسي والشوارع الفرعية ومن كل الاتجاهات، ومع ذلك تواصلت المقاومة من المدافعين الشجعان إلى ان نفدت ذخيرتهم.. كانوا مجموعة كبيرة من قوات الأمن، والتنظيم، والشرطة، وقد قاتلوا ببسالة.

صخر حبش ومجموعة من مساعديه، تركوا الطابق الرابع الذي تعرض للقصف، وصعدوا إلى الطابق السادس، وكانوا على اتصال بالشباب المدافعين عن الموقع والذين كانوا يتمترسون في مواقع قتالية على امتداد مساحة الطابق الثاني.

عند الساعة السابعة صباحاً نفدت الذخيرة تماماً فقرر المدافعون أن يستسلموا، وقد ابلغوا صخر حبش بقرارهم.

خرجوا من باب العمارة، وصوّب الإسرائيليون نحوهم فوهات البنادق، ثم طلبوا منهم

الجلوس أو الانبطاح على الأرض، وبعد ذلك طلبوا منهم، عبر مكبرات الصوت، أن يتقدموا واحداً واحداً.

وكل من كان يتقدم رافعاً يديه، كانوا يطلبون منه أن يكشف عن بطنه ليتأكدوا من انه لا يحمل على وسطه حزاماً ناسفاً.

وكان الصحفيون يصورون هذا المشهد، هذا المشهد الذي بثته الفضائيات في نشراتها، والذي اصبح جزءاً من مقدمة برنامج (تحت الحصار) الذي أطلقته قناة «الجزيرة».

الشاب ايمن المالكي، أحد المدافعين في «عمارة النتشة»، أبلغ الإسرائيليين قبل ان يقيدوا يديه، ان ثمة عدداً من الإعلاميين الفلسطينيين يتواجدون في الطابق السادس، ومن بينهم بعض الجرحى.

الضابط الإسرائيلي المسؤول عن الموقع، خشي من كمين وتردد في إرسال جنوده إلى الطوابق.. لذلك طلب من ايمن المالكي ان يذهب إليهم ويطلب منهم النزول وتسليم أنفسهم. صعد مع ايمن المالكي مجموعة من الصحفيين الأجانب، وعندما وصلوا الطابق السادس، كان صخر حبش موجوداً ومعه بعض مساعديه. صخر حبش يعاني من مرض الربو، وبسبب له ذلك ضيقاً في التنفس، وقد ظل طوال الليل يشم رائحة البارود والدخان والغاز، لذلك كان في حالة لا توصف من الإرهاق والتعب. لم يكن ثمة خيار.. لذلك هبط ومن معه إلى مدخل العمارة، وأعلن للصحفيين الذين صوروه انه قائد سياسي يعمل في مجال السياسة والإعلام.

التاسعة صباحاً خطر لي أن اتصل به. كان إذ ذاك يهبط الدرجات الأخيرة التي تفضي إلى باب العمارة، رد علي، وشرح لي شيئاً عن وضعه باقتضاب، وفهمت انه في طريقه إلى الاعتقال، وان علي أن أبلغ من أستطيع من أعضاء القيادة، ليأخذوا علماً، وربما ليعملوا ما يستطيعون عمله.

عند العصر، سمعنا عن مداهمات واعتقالات في مدينة البيرة، اتصلنا بالصديق تيسير الغار وزوجته السيدة سوسن، اللذين يسكنان في حي قريب من مستوطنة «بسغوت». الاتصال بالهاتف هو الوسيلة المتوفرة للناس لمعرفة ما يجري بين منطقة وأخرى في ظل ظروف منع التجول.

فوجئنا بان بيتهم قد تعرض للمداهمة والتفتيش، وان الإسرائيليين يحتجزون ابنهم الفتى أمير ويحتجزون أيضاً اثنين من أبناء شقيق تيسير، هما إبراهيم وهاني.

ثلاثة من أبناء عائلة الغار محتجزون في مدرسة الحي بانتظار التحقيق معهم وتقرير مصيرهم.

كانت السيدة سوسن مثقلة بالحزن والوجع والقلق، حاولت طمانتها، لكن كلماتي لم تستطع تهدئة روع أم تكابد قلقاً كبيرًا على مصير طفلها.

في الواقع اني فوجئت بأن امير دخل عامه السادس عشر، فقد كنت في الماضي اعتقد انه في الثانية عشرة أو على الأكثر في الثالثة عشرة، لكن الأطفال في بلادنا يكبرون فجأة، ومع ذلك لم استطع أن أتخيل ان هذا الطفل الفتى يمكن ان يقف امام ضابط الموساد ليرد على أسئلته..

حاولت بعد ذلك أن ادخل إلى غرفتي لاخذ قسط من الراحة، لقد اعتدت في الماضي على أن أنام قليلاً بعد الغداء ومنذ أن بدأ الاجتياح لم تعد هناك مواظبة على أي عادة من العادات، فنحن في حالة يقظة دائمة، ولم نعد نضع حداً فاصلاً بين الليل والنهار، ولا نحدد وقتا معينا للنوم أو الاستيقاظ، فالزمن قد اصبح شيئا مجرداً والساعات تمضي دون أن نشعر بها.

حاولت أن أغفو في وقت القيلولة، انفجارات عنيفة في مكان قريب طردت النعاس الصعب، ووجدت نفسي اهبط عن سريري، واسارع إلى الشرفة، والقي نظرة لمعرفة مصدر الانفجارات. كان القصف كما يبدو في مكان ما من منطقة رام الله التحتا، لعلهم يفجرون بعض البيوت، او مداخل المحلات المغلقة.

اي دم يسيل في هذه اللحظات، اي روح تزهق، بل اي مجزرة ترتكب!! اي قتل وحشي يتم الآن في العتمة، بعيداً عن كاميرات أجهزة الإعلام..

انه الموت، الموت المعلن، والموت المستتر.

(٣)

الخبار يوم الاحد كانت مرعبة، يوم أحد ابن كلب، تكشفت فيه مجازر بشعة ارتكبها جنود الاحتلال، واغلب ضحاياها من جنود وضباط الأمن الوطني الفلسطيني، الذين وجدوا أنفسهم فجأة محاصرين، بلا ذخيرة، بلا طعام، بلا أمل.

معظم هؤلاء حاولوا الاختباء في مداخل العمارات بعد ان قاوموا في اليوم الاول والثاني، وباسلحتهم الخفيفة، إلى ان نفدت ذخيرتهم.

لم يكن أمامهم من أمكنة سوى البيوت المهجورة، او العمارات قيد التجهيز، أو مداخل العمارات الكبرى.

اقتحم الإسرائيليون معظم تلك المواقع، وقتلوا بدم بارد كل من وجدوه هناك، ولعل ابشع مجزرة كانت تلك التي حدثت في أحد مداخل عمارة «بنك القاهرة عمان»، إذ كان

خمسة من الضباط، كبار السن، الذين لم يحالوا إلى التقاعد بسبب عدم وجود نظام للتقاعد حتى الآن في السلطة الوطنية الفلسطينية، ونظراً لكبر سنهم، فقد كلفوا بمهام إدارية لا قتالية، مثل العمل في جهاز التموين التابع للقوات أو مديرية اللوازم والزيوت، وما إلى ذلك.

واحد هؤلاء، كان يقود جوقة موسيقى الأمن الوطني التي تعزف النشيد الوطني والمارشات العسكرية في الاحتفالات والمناسبات.

كان ضابطا كهلا، أشيب الرأس واللحية والشاربين، كان طويلاً ونحيفاً وفي الاحتفالات يزهو ببزته العسكرية ويقود جوقته كما لو كان مايسترو حقيقياً.

كنت أشاهده أحيانا وأنا ذاهب بسيارتي إلى مركز عملي في وزارة الثقافة، اذ كان يدرب فرقته على العزف في الصباح على الشارع العام، يسير رجاله في طابور وهم يرتدون حللهم العسكرية، ويعزفون المارشات العسكرية، ويضبطون خطواتهم على إيقاع الموسيقى، فيما كان المايسترو يتقدمهم، وينظر إلى المارة بفخر واعتزاز.

واذكر، ان وزارة الثقافة حصلت على كمية من الآلات الموسيقية كمنحة من حكومة اليابان، وقامت بتوزيعها على المدارس والمعاهد، واهدت بعضاً منها إلى فرقة موسيقى الأمن الوطني.

اذكر، ان «المايسترو» في مشواره التدريبي الصباحي، عرج صوب مبنى الوزارة، وتوقف أمامه، وأخذ يعزف الحاناً عذبه، وذلك كتحية وفاء منه للفتة الكريمة التي قامت بها الوزارة تجاه فرقته.

كان «المايسترو» خامس خمسة أعدمهم جنود الاحتلال في زاوية معتمة من «عمارة بنك القاهرة عمان».. وجدهم الصحفيون بعد يومين جثثاً هامدة، وقد أطلق الرصاص على رؤوسهم، وسال الدم، وخضب لحاهم البيضاء.

خرجت صباحاً من شقتي، وهبطت إلى الساحة الامامية لعمارتنا..

كان يجلس على الكراسي أمام المدخل، الوزير عزام الاحمد، ود. أمين حداد محافظ سلطة النقد، ومجدي ابو فراس احد كوادر مكتب الرئيس، والدكتور جمال محيسن.. كانوا يستمعون إلى نشرة أخبار من راديو صغير ويتبادلون التحاليل والتعليقات.

الهجوم يتواصل على مكتب الرئيس، وقوات خاصة إسرائيلية احدثت ثغرة في مدخل خلفي لمبنى المقاطعة، وحاولت الدخول من باب مكتب محافظ رام الله والبيرة،

فتصدى لها حرس الرئيس، ومنعوها من التوغل، ونتيجة للاشتباك استشهد جندي فلسطيني وأصيب اثنان آخران بجراح.

حاولت سيارات من الهلال الاحمر، والصليب الاحمر، والإغاثة الطبية، الوصول لنقل الشهيد والجريحين، فأطلق الاسرائيليون النار عليها، واعتقلوا عددا من الطواقم الطبية.

في ذلك الصباح أيضا، تمكن عدد كبير من الاصدقاء الأوروبيين بعبور حاجز قلنديا، والوصول إلى رام الله.. انهم المتطوعون الشرفاء الذين جاءوا في إطار الحملة الدولية الشعبية لحماية الشعب الفلسطيني، وهي الحملة التي نظمتها الإغاثة الطبية برئاسة د. مصطفى البرغوثي بالتنسيق مع منظمات أهلية أوروبية.

جاءوا، وانتشروا في مختلف المواقع، مثل مستشفى رام الله، مستشفى زايد، ساحة المنارة ومحيط المقاطعة، وحاولوا مساعدة الأهالي، وتظاهروا أمام الدبابات، ولم يعبأوا بالتهديدات والرشاشات التي صوبت نحوهم.

ترافق ذلك مع اندلاع الغضب في شوارع المدن العربية، خرجت الجماهير العربية في تظاهرات حاشدة دعما للصمود الفلسطيني.. ها هي الأسود الحبيسة في أقفاص الأنظمة العربية تزأر وها هو زئيرها يصل إلى عمق أفئدتنا وعمق أرواحنا.

اتصال هاتفي من تيسير الفار، كان فرحاً من جهة، ومنزعجا من جهة اخرى.. لقد افرجوا عن أمير، وإبراهيم، أما هاني فقد قيدوه، وعصبوا عينيه واقتادوه إلى معسكر «عوفر» الرهيب.

عاد الطفل أمير، تحدثت معه، كان قد أمضى ليلة في العراء مع المئات من الشبان في باحة «مدرسة المغتربين» التي تحولت إلى مركز توقيف.. وصف دقائق تلك الليلة لحظة بلحظة. منذ أن أخذوا منه البطاقة الشخصية، إلى انضمامه لطابور الموقوفين، وجلوسهم القرفصاء في الساحة الواسعة وأسلحة الجنود مصوبة نحوهم، إلى عمليات الضرب والإهانة، ومنعهم من الشرب أو التبول، إلى الشتائم القذرة التي شتمهم بها الجنود، خليط من الكلمات العبرية والكلمات العربية، إلى البرد القارس الذي اخترق الأطراف والصدر واستقر في العظام، إلى.. وصف لي أمير كل ما جرى بصوت واثق..

– هل أنت خائف الآن؟

سألته، وأجاب على الفور:

– لا..

احسست عندها، ان تلك الليلة التي قضاها في الأسر اكسبته تجربة تعادل عقداً من السنوات . أما سوسن فقد كانت مرتاحة لعودة ابنها، ولكن شاب صوتها حزن دفين، وكنت اعرف أن غياب هاني يجعل الفرح ناقصاً .

غاب هاني الفار، اخذوه إلى معسكر «عوفر»، انقطعت اخباره، حاول أهله أن يستفسروا عن مصيره، اتصلوا بالصليب الأحمر، اتصلوا بلجان حقوق الإنسان، لكن أحدا لم يعط جوابًا شافيًا.

بعد الظهر وصلت اخبار طيبة عن صخر حبش.

انه في معسكر «عوفر»، لكنهم عندما تحققوا من شخصيته، وعرفوا مركزه السياسي، خففوا عنه الضغط واحتجزوه في مكان معقول، وسمحوا له بشرب الماء، وتناول الدواء. إذ كان يعاني كما ذكرت من مرض الحساسية في الصدر. ثم اخبروه بانه غير مطلوب ويمكنه الخروج من المعتقل.

سمعنا ان صخر رفض ان يخرج إلا إذا افرجوا عن مرافقيه، وبعد مفاوضات عسيرة، سمحوا له أن يصطحب معه طراد (أبو يوسف) ووليد .

خرج الثلاثة وعبروا البوابة . . وجدوا انفسهم في الطريق . . هكذا يفعل الإسرائيليون مع من يفرج عنهم من معسكر «عوفر»، يطلبون منهم الخروج مشياً، او ينقلونهم في حافلة إلى حاجز قلنديا، ومن يفرج عنه بهذه الطريقة، يمكن ان يتعرض للموت او الاعتقال من جديد . الخروج من معسكر «عوفر» هو خروج من سجن صغير إلى سجن كبير. إذ أن المدينة المجاورة (بيتونيا) تخضع لنظام منع التجول. جاء احد الأصدقاء، رجل أعمال محترم، ونقلهم بسيارته من بوابة المعسكر إلى منزله عند مفترق عين عريك .

بعد ايام خرج ربيع من السجن، اما مجاهد فقد نقلوه إلى سجن النقب في الصحراء، وهناك عذبوه بوحشية، شبحوه في الفضاء وهو مقيد اليدين، وضربوه ضرباً مبرحاً. لم تكن هناك تهمة ضده، أرادوا ترويضه وتدجينه لكي يرضخ للتعاون معهم كعميل، لكن مجاهد الصلب المقاتل الشجاع، الكادر الملتزم، رفض عرضهم، وتحمل المعاناة، وخرج مرفوع الرأس، وكان أقوى من الوجع والألم.

أما عاصي فانه تعرض للضرب باعقاب البنادق في معسكر «عوفر» وعندما افرجوا عنه، كان وضعه الصحي يتدهور، وتم نقله إلى مستشفى رام الله، وبعد يومين فارق الحياة.

رحل ذلك الشاب الطيب الشجاع، رحل متدثراً بدفء صموده، وقوة تحمله.

إذن كنا نجلس أمام مدخل العمارة، نتبادل الأحاديث، ونتمشى على الشارع ونتسلل من بين البيوت إلى الشارع الرئيسي، حيث «سوبر ماركت السنابل»، نطرق الباب، فيفتح لنا صاحبه أو أحد العاملين به، نشتري حاجياتنا على عجل قبل أن تعود الدبابة أو المجنزرة، وإذا ما سمعنا صوتها قادمة، فإننا نبقى في الدكان إلى أن تبتعد.

كان الوصول إلى «السوبر ماركت» مغامرة صغيرة، لكنها محفوفة بالمخاطر، فأي شيء يتحرك هو هدف للرشاشات الإسرائيلية..

كنا نتابع ما يجري على الشارع الرئيسي أولا بأول ونحن نجلس أمام العمارة.. إذ أن عددا من أصدقائنا يسكنون في عمارات مطلة على الشارع، بعضهم يسكن في أول الشارع، عند سوق الخضار المعروف بسوق نابلس، وبعضهم الآخر يسكن بالقرب من الجامع أو عند مفترق عين عريك.

كنا نعرف عن طريق الهاتف، ماذا يجري في العمارات القريبة من مفرق عين عريك، إذ تطوق قوة عسكرية البنايات، ويوجه الجنود عبر مكبرات الصوت أمرًا لكل الذكور بالنزول إلى الساحة، أو يداهمون شقة بعينها لديهم معلومات عن وجود مطلوبين فيها.

وفي الواقع إن عمليات المداهمات ازدادت في الأحياء القريبة، وقد توقعنا أن يتم مداهمة عمارتنا في ذلك الصباح، إذ سمعنا هدير الدبابات وهي تقترب على الشارع الفرعي المؤدي إلينا، وبدأنا نعد أنفسنا للتفتيش أو المواجهة او الاعتقال.. وكنا نشعر بقلق شديد على صديقنا عثمان ابو غربية الذي خرج منذ أيام قليلة من غرفة العناية الفائقة بعد عملية قلب مفتوح أجراها في مستشفى رام الله، وقد أوصى الطبيبان ضرغام ومحمد البطراوي بإحاطته بأقصى درجات الهدوء والسكينة، خاصة في مرحلة النقاهة التي تستغرق شهرا كاملا.

كنا نخشى عليه من الانفعال أو التعرض إلى التوتر، ولم يكن أحد منا يعلم كيف سيتصرف جنود الاحتلال معه.

في ذلك الصباح، وصلت الدبابات إلى منتصف الطريق التي تفصل ما بين الشارع الرئيسي وعمارتنا، ولأمر ما توقفت فجأة، واستدارت عائدة من حيث أتت.

لم يبعث ذلك على الطمأنينة، وكنا على يقين من انها ستعود في وقت لاحق.

انتبه عزام الاحمد الى أن رائحة النفايات التي تتكوم فوق الحاويات أصبحت لا تطاق.

كانت أكياس الزبالة تتكوم ويتساقط بعضها على الأرض بسبب صراع القطط على الطعام.

اقترح عزام ان نشارك جميعا في نقل هذه النفايات إلى الخلاء وإحراقها.

لم يتردد أحد، وعلى الفور بدأنا العمل.

وجدنا عربة صغيرة تجر باليد عند الجيران، نقلنا أكياس الزبالة والنفايات الاخرى إلى ساحة قريبة، استغرق ذلك وقتا طويلا. وفي نهاية الأمر، اشعلنا بها النار، وتصاعد دخان كثيف.

ويبدو أن الأحياء القريبة منا انتبهت إلى ما فعلناه، فقد اندلع المزيد من الحرائق في المناطق المجاورة.

الاثنين ١ نيسان

استيقظنا على أصوات الانفجارات التي تهز المدينة واطرافها بين لحظة وأخرى، الانفجارات تقترب أو تبتعد لكنها متواصلة.

كرس جيش الاحتلال هذا اليوم لمداهمة أبواب العمارات الخالية، والحوانيت المغلقة، وأبواب البيوت التي يطرقونها ولا يفتح أصحابها، انهم يطاردون المطلوبين من قوات الأمن، وأعضاء التنظيم والشرطة وكوادر الفصائل الوطنية والإسلامية.

كل من يجدونه وراء باب أو داخل حانوت، يمطرونه بالرصاص ويعدمونه على الفور.

وصلتنا أخبار مرعبة عن مجازر هنا وهناك، وعن أناس يختبئون داخل حوانيتهم ينتظرون بخوف وهلع مصيرهم.

خفت المقاومة، ولم يبق إلا القليل من الرصاص في جعب المقاومين، ومع ذلك كانت جمرة المقاومة تتقد وتندلع فجأة في بعض المواقع.

دخل الجنود هذا الصباح عمارة في شارع المنارة، طوقوا العمارة من كل الاتجاهات، وبدأوا بحملة تفتيش في الطوابق.. اقتحموا الطابق الأول والثاني، حيث أن معظم الشقق يشغلها رجال أعمال، أو أطباء، أو محامون.

في الطابق الثالث مكتب «فدا»، أحد فصائل منظمة التحرير..

لم يكن هناك من احد.

في المكتب المجاور، كان ثلاثة شبان يكمنون، وكانوا مسلحين ببنادق خفيفة..

الثلاثة هم علي أبو حسين وهشام واحمد غنايم، من كوادر منظمة «فدا».

كانوا قد قاوموا طوال الأيام الماضية، تمترسوا وراء النوافذ، وأطلقوا الرصاص على جنود الاحتلال وانتقلوا من موقع إلى آخر. وعندما اشتد الحصار، وجدوا شقة مقابلة لمكتبهم، اعتقدوا أن أحدا لن يقترب منها فمكثوا فيها.

لكن جنود الاحتلال جاءوا، فجروا الباب، ودخل واحد منهم، انقض عليه علي أبو حسين، وامسك به من رقبته، وصوّب نحوه السلاح، وضغط على الزناد، وللأسف،

لم يكن هناك ذخيرة داخل البندقية. لقد نفد الرصاص دون أن يشعر علي أبو حسين بنفاده.

الجندي الإسرائيلي انهار وخارت قواه، لعله فوجئ، فلم يستطع حتى أن يستعمل بندقيته.

عاجله علي أبو حسين بلكمة طرحته أرضاً خارج الباب، وعند ذلك صعد المزيد من الجنود وهم يطلقون النار.

هشام قفز إلى المدخل، وأطلق النار على الجنود، أصيب عدد منهم، فتراجعوا وحملوا جرحاهم وخرجوا من العمارة..

علي أبو حسين وهشام قررا ملاحقة الجنود، وبقي احمد غنايم وراء النافذة لحمايتهم، فتشوا في جعبهم عما تبقى من الذخيرة، هيأوا أنفسهم، هبط علي أبو حسين الدرج بصعوبة، لان ساقه اليمنى بترت منذ زمن طويل عندما أصيب في عملية عسكرية (ركبوا له مكانها ساقا اصطناعية)، ساعده هشام على الهبوط، وأمام مدخل العمارة جرت معركة عنيفة، أصيب وقتل فيها ثمانية من الاسرائيليين، وأصيب علي أبو حسين في كل انحاء جسمه، وسقط شهيداً. اما هشام، الذي أصيب بدوره، فقد حاول أن يصل إلى مكان آمن، وفيما هو يركض عبر الشارع، أطلق قناص إسرائيلي النار عليه وأصابه في رأسه، فسقط شهيدا أيضاً.

بقي احمد غنايم في الطابق الثالث وراء النافذة، فرغت بندقيته، ولم يعد لديه ما يمكن فعله، وسمع أصوات أحذية الجنود وهم يصعدون نحوه.. وكان يعرف أن مصيره سيكون الموت.

لذلك قرر ان يقفز من الطابق الثالث إلى الشارع الخلفي لعله ينجو، لعله يجد طريقا للهرب.

فتح النافذة، والقى بنفسه من الطابق الثالث مدفوعاً بغريزة الصراع من اجل البقاء.

سقط على ساقيه، وارتطم جسمه بالأرض، وحين هم بالوقوف لم يستطع، لقد أصيب بكسور شتى في ساقيه وحوضه، وظل ملقى على الأرض.

في تلك اللحظة، هرع إليه عدد من المتطوعين الاوروبيين الذين ينضوون تحت لواء الحملة الشعبية الدولية لحماية الشعب الفلسطيني، وفي مقدمتهم، كانت المناضلة الشجاعة «لويزا» عضو البرلمان الاوروبي. اقتربوا منه، وحاولوا طمأنته، واجروا اتصالا مع الصليب الاحمر والإغاثة الطبية.

بعد وقت قصير، وصلت سيارة الإغاثة الطبية، لكن مجنزرة إسرائيلية وصلت في الوقت

نفسه.

جاء الإسرائيليون لاعتقاله، ومنعوا سيارة الإغاثة الطبية من العمل، بل واطلقوا عليها الرصاص.

المناضلة الشجاعة «لويزا» تقدمت من قائد الدورية الإسرائيلية وقالت له: أنا أعرف هذا الشاب، لقد اعتقلتموه حيًا، وإذا قتلتموه سوف نرفع عليكم قضية.

نقل الإسرائيليون احمد غنام إلى مستشفى «هداسا» (العيسوية)، ثم إلى معتقل «عوفر»، ثم إلى مستشفى «هداسا عين كارم»، وأمام ضغط المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، تم الإفراج عنه، وهو في حالة صحية رديئة، فأُدخل إلى غرفة العناية في مستشفى «زايد» برام الله.

اعلن دكتور موسى أبو حميد، مدير المستشفيات في الضفة الغربية، ان غرفة التبريد التي يحتفظ بها بجثث الشهداء قد غصت، ولم يعد هناك متسع لمزيد من الجثث.

كانت القوات الإسرائيلية تطوق مستشفى رام الله ومستشفى «زايد» القريب منه، بالدبابات، وقد تحرش جنود الاحتلال بالطواقم الطبية، وحاولوا أكثر من مرة دخول المستشفيين بحجة وجود مطلوبين، غير ان وجود المتطوعين الاجانب في حملة الحماية الشعبية الدولية قد حال دون ذلك.

جثث الشهداء في بعض الشوارع بقيت ملقاة على الطريق، تحللت، وبدأت تتعفن وتطلق الروائح..

لم تجد من يلتقطها او ينقلها إلى المستشفى بسبب فرض نظام حظر التجول، وبسبب منع سيارات الإسعاف من الوصول إليها.

الجثث التي تمكنت سيارات الإسعاف من وصولها، نقلت إلى مستشفى رام الله. إلى غرفة التبريد الوحيدة في المدينة وصل عدد الجثث في البرادات إلى خمس وعشرين جثة، وكان لا بد من إخلائها، لاستقبال جثث أخرى.

كنت اجلس مع عزام الاحمد، وزير الاشغال العامة، عندما إتصل به د. منذر الشريف، وكيل وزارة الصحة، وأخبره أنهم قرروا دفن جثامين الشهداء في مقبرة جماعية، في ساحة مجاورة لمستشفى «زايد»، وأنهم بحاجة إلى جرافة من اجل حفر ذلك القبر الجماعي.

عزام سارع إلى الإتصال بطوارئ وزارة الاشغال واعطى تعليماته لإرسال جرافة على جناح السرعة. لا ادري كيف تم التنسيق لوصول الجرافة، وكيف تمكن سائقها من

الوصول، لكنه وصل بطريقة او بأخرى.

تذكرت جرّافة وزارة الأشغال عندما شاركت معنا قبل عام تقريباً، عندما نظمنا مسيرة جماهيرية بالتعاون مع جامعة بير زيت، لفتح طريق رام الله بير زيت، وبالتحديد عند حاجز سردا.

لقد اشتبكنا يومها مع جنود الحاجز الإسرائيلي الذين اطلقوا علينا العيارات النارية والمطاطية وقنابل الغاز.. وأمام اندفاعة المسيرة ومعظم المشاركين بها كانوا من الطلبة والمثقفين وأساتذة الجامعة والشخصيات الاجتماعية، إضطر جنود الاحتلال إلى إخلاء الحاجز، والتراجع إلى التلال. يومها شاركت جرافة وزارة الأشغال في إزالة السواتر الترابية التي كانت تسد الشارع..

كانت الجرافة وسائقها ينتظران خلفنا وقيل لي إن سائقها إنتابه الخوف والهلع في أول الامر وهو يرى الجرحى ينقلون إلى سيارات الإسعاف، ولعله كان يخشى من ان يصب الجنود نيران رشاشاتهم على جرافته.. كان خائفاً، ويتصبب العرق من جبينه..

لاحظت فتاة شابة تقف بالقرب من الجرافة ان السائق متردد، فقررت أن تشجعه.. صعدت إلى الجرافة، وجلست قربه، وأخرجت منديلها ومسحت حبّات العرق عن جبينه، وقالت: لا تخف، سابقى إلى جانبك.

لقد اعادت له الثقة، بل وانبعثت في أعماقه قوة مفاجئة. فاندفع بجرافته سريعاً وسط الهتاف والتهليل والزغاريد والأعلام، ولم يعبأ بالرصاص وقنابل الغاز، وأزال بكل ثقة واقتدار السواتر الترابية.

يومها أطلقت على الجرافة إسم زرافة وزارة الاشغال.

تذكرت ذلك الحادث عندما علمت بوصول الجرافة إلى ساحة المستشفى لاداء مهمة إنسانية، مهمة دفن الشهداء في مقبرة جماعية.

لقد دفنوا هناك، بين أشجار السرو الباسقة، دفنوا دون أن يودعهم الاهل، ودون ان تقام لهم جنازات لائقة..

دفنوا خفية، ذات ظهيرة حزينة، أخرجوا من صقيع غرفة التبريد، واحتضنتهم الأرض الدافئة، الأرض الطيبة، وناموا في أعماقها مثلما تنام بذور الزهور البرية، ومثلما تنام حبّات القمح تحت تراب المروج.

في الوقت الذي كانت فيه فرق الإعدام الإسرائيلية تجوب الشوارع والطرقات، كان الفنان التشكيلي والنحات جواد إبراهيم يعبّر عن التداعيات التي تتفاعل في أعماقه

بتحويل حجر كبير إلى تكوين فني.

خرج، رغم منع التجول، يبحث عن حجر في الحقول المجاورة التي تحاذي العمارة التي يسكن فيها، والتي تطل على طريق سردا وتلال بير زيت.. كيف عثر على الحجر الكبير أو الصخرة الصغيرة، ومن حمله معه إلى الساحة الخلفية للعمارة.. لا ادري، لكن الحجر أصبح بين يديه. لقد تعرّض جواد إبراهيم قبل عامين إلى ذبحة صدرية، نجا منها بأعجوبة. وها هو يعصى أوامر الطبيب بعدم رفع الأشياء الثقيلة، وعدم تعريض نفسه للإجهاد.

لقد أحسّ بان العمل يطرد التوتر، ويمنع تصلب الشرايين.

حوّل الساحة الصغيرة إلى ورشة، وبدأ يعمل بالإزميل وبالادوات الأخرى المتاحة، وكان أطفاله حوله يراقبون ويحبسون الانفاس كلما جاء هدير الدبابة.

كان حجراً رائعاً، قال لي جواد إبراهيم، تسكنه نار كامنة في أعماقه. وسرعان ما انعقدت صداقة حميمة ما بين الفنان والحجر، وبدأ العمل بليونة وهدوء، ثم بمشقة وتعب، وفي آخر النهار كان قد أنهى المرحلة الأولى من العمل.

قبل أن يعود جواد إلى المنزل فكّر في مصير التمثال. ففي الليل تزداد حركة الدوريات، وتقوم الدبابات أحيانًا بهدم الأسوار، وتأكل جنازيرها كل ما تصادفه أمامها من أشياء. خشي على تمثاله، فقرر أن يحفر له حفرة ويدفنه فيها حتى الصباح.

بعد أن تمت عملية الدفن، انتاب جواد حزن عميق. فهذا الحجر أصبح بالنسبة له كائن حي، وكانت صورة التمثال واضحة في بصيرته، وللعمل الفني دائماً حياته الداخلية، وربما خطر له أن يزيح عنه التراب، ويخرجه إلى الحياة، لكن الهواجس ظلت ترفرف حوله. وكم كان صعباً على الفنان أن يحسم أمره، لكنه في نهاية المطاف ترك التمثال في الحفرة، وعاد إلى منزله.

هل نام تلك الليلة؟

هل غابت صورة التمثال عن مخيلته؟

لعلّه تحت تأثير التعب والإرهاق، نام نوماً عميقاً في آخر الليل.

لكنه استيقظ في الصباح، وقبل أن يغسل وجهه، هبط الدرجات سريعاً، وذهب إلى ضريح التمثال.

أزاح عنه التراب وأخرجه وعمل على تنظيفه مما علق به، ولم يهدأ إلا بعد أن عاد للتمثال لونه الأبيض.. ثم واصل العمل.

في المساء، قبل أن تغيب الشمس بقليل، جلست في الشرفة. الهدوء يملأ الوادي

الكبير وهدير الدبابات على شارع الطيرة يثير الجلبة والضوضاء.

إنتبهت فجأة إلى أن زهرة بنفسجية تطل برأسها في حوض النباتات الذي يجاور الشرفة. زهرة صغيرة. تزهو ببنفسجها، وحولها براعم غافية تعد بالتفتُّح في صباح قادم.

ها هو فصل الربيع يطل على رؤوس أصابعه، يأتي على الرغم من أنف شارون، ولا يعبأ بأوامر منع التجول.

ها هو ربيع فلسطين يقبل من وراء الضباب والدخان والحريق، دون أن يحتفي به. لذلك قمت وفتحت نوافذ المنزل جميعها. إستغرب كل من في البيت هذا العمل، فقلت لهم: لنستقبل الربيع وهواءه.

تناولنا وجبة محسّنة من المعلّبات، وأضفت زوجتي على المائدة شيئًا من التجديد، من خلال بعض المقبّلات المتبقية، من زيتون ومخلل وشطة حارة وخردل ودقة ثوم بالليمون. أكلنا قبل أن تسد شهيتنا نشرة أخبار الكوارث. وبعدها جلست مع أفراد العائلة لتناول القهوة.. ثم مضى كل إلى شأنه.. زوجتي انشغلت في ترتيب المكتبة، وهيثم انشغل بالكمبيوتر وشبكة الإنترنت، وهالة انهمكت في شغل الإبرة والتطريز.

بعد الحادية عشرة بقليل، اندلعت الصواعق فجأة، قامت القيامة، وملأت طائرات الاپاتشي محيط منطقة سكننا. لقد بدأ الهجوم على مقر «الأمن الوقائي».

بعد منتصف الليل تصاعدت وتيرة الهجوم، وبدأت الفضائيات تنقل الحدث في بث مباشر.

تواصل القصف حتى ساعة متأخرة من الليل، وظللنا نراقب من النافذة سقوط القذائف واندلاع اللهب والحريق. فمباني «الأمن الوقائي» لا تبعد عن بيتنا أكثر من كيلو متر هوائي. وقد انضم إلينا الصديق عزام الأحمد الساعة الثانية صباحًا، إذ لم يستطع أن يرى المشهد من نوافذ منزله الكائن في الطابق الأول.

وبقينا نتابع ما يجري حتى السادسة صباحًا.

روائي فلسطيني مقيم في رام الله/ فلسطين

شـعـر»

طه محمد علي

ليتَ لي مثل قُدرتكَ على التحكُّم في البكاء!

أيها الطفل الذي أمّه
منعته ما في يدها في الطريق،
فبكى.
وحالما أعطته أمّه ما في يدها،
كفّ عن البكاء.

أنت الذي تؤم البكاء
حين تُريد،
وتخرج من بكائك
كما تشاء
ليت لي مثل قدرتك
في التحكُّم في البكاء.

أنا، يا طفل تلقائية
البكاء،
بُكائي يَسْكُنُني،
يدهمني في ليلي
وعليَّ يُطبق في النهار .
يطرقني في حلمي
وأعجزُ عن التخلص منه
بعد أن أستيقظ .
فيا طفل نقاء التلقائية :
ليت لي مثل قدرتك
على التحكم في البكاء!

(العطلة، ١٧ أيار ٢٠٠٢)

شاعر فلسطيني مقيم في الناصرة

شجاعة الميتين

(١)
ذات قصيدة
سال شاعر ميت :
من سيسمم قصائدي؟
من سيقتلع شجري؟
من سيحرق أرضي؟
من غيري؟
ومن سواي؟

(٢)
ذات قصيدة
أجاب شاعر ميت :
إذا مات الشاعر ولم تمت كلماته
عاقبوه
إفتحوا كتابه عليه واقرأوه
أيقظوا دمعه وقضوا صوته
أخرجوه من الا شعار وعذبوه
ألف مرة منها وإليها أدخلوه
فالكتاب قبر
والقصائد تابوت
سيظل فيهما يحيا
وسيظل فيهما يموت

(٣)
هل أنا ميت الآن؟
هل ثمة من يمنحني خمس دقائق صمت
قبل أن يعاود القراءة وقتلي
وقبل أن تذكره كلماتي بالخريف
أو بشاعر ميت آخر

(٤)
ذات قصيدة
قال شاعر سيموت:
كلام الشعراء سيموت على مهله
وحده
ولن يأكل منه أحد
أرض الشعراء ستبور على مهلها
وحدها
ولن يضيع فيها أحد
وحدهم
الشعراء يغتالون الشعر بسرعة
بلا ليل مناسب وبلا رحمة
وحدهم
لا تواتيهم مرايا الآخرين
ولا يقرأون لغيرهم

(٥)
ذات قصيدة
إلتقى الشعراء الميتون
بالشاعر الذي سيموت
وكتبوا قصيدة مشتركة عن العتمة

و« هاملت » الذي يحلم بالسفر إلى نيويورك
عن نزاعات الجيران ومشاكل الفلاحين
والموتى الذين يصرون على البقاء ميتين
وعن الشعر والشعراء والكتابة
ثم اقتتلوا
وغلبت الكثرة الشجاعة .

قلبي إكليلي

هذا المدى غيابي
والدم ترابي
جسدي هذا قبري
وقلبي إكليل على صدري

شاعر فلسطيني مقيم في أم الفحم

خـالـد جـمـعـة

الليلُ

(إلى رام الله)

كفُّ العاشقِ تحترسُ من العاشقِ حينَ ينامُ، والليلُ، لُحْنةٌ كالياقوتِ من فم الساعاتِ وهي تقطرُ دقائقها على رأسٍ متعبٍ كاللهاثْ.

الليلُ، مرّرهُ على مهلٍ كلما استطعت ان تحيا في هذا الملل، قف حدّهُ وانسفْهُ من قمرهِ إن أسعفكَ الصبحُ قليلاً، شوّش اللغة حين تسأمُ من شعاراتها الصغيرة، الكلُّ متهمٌ، وأنتَ من بينهم.

الليلُ مجزرةٌ ولكنها في صمتٍ تمرُّ، فيما كأسُ الشاي في صمتٍ تبردُ كذلك، تعيدُ الناي إلى خزانته الحديدية كي لا تراهُ فتسقطَ في رغبة العزفِ، والذي ينتظركَ عند الباب لا تعرفُهُ.

الليلُ، يخافكَ مثلما تخافُ من نفسك، لكنه يخاف الشبحَ الساكنَ في الصبحِ كي لا يعرّفَ عتمتهُ، الساعةُ تنسابُ مثل كرةٍ على سفحٍ مبلّلٍ، وجريحانِ في آخر الممرّ يشتمان الليلَ، والليلُ يضحكُ، لكنه ما زال خائفاً.

الليلُ حيرةُ التاريخِ، لا يعرفُ وقتهُ إلا نسبةً إلى اسم الضوءِ الذاهبِ أو الآتي، الذين يسهرون يزعجون الليلَ والآخرين، هل الليلُ والآخرون أصحابٌ دائمون؟

الليلُ قدرةُ الرؤيا حين تختفي التفاصيلُ، والتفاصيلُ عدوّةُ الليل، لانها عدوّةُ الرؤيا، هل الرؤيا والليلُ أصحابٌ دائمون؟

الليلُ آخرُ الدنيا واولُها، يختفي فيه الاصدقاءُ والاعداءُ، الحليبُ كما الاعداءُ، في الليل اسودُ كذلك.

الليلُ فرصةُ الخائنِ، يرشدُنا إلى صباحِ الأخبار الاخيرة، وعندما تقومُ الشمسُ من سريرها، يصبحُ الليلُ مثل ساحة المدينة، مكشوفاً على آخره.

الليلُ إضرابُ الأذانِ عن مسجدِه، وجهٌ دون ملمحٍ أخيرٍ ينقّبُ عن مناضلين بين الشقوقِ، إحذرْ كهرباءَ الشوارعِ، إنها لا تُجيدُ التغطية.

الليلُ يصاحبُ الجرائدَ، الإذاعات، الشخصياتِ، النملَ، البكاءَ المخنوقَ، الأفرانَ التي أفرغتها الطوابيرُ، الحلوقَ الجافة، النسيانَ المؤقتَ، أجهزةَ الهاتفِ، شتّمَ الزعاماتِ، خللَ المدفأةِ.. والشهيدُ ما زال شهيداً.

الليلُ سعارُ الخطيئة بين العدوّ والعدوّ، له جدرانٌ أوسعُ من كفنِ النهارِ، لكنه يسيرُ مبهماً حالكاً ومستبداً كأي طاغيةٍ يثقُ في قدرتِه، أشتقُّ من صلصاله نفساً، فيحدّقُ في بلاهتي ويستمرُّ.

الليلُ امرأةٌ حزينةٌ خيّبَ رجلُها الظنَّ.. وماتَ.

شاعر فلسطيني من رفح مقيم في غزة/ فلسطين

عثمان حسين

الغوث . . الغوث . .

الدعاء الأول

صعبة إليك الطريق يا إلهي
لن تصلك رسائل هذا المساء
لذلك
لن ترفعَ البرد
ولن تأمرَ الجند بالرّحيل
لن تلبسَ كابك الأزرق حين تعبر المخيم
وهذا المساء لن تنادي:
الغوثَ الغوثَ
خلصنا من النار يا ربُّ.

الدعاء الثاني

. . لكنه الموتُ
يركض حاملا عجزه، غيرُ آبه بي
ـ هل الموت من حكمة الحرب أيضا؟
لم أشتر سترة في طريقي إليه
والنار تأكل روحها وقشعريرة البرد
تحرق سريرنا صدفة
هي الآن تأكل فكرةً بيضاءَ
الآن تأكل فكرةً:

(الغوثَ الغوثَ)
يجيءُ الموتُ كفراشةٍ جائعة
إلى هنا
ويمضي حاملاً خيباته
يُفضي إلى الليل :
بعد قليل فقط سيهرب النائمون
وينسون أطفالهم
ستصرخ يا الهي من بعيد :
– أين ستهربون ؟
وبعد قليل ستسقط إلهًا رشيقًا
تدفع منديلاً أبيض في وجه البركان
وندعو سويةً :
الغوث الغوث
خلصنا من النار يا رب .

الدعاء الثالث

اللحظة تعبر الوقت
واللاشيء وحده يدفع بي إلى تخوم القلق
ومن أتون اللحظة الحرون
تطايرت أشلاء عابرة
العتمة وشظايا الوقت ملأت مطبًا غويطًا
يا الله ما أطول صبرك
أراك تبدو عاجزًا، إلهًا يقتلك السياق
وتذرف المحبة والضجر
ردد معي :
الغوث الغوث
خلصنا من النار يا رب .

الدعاء الرابع

سيذهبون. وبعد مرور غيمة سيفهمون حاجتي
قبل سقوط المطر
ستسكب الريح نصيب ليلة وضحاها
وبيديك القاسيتين
ستغسل ناري العذبة وتهذّب لونها
وتترك الغيمة تمرُّ مدركة أنوثة الحياة
كم كنت بليغًا أيهذا الإله
تقول التفاصيل والمشهد المحتمل
ألا تسمع الحرب وخوفي عليك وبعضًا
من ضياع مبعثر؟
نقّضتني من فضائك المجبول بالخدر
لم أتوسل الرحمة لحظة طللتَ هازئًا من عتمتي
أيتها الغيمة انتظري
بولي
كما
تشائين
لن انتظر فحولة الموت
سادعو وحيدًا:
الغوث الغوث
خلصنا من النار يا رب.

شاعر فلسطيني مقيم في رفح/ فلسطين

لُغَةٌ أُمّ

لُغَتِي الَّتِي خَبَّأتُها
فِي هَوْدَجٍ يَطْفُو عَلَى
عَرَقِ الرِّحَالْ،

لُغَتِي الَّتِي وَهَبَتْ
شَظَايَا اللَّيْلِ لِلطَّيْرِ الَّذِي
انْكَرَ الهِلالْ،

لُغَتِي الَّتِي دَوَّنْتُها
مِنْ غَيْرِ حِبْرٍ
فِي الرِّمَالْ،

لُغَتِي الَّتِي ارْتَدَّتْ إِلَيَّ
كَوَقْعِ خَطْوٍ
فَوْقَ آلْ،

لُغَتِي الَّتِي،
فِي حِلْمِهَا، وَسِعَتْ
خَطَايَا عَاشِقٍ،

لُغتي الَّتي ذَرَفَتْ
كَلامًا دارِسًا
مِنْ خافِقي،

لُغتي الَّتي نَثَرَتْ
نُجومًا مِثْلَ دمْعِ
الشّارِقِ،

لُغتي الَّتي
حَمَلَتْ مَكاني
واسْتَقَلَّتْ عاتِقي،

لُغتي الَّتي رَحَلَتْ
مُحمَّلَةً سَلامًا
مُؤْتَمَنْ،

لُغتي الَّتي خَفَقَتْ
جَناحًا
في البَدَنْ،

لُغتي الَّتي اخْتَبَأَتْ
كَرُوحٍ
في الوَسَنْ،

لُغَتِي الَّتِي خَطَّتْ
عَلَى
كَفَّي زَمَنْ،

لُغَتِي الَّتِي اتَّقَدَتْ
جَفَانًا فَوْقَ نَارِي،
إِذْ نَبَحْ،

لُغَتِي الَّتِي
تَحْكِي حَدِيثَ الرُّوحِ،
إِنْ قَلْبِي سَمَحْ،

لُغَتِي الَّتِي تَنْسَابُ
مِثْلَ الدَّمْعِ،
لَكِنْ مِنْ فَرَحْ،

لُغَتِي الَّتِي
لَوْ تَسْأَلُونِي عَنْ هَوَاهَا
لَمْ أَبُحْ،

لُغَتِي الَّتِي
نَسَمَتْ
عَلَى طَرَفِ الرِّيَاحِ،

لُغَتِي الَّتِي
اقْتَسَمَتْ رَغِيفِي
وَالنُّوَاحْ،

لُغَتِي الَّتِي
رَسَمَتْ
شِفَاهًا لِلصَّبَاحْ،

لُغَتِي الَّتِي
وَسَمَتْ غَزَالِي
حِينَ لَاحْ،

لُغَتِي الَّتِي صَهَلَتْ
خُيُولًا
فِي الغَمَامْ،

لُغَتِي الَّتِي عَصِيَتْ
عَلَى الأَفْهَامْ،
إِذْ نَاحَ الحَمَامْ،

لُغَتِي الَّتِي لَحِقَتْ
فُؤَادِي
حَيْثُ هَامْ،

لِغُنَي الَّتي تَحْمي
جُرُوحي
في المَنامْ،

لِغُنَي الَّتي حَسِبَتْ
كَلامَ الشِّعْرِ
مَيْنْ،

لِغُنَي الَّتي
صَفَنَتْ
مُكَتَّفَةَ اليَدَيْنْ،

لِغُنَي الَّتي كَبُرَتْ
فَعَقَّتْ
والِدَيْنْ،

لِغُنَي الَّتي نَبَعَتْ
كَبَحْرٍ أَخْضَرَ
في خَصْرِ عَيْنْ،

لِغُنَي الَّتي
رَخُصَتْ
بِرَحْمِ العاصِفَةْ،

لُغتي الَّتي
قَلَصَتْ
فَعادتْ وارِفَة،

لُغتي الَّتي
رَقَصَتْ
كَرُوحي النّازِفَة،

لُغتي الَّتي ارْتَحلَتْ
وآبَتْ
في كَفَنْ،

لُغتي – وطَنْ.

(القدس، آذار ٢٠٠٢)

شاعر فلسطيني من المغار ومقيم في القدس

حسين مهنا

تضيقُ الخيمةُ .. يتَّسعُ القلب

صباحُ فلسطينَ طلٌّ وفُلٌّ
ووجهُ الحبيبِ بهيًّا أنيساً يُطلُّ
وشوقٌ الى حبِّنا للحياةِ على هذهِ الأرضِ –
رغمَ عيونِ الغزاة –
فما منْ مكانٍ أحبُّ
وما منْ تُرابٍ أجلُّ
صباحُ فلسطينَ طلٌّ وفُلٌّ
وضوءٌ على شرفاتِ البيوتِ ينوسُ
وصوتُ أذانٍ ينثُّ رذاذاً على القلبِ
والقلبُ، وجداً، ينادي:
– يبوسُ .. يبوسُ
ويُلقي سلاماً على الأرضِ ..
ما منْ دماءٍ تُطلُّ
وما منْ سيوفٍ تُسَلُّ
فهذي بلادٌ حباها الإلهُ بصوتِ الأذانِ
وأجراسِ ديرٍ
وحبٌّ كبيرٌ كبيرٌ كبيرٌ ..
وكُلُّ القبائلِ أهلُ.
وهذي بلادُ اليمامِ الحزينِ
ونعلمُ علْمَ اليقينِ
بأنْ سوف تُشرقُ شمسٌ
بدونِ اليمامِ الحزينِ

وتعلمُ أنَّ الغُزاةَ يمُرّونَ مثلَ الدُّخانِ
ولا يتركون على ناصياتِ الدُّروبِ
سوى أنّهم فاتحونَ
ونبقى . .
ليبقى لنا نايُ راعٍ فقيرٍ

يُسرِّحُ كُلَّ صباحٍ قطيعاً وديعاً
بجوبُ البلادَ
ففي كُلِّ وادٍ لهُ أغنياتٌ
وفي كُلِّ منفحٍ له ما يَدُلُّ
إذا قيل : مَنْ سيِّدُ الأرضِ ؟
قال : أنا ذا هُنا
ويشهدُ سهلٌ ويشهدُ تلٌّ
ونبقى . .
لنسألَ كُلَّ الطّواغيتِ
كيف الوصولُ الى فرحٍ يقهرُ الموتَ
والفاتحينَ
سؤالٌ هزيلٌ وقد يحملُ الرّدُّ
حين تنوبُ الجراحُ عن القولِ . .
لا . . لا مَفرَّ !!
هو الموتُ أو يَطلُعَ الفجرُ
من فوهةِ الجُرحِ كيما نظلُّ
حديثَ الغُزاةِ الثّقيلَ
ونبقى . .
لنغرسَ جيلاً جديداً
هو المستحيلُ
ونخلاً جديداً على مفرقِ الدّربِ
كي نستظلُّ

وكي يستظلَّ الغُزاةُ
إذا ما استعادوا مرايا الطُّفولة
قبلَ فواتِ الأوانِ
فنقرأُ سِفرَ أشعياءَ عن ظهرِ قلبٍ
فلا الحُبُّ يشقى
ولا الظُّلمُ يبقى
ويبقى نشيدٌ جديدٌ
ونايٌ فريدٌ
لتسعدَ أمٌّ ويفرحَ طفلٌ
ونبقى ..
ليبقى لنا شيخُنا حارساً للدّيارِ
وطفلٌ يَدِبُّ على قدمينِ
تمُضّانِ نُسغَ الكفاحِ من الدَّربِ
والدَّربُ يورِثُ مثلَ انتصارِ الشّعوبِ
فيبزُغُ طِفلٌ ويأفُلُ كهلُ
ونبقى ..
كما كُلُّ يومٍ
نُعِدُّ لنا قهوةً في انتظارِ الصّباحِ
بهيّاً كوجهِ الحبيبِ البهيِّ يُطِلُّ
صباحُ فلسطينَ طلٌّ وفُلُّ
وصوتُ أذانٍ
وأجراسُ دير
وحبٌّ كبيرٌ كهذي الحياة
يحاصِرُ كُلَّ الغُزاة
فهل من صباحٍ أجلُّ ؟!

(١٥/٤/٢٠٠٢)

شاعر فلسطيني مقيم في البقيعة

محمد حمزة غنايم

تجريب في محاورة «عائد»

بين احتراق ضفّةٍ وأخرى
طويتُ زمنًا – بعدَ خراب «البصرات» – صار زمنكَ!
وقلت: ما تغيّرنا،
فقط بدأنا رحلة الحضورِ غائبينْ
فوقَ دروبِ وطنٍ مُغيّبٍ
وأسطحٍ سالبةٍ وسائبة،
فسقطت أقنعةُ الكلام في عواهنهِ
وضاعت المعاني كلُّها
وطالت الطريق.

هجرت زمنًا برأنا من إثمنا القديم
ووطنًا حاصرَنا
وقلتَ لي: أعيدُ لي مملكتي، ولغتي
وأربي وعربي
ووتري الشجيَّ في الصحراء
من بعدي.

وقلتُ: ما نأيتُ عن سربي،
فقط
وجدتُ ربوة
– حدا ربوع الأهل –
في قيلولتي
فضيّعتني لهفةُ النُّوتيّ في لُججه للصبح
لكني وجدت، فيما يجد النائم في صحوته،
أن المدى غرقٌ..
وكنتُ ما ارتويتُ بعدُ من أغنية النوتيّ للمحيط!

رأيتني طفتُ على سطح من العطر
وقلتُ: نرجسًا يأتي إلى ربوته
عندي
ويسبيني غزال،

وقد أتيت مسبيًا بمسّ ضَوع المسك،
قبل أن تثقل أجفاني شظايا النوم في الملح
ويهفو زورقي إلى مَعارج التيه وأطراف الخيال.

(أبسط ما في الكون:
شاعرٌ مهاجرٌ إلى جنوب الشعر
من غير عتاب
وسلامٌ جارحٌ في وطنٍ
بلا نصاب!)

.. وهكذا – يا صاحبي – رأيتني أعبرُ،
عائدًا، وحدي،
منتكسا، وشباكي خفيض
وأنت واقف قبالتي وحدك
«آه يا وحدك» ..
.. يا ما أخسرك!

– هل أخسرك؟
– قد أخسرك!

(تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١)

شاعر فلسطيني مقيم في باقة الغربية

وســـام م. جـــبـــران

حين يفقد البحرُ ذاكرةَ الموج

(استقراءٌ لمستقبل لا يجيء)

أنهضُ مع الموج ولا أنامْ.
تهشّمت رفوفُ الذاكرة وتشوّش الهديل. الطريقُ تسبحُ داخلي فأغرق في الآتي وينشلُ حمامْ.

مجمرتي بيتي ولا أحترق. هل يحترقُ من لا ينطفئ أو يحاور اللهيبُ خطوطَ كفّه في المنام؟

في العيون جبلٌ والجنين أعمى. انكشفَ البيضُ. ارْوَضُ انقرضُ.. لا عيون إلاّ صمتُ العيون.
إغماضتي حصني. وأنامْ.

لا ذاكرة للموج فلا يعودُ. البحر مكانه. بعد هياج البحرُ مكانه والشاطئ يضحك رغم تقشُّر الجروح.

أغنيتي ومضةٌ في العين فلا صوتْ. يفقسُ الصّراخُ بوصوصُ الموتْ. في اللغة إنزيمٌ يشبه الطّبلَ.
أضعُ صباحي فوق جمر صمتي وأشربُ قهوة العمرْ. أحكي قصّتي للرائحة. انتزعُ جلدي. أخبئ هذا العصرَ في انتظار ذاك العصرْ.
وأطوي بقايا روحي. ألقها حول الخصْر. أمشي بلا حراك أو ذاكرة كالموج ينقلُ هذا الفجر الى ذاك الفجرْ. أغلقُ أبوابي وشبابيكي. أقطع رأسي. ابتلعهْ. أخرجُ الى الشوارع منتصراً. يؤيّدني نزيفي والنّهرْ.

أضرّجُ عينيّ بالصّمت وأبتلع قاموسَ أمّي . أغتصبُ ولادتي كي لا أموتَ،
أو أتأسطرُ في بطن حوتٌ. أغرسُ أدران ذاكرتي في حوض الآتي.
أستنهضها في تابوتٌ. كيف لا أستصرخُ الصّمتَ وحنجرتي بوّابةٌ
لطائرات تُخصي، من عليائها، حلمَ عنكبوتٌ.
لا لن يموتَ « هو » و« أنا » لن أموتَ. أيذوبُ ذاك الجليدُ أو يصبحُ وطنا دافئاً
لذاك الحوتٌ؟

الموجُ بريدُ البحر. الشطآن عنوانه الوحيد. الأفقُ رسائله. أعشق المشّيَ
على الرّمال أستقرئ الآتي.
حين يفقد البحرُ ذاكرة الموج. حين يستخرج النّعامُ عبرة التّورْ. حين
تقضم أظافرَ الأرض شمسٌ تدورْ.. أنهضُ. توشوشني الصّحوةُ: الخوفُ
نهرٌ قطع رأسه بيده اليُمنى وأسلمه لليسرى فصار بحراً يقشرُ دماملَ
الصّخورْ.
حين الضّجرُ أنجبَ الحضارة، همس الخوفُ في أذني: أعلّمها كيف
تختلْ. أعلّمها كيف تثورْ!

(الناصرة، ١٠ آذار ٢٠٠٢)

شاعر وموسيقي فلسطيني مقيم في الناصرة

نـــوري الجـــراح

إذا جئتِ ولمْ أكن

إذا جئتِ ولم أكنْ،
اتركي الباب مواربًا
الأريكةُ تشربُ الضَّوءَ، والبرودةُ مشبعةٌ بالصَّمت
النهرُ يرسلُ الكوكبَ، والوحشةُ تطوفُ به.

إذا جئتِ ولم أكنْ
اتركي الباب، اتركيه مواربًا
أوراقي منهوبةٌ والليلُ يُرسلُ أجنحته.

إذا جئتِ ولم أكن
إذا جئتِ ولم أكن

الخمرةُ في الزجاجة
والرغيفُ في الصِّحاف
وفي الخلاءِ الخائف، في ما تركتِ
الصرخاتُ تحومُ على أشلاءِ الطائر، والنَّباتُ يتشقق.

لا تردّي الباب،
اتركيه
اتركي الباب مواربًا
القامةُ مواربةٌ والظلُّ مواربٌ
النافذةُ والحائطُ والمطالعُ والأنفاسُ، وكذا الخطواتُ، مواربةٌ ويتيمةٌ، في

الممرّ إلى نومكِ.

وردُتكِ في سريرٍ، ويدي ضائعةٌ في حقلٍ.
مصيري يستطلعُ.

اصعدي السلّمَ واندفعي كالمعجزة
الفراغُ يتلقاكِ
ويشهق.
اتركيه على السلّم، وعودي بالأزهار،
اظهري
وانزلي بأطباقٍ قديمة.

صورتُكِ تختطِفُ، عيني تسبقُ وتخطفُ.

إذا جئتِ ولم أكن،
إذا
جئتِ
ولم..
إذا جئتِ، ووجدتني ممددًا
كالرسالة
لم تُقرأ
كالواجبِ
لم يُنهض،
كالفجرِ يتلكأ في أنحاء معتمة،
كالحبّ، لم يؤخذ ولم يُترك؛
مرّي بيدك على أمسِ الوسادة،
إذ ذاك، رفُّ طيورٍ في زرقةٍ يُصخبُ المنزلَ،
وملائكة، بملابس مرحة، ينهضون بالمائدة.

وفي الضّاحك وراءَ الاسرارِ
انظريني
ومعي أزهارٌ يابسةٌ.

البابُ مواربٌ،
وخيالي ينسلُّ ويملأ المرقدَ، يترجّفُ وتصيرُ له هيئةٌ.

هنا، أنا هنا
وراء الفكرةِ، في غلالةِ الصُّورة
غيبُ المنزلِ، خيالُ الموعدِ، أسى الجدران.

إذا جئتِ، إذا بقي وقتٌ وجئتِ.

(فجر ١٢ أيلول ٢٠٠٠)

شاعر سوري مقيم في لندن

ياسين عدنان

بحيرة العميان

هناك قرب بحيرة العميان
حيث كنا نلتقي
نبتت زهرة سوداء.

لنكن صرحاء، فالحبّ الذي
كنا نحكي عنه في فندق «البستان»
ليس هو ما نفعله اليوم بأجسادنا
المنهكة بعد أن ينام الأطفال.

لنقل، إنها جثة الضّوء
تلك التي قطّعناها إلى مذنبات
صغيرة، وبدأنا ندفنها كما اتفق
بين شقوق الهواء.

والآن، لا تقولي إنّ بنات آوى
قد استيقظن، بعد طول رقاد،
في خلاياك. فاللّهاث
لم يكن قطّ دليلك
نحو ما لا يدرك.

ثمّ إني نسيت.

فقط اخبريني . أما زلت
تخبّئين جسدك في دولاب الملابس
وتخرجين إلى مطر الزّقاق
عارية من الأغصان؟

أما زلت تتسلّقين الهواء
نحو سطيحة النّعاس، حيث
القطط والخرائط وأشجار الشّك
تنام تحت جبّة ابن سيرين؟
أما زلت تنزّين كرذاذ مخذول
وتصمتين كقيلولة .
وكمساء ناعس تتثاءبين؟

دعي الأجراس تسقط من رنينك
لأسمع نداءك المزعوم عميقًا
واعترفي بالأجنحة،
بحشائش عزلتك
وبأسرار الفلكيّين.

لنكن واضحين ولو للحظة
فأنا أعلم ما تبطنين.
لقد رأيت شفتيه تتسلقان أغصانك،
أنفاسه تطارد الفراشات في حديقة
صدرك، وأحسست نحاسه لزجًا
بين اليافك . رأيته في منامك
كما يرى الذهب رنينه
وكرهت أن آتيك .

رغم أن الفضّة أبدًا تهزم النحاس
كرهت أن آتيك .
دعي سريرك قرب العاشرة صباحًا
وانسي أن الليل كان خلاً
دعي السرير هناك ، وارفعي
رأسك كما يليق بنخلة عطشى .

دعي الشرفة تطفح على
مناماتك الآثمة . دعي أصابعها
تزحف بين اليافك . دعيها
تدغدغ قطن أحلامك .
لكن ، إياك و الرّعشة .
فالنّهر جفّ ، ولا أحد
سيأتي من جهة الماء .

ضعي قلادة عمرك الأخيرة
على الطاولة ، وفكّري
بركض السعادة الأعمى
في المنحدرات .

أنت لم تتغيّري كثيراً .
وأنا ، ربّما ، ما زلت أهفو
لكنّ جثة ما بيننا تتعفّن
وحيدة عزلاء في الخلاء البعيد
هناك . قرب بحيرة العميان .

(مراكش / غشت (آب) ٢٠٠٠)

شاعر مغربي مقيم في مراكش / المغرب

نـصـوص»

محمود شقير

مرور خاطف

قصص قصيرة جداً

(في ذكرى اختي امينة التي رحلت قبل الأوان)

مدينة

يتحدثون عن مسرحية منتظرة .

الكاتب يقدم وعداً قاطعاً، بأن النص الذي سيكتبه ابتداء من مساء الغد، سيكون لائقاً بالمدينة التي تعرضت للكثير من الغزوات .

المنتج يتعهد بتخصيص مبلغ كاف من المال، حتى لو اضطر إلى الاستدانة من البنوك إكراماً لعيني المدينة التي أنهكها الغزو المستند إلى أحدث الأسلحة، وأقدم الأساطير .

المخرج قال إنه سيبدأ اعتباراً من هذا المساء، بالبحث عن المرأة التي سوف يسند إليها دور البطولة، قال وهو يتأمل فضاء المكان : أريدها امرأة على قدر عال من الشبق، وفي الوقت نفسه على قدر عال من التصميم على التحدي، لتكون جديرة بدور المدينة التي انتهكها الغزاة، مرة تلو أخرى على امتداد تاريخها .

غير أنها قبرت كل الغزاة، وعاشت على مر الزمان .

خوف

يهبطون إلى الوادي السحيق .

يهبطون وفي أيديهم السلال، وعلى ظهورهم المثخنة بالشقاء، بطانيات، وخرق من قماش، مربوطة على أوعية من نحاس قديم .

يهبطون، وهم يرقبون بحذر، الظلمة المحتشدة في الآفاق البعيدة .

وفي البيوت التي لن يعودوا إليها إلا بعد أشهر طويلة، ثمة نسوة، يجلسن في الصمت بعد ان أحكمن إغلاق الأبواب والشبابيك، وأحكمن سدّ المسالك المؤدية إلى فراغ القلوب

المربك الذي يكبر في ليالي وحدتهن القاسية.

مساء

تكنس القاذورات من أمام بيتها في المساء، لم يناقشها أحد لماذا لم تفعل ذلك في الصباح، ولا هي فكرت بتوضيح موقفها لأحد.

فهي صامتة على غير عادتها، والمساء الرمادي يتغلغل في ثنايا الحي، دون اكتراث لنسوة يكفيهن ما تنوء به قلوبهن من أحزان، ودون اكتراث لامرأة لم تتمكن من العودة إلى بيتها إلا قبل لحظات، فلم تكمل كنس الفسحة الترابية البائسة أمام البيت، بسبب الظلمة الفادحة التي أتى بها هذا المساء، ونشرها دون استئذان، في قلب المرأة وفوق البيوت وعلى امتداد الساحات.

غدر

المرأة في ثوبها الأسود الممتد حتى كعبيها، تقف إلى جوار الرجل ذي المعطف الرمادي، وفي الخارج تهب ريح مجنونة.

الشبابيك تهتز ويصدر عنها صفير لا ينقطع، الغيوم تتراكض في السماء، مثل شعب هارب من قذائف الحرب.

المساء يتسلل عبر النوافذ والأبواب، والرجل يقود المرأة من يدها دون كلام، في الدرب الشاحب المتروك تحت رحمة الريح.

تتبعه المرأة وهي لا تدري إلى أين يقودها، غير أنها تجد في ذلك مسرة، لم تفارقها إلا بعد أشهر، حينما عادت إلى الدرب نفسه حيث الريح التي تضرب الشبابيك، والمساء المربك، والرجل الذي بدا عند نهاية الدرب، وهو يقود امرأة أخرى تضحك في الظلمة الخفيفة، دون وجل.

تضحك كما لو أنه لن يفارقها إلى الأبد.

روائح

تلك الغابة البعيدة، تملأ الآن حيز الذاكرة. تلك الأمسية الناعمة، تأتي بكل ما فيها من احتمالات، تلك الروائح الفاغمة، تتقدم دفعة واحدة، يحملها الهواء على ظهره، متنقلاً بها من مدينة إلى أخرى، من شارع إلى آخر، إلى أن تحط على مقربة من الرجل المهموم، يتشممها باحتراس.

كان ثمة شجر وماء، ماء وبنفسج، لزوجة تأخذ بمجامع القلوب، وأنفاس متقطعة لاهثة، وامرأة تقول: لا تبتعد. غير أن الهواء – كعهده دائماً – لا يترفق بأحد ولا يحفظ السر.

وها هو ذا يأتي حاملاً على ظهره، الغابة والأمسية والروائح والأنفاس المتقطعة، ويدخل دون استئذان، فيزداد الرجل أسى فوق أساه، وهو يرقب الهواء جالساً على الكرسي، مُنتظراً أن يداهمه النعاس، فينام، أو يقدم اعتذاراً ما، ثم ينهض مبتعداً عبر النافذة، وعلى ظهره الغابة وبقية الأسرار.

حالة

مساء باهت وخواء غير قليل.

خرجت أبحث عن سبب لهذا الخواء، الذي يتكدس بين الممرات الضيقة، وفي أردية الهواء المنتشر فوق أسطح غابت عن بلادتها الرتيبة، خطوات النساء.

لم أعثر على سبب مقنع.

عدت أحمل على كتفي هشاشة تجعلني غير قادر على احتمال الصمت، وفي القلب طاحونة لها دقات يسمعها، بكل وضوح، الرعاة الذين يخيمون مع أغنامهم على رأس ذاك الجبل البعيد، فلا أعرف النوم، لاعتقادي أنني أسبب لهم إزعاجاً لم يعرفوه من قبل، وقد يتسبب في رحيلهم إلى موقع أبعد في الصباح.

(من مجموعة قصصية تحت الطبع)

كاتب فلسطيني مقيم في القدس

سلمان ناطور

ذاكرة

(سيجارة . قهوة . تمزيق ورق . كتابة . قراءة الجملة الأخيرة .
قراءة الفقرة عن الورقة)

(١)
ولدت بعد حرب ١٩٤٨ .
دخلت المدرسة يوم حرب السويس .
أنهيت الثانوية في حرب حزيران .
تزوجت في حرب أكتوبر .
ولد طفلي الاول في حرب الليطاني والثاني في حرب لبنان ومات أبي في حرب الخليج .
بعدها توقفت عن الانجاب تحسبًا لوقوع حرب جديدة مدمرة .
رهيبة هذه الحياة، رهيبة .

(٢)
(موسيقى)
(قراءة مسجلة)
خذلتني هذه الحياة، فما توقفت الحرب وما توقفنا عن الانجاب .
قبل شهور ولدت سلمى، حفيدتي الأولى، في الحرب التي ما زالت مشتعلة .
تكبر سلمى، وتكبر الحرب، ويكبر السؤال في عينيها البريئتين:
لماذا لم تفعل شيئًا كي لا أولد في هذه الحرب؟
سلمى، لا تعرف شيئا عن الحصار وعن الحواجز ولا تسمع انفجار الصواريخ ولا أزيز الرصاص، ستسألني يومًا عن المخيم وعن المدينة المحاصرة .
تضعني سلمى أمام عجزي القاتل كلما ابتسمت وتعلمت حرفًا جديدًا . أهرب من

أستلتها الصامتة الى طفولتي، الى ذاكرتي التي افقدها يومًا بعد يوم.

تضعني سلمى في حساب النفس ومراجعات الذات. تعيدني الى التفاصيل الصغيرة، فقط لاجيب على سؤالها الحائر: لماذا لم تفعل شيئاً كي لا أولد في هذه الحرب؟

رهيبة هذه الحياة، رهيبة!

(٣)

(قراءة في الصحيفة)

مخيم جنين. امرأة عجوز فوق الردم تبحث عن ابنها المقعد..

(الحكاية للعازف)

في حزيران ٦٧، الجيش احتل المخيم. الناس شردت عالجبال.

عامر كان عمره سبع شهور. خلق مريض وأمه تطبلت فيه. حملته على ايديها وشردت مع الناس، واولادها مشيو قدامها. كانت همتها ثقيلة، صارت تقصر، وقفت ما قدرت تمشي، حطت عامر عجنب الطريق وكملت. بنتها اللي كان عمرها تسع سنين انتبهت لامها. رجعت تركض لعندها وسألتها:

– وين أخوي يما؟

– هناك يما، لورا، لورا، بعيد.

البنت رجعت تدوّر على أخوها، ما لقته على جنب الطريق. صارت تدوّر عليه، من جبل لجبل، ومن وادي لوادي، ومن بلد لبلد، ومن حارة لحارة، لحد ما لقته عند عيلة في سيلة الظهر. شافته، عبطته، وركضت فيه لعند أمها:

– هياه أخوي يما.

حضنته أمه ولما رجعوا للمخيم ما تركته.

عامر كبر مقعد لا بيقدر يمشي ولا بيسمع، صار عمره ٣٥ سنة.

في الاجتياح الاخير هدوا البيت عليه.

«أم عامر» صارت تنبش بإيديها في الردم. تنبش شوي شوي. بعدها همتها ثقيلة. وعامر تحت الردم، لا حس ولا نس.

(٤)

(قراءة)

عندما كنت طفلاً صغيراً، اعتدت قبل النوم على وضع راسي في حضن جدتي، لتحكي

لي قصة. دائمًا كنت أغمض عيني قبل أن تنهي قصتها، فترفع رأسي عن حضنها وتضعه على الوسادة.

كانت تجيد قص الحكايات القصيرة وتسترسل حين يكون الهدف تنويمي فقط، ولكن اذا لم أغمض عيني بعد محاولات تنويمية عديدة كانت تقطع القصة وتقول: كل القصة وما فيها.. وتشرح المغزى ثم تدغدغني وهي تقول وأنا أضحك: هاي حكايتي حكيتها وفي نص عبّك حطيتها.

عندما كبرت وصرت أقرأ القصص بنفسي، صرت أسأل عن المغزى وأحاول أن أخصها على طريقة جدتي بـ «كل القصة وما فيها» واكتشفت فيما بعد أن الحياة كلها قائمة على كل القصة وما فيها.

(٥)

(حكاية)

ستي هاي اللي باحكيلكم عنها، كان عندها خزانة صغيرة مقفلة طول الوقت وما حدا تجرّأ يفتحها، حتى هي ما فتحتها وكانت تقول لنا انها مش راح تنفتح إلا في يوم القيامة.

لما كان عمري خمس سنين حاولت أفتحها، مسكتني. بس ما ضربتني على ايدي ولا وبختني قالت لي:

– اسمع يا ستي، دير بالك تفتحها، واذا صرت كاسرها، البيت راح يهبط علينا.

– شو فيها الخزانة؟

– هاي الخزانة ليوم القيامة وفيها الله، سبحانه وتعالى، بيسجل كل أعمالنا المليحة والعاطلة.

– وين المفتاح؟

– في مصر! في يوم الآخرة راح بيجو الأنبياء من الشرق وياخذونا معهم لمصر علشان نحاسب، راح تتعطل الطائرات والسيارات والسفن ونقطعها مشي ونحمل الخزانة على ظهورنا وهناك بيجي ملاك أبيض وبيفتح لنا الخزانة واللي بترجح حسناته على سيئاته بيروح للجنة واللي بتغلب سيئاته بيروح مع ابليس خزي ولَعَن.

بعدها ما اتجرأت افتح الخزانة، ولا قرّب منها، كنت طلّع فيها قبل النوم وراجع نهاري واسال حالي شو عملت اليوم؟

وصار عمري ١٨ سنة وما قربت عالخزانة وما حدا فتحها.

في يوم كنت قاعد في البيت والا شخص بينادي على جدي، شيخ غريب، شفته لأول

مرة في حياتي، لابس قمباز ابيض وحطة بيضا ولحيته بيضا. جدي عبطه ومسك ايده وفوته عالغرفة وهو يأشر له عالخزانة وستي مشيت وراه وهي تتمتم.

انا تمسمرت محلي من الخوف. اجا على بالي صيح: قامت القيامة، اجا الملاك الأبيض.

انخرست لما شفت الشيخ مد ايده على جيبته وسحب مفتاح صغير وقدم عالخزانة وفتحها ومد ايده جواتها وطلع كل شي فيها.

كانت ملانه أواعي قلشها على الأرض وطلع منها صرة وفتحها وسحب قلادة وورقة كبيرة.

– هاي القلادة لام محمد وهذا كوشان الأرض راح أخذهم واترك لكم الخزانة وكل شي فيها.

بات «أبو محمد» هذيك الليله عند جدي وثاني يوم رجع لمخيم جنين.

(صوت مسجل)

«أبو محمد» من عين غزال القريبة من بلدنا. عام ٤٨ شرد مع أهلها. حمل الخزانة على ظهره ولم يقدر على حملها أكثر فتركها أمانة عند جدي، صديقه من أيام تركيا.

تركها مقفلة وحمل مفتاحها وعاد اليها بعد عشرين عامًا فقط ليأخذ القلادة والكوشان ولينسف خرافات جدتي. ذهب الى مخيم جنين ولم يعد.

(٦)

(قراءة في كتاب)

في غمرة أحداث اليوم تختفي تلك القرى التي كانت مئذنتها تعانق السحب ورؤوس كنائسها تشمخ وعلى تراب الزقاق العتيق يلهو اطفال صغار ولدوا في اقرث مثلا او في جبع وترعرعوا لاجئين في براكية خشب وان ابتسم لهم الحظ كبروا في غرفة صغيرة في وادي النسناس وفي قلوبهم شوق يشدهم للعودة الى الازقة الترابية التي كانت تلطخ ثيابهم.

نتذكر او لا نتذكر، نحلم او لا نحلم، سنعود او لا نعود، فعلى لسان الشيخ، وفي كتب التاريخ، في الذاكره الاكبر، تظل عشرات القرى تنتظر عودة ابنائها وتظل الذاكرة تحمل صورة حية عن عرس الست ورديه، وعن زفة جمال الصالح، وعن طوشة البيادر، وعن الجنازة اللي حضروها اهل الشرق والغرب، وعن عين المي، وعن المراح وعجال البقر.

قلنا: يا شيخ، بعد عمر طويل شو راح تترك لنا؟

ولا شي

ولا شي؟
يمكن حكاية بلد .
(أغنية)
بتظل قرية عامرة في القلب .
قريه مزهزهه برجالها ونسوانها واطفالها
بعمرانها واشجارها
بتضحك لقرص الشمس
وما بتنتسا .

(٧)

بعد ما احتلوا البلد، جابوا سيارات وحملونا فيها، ختيارية واولاد ونسوان . رصونا رص على بعض . هذا كان في عز كوانين . أبواب السما انفتحت علينا والشتا صار ينكب من عند الرب، قالوا لنا : على جنين، يالله على عبدالله . مرج ابن عامر كان مبين مثل بحره كبيرة، كبونا في المي والوحلة، صرنا نغرز في الوحل ونمشي، نشلنا الولاد . في ختيارية ما حدا نشلهم . ظلوا يومين ثلاثة مغرزين في الوحلة . ١٣ ختياري ماتوا في المستنقع . كان معهم ياسين فاعور ومصطفى فاعور وعبد المحمد وزينب عبد الجليل . أنا شفت حلوه الناصر تغرز في التراب وهي تصيح : دخيل الله . . بحياة الله . . يا يما يا حبيبي . .

وشوي شوي صار يختفي الصوت . . يخت . . في . . الص . . وت . . ي خ ت ف ي ال ص و . .

(٨)

في هاك الايام، ما كنت تسال حالك شو أريح طريق تعيش، كنت تسال شو أريح طريق تموت .

(قراءة في صحيفة)
حولوا البلد لمصيدة كيف ما تحركت الموت قدامك .
كان لنا جيران،
بلاش نذكر اسامي،
الحرمه بعدها طيبه،
والبنت بعدها طيبه،

وابوها، يمكن عايش يمكن مات،
دخلوا عليه وسحبوه،
ومن يومها ما عرفنا شو صار فيه،
الحرمه كان عمرها يا دوب خمسه وعشرين، يا دوب ثلاثين
فاتوا عليها خمس جنود،
عملوا اللي عملوه، والبنت تطّلع عليهم،
بعدين الجندي سحب الحرمة لساحة الجامع، والبنت بقيت في البيت تصرخ وتبكي،
نادانا جندي وقال: تعالوا خذوا البنت،
صرنا نبحث عن أمها. لقيناها مع الناس.
اعطيناها البنت. كانت دموعها تغسل وجهها.

(٩)
(حكاية)

عبد الحسن كان قبضاي وعجز الانجليز. قرروا يصفوه.

يوم طوقوا البلد وأمروا الرجال والشباب يتجمعوا في الساحة والنسوان والأطفال يبقوا في البيوت. الطقس كان حامي والشمس بتقلي العصفور. نقعونا في الساحة من الصبح للظهر والكابتن شيفر قال: بدي عبد الحسن من بينكم. قلنا لبعض، لو منموت مش راح نعترف عن عبد الحسن. حتى لو بقينا شهر على رجلينا في الحم والعطش والجوع، لو قتلونا واحد واحد مش راح نقول مين عبد الحسن، وصمدنا.

الظهر شفنا ختيارة حامله صرة وقربة مي وجاي للساحة، وقفها الكابتن وسألها: لوين يا عجوز؟

قالت: ابني من الصبح في الشمس، لا اكل ولا شرب، حامله مي وخبز لابني.

– مين ابنك؟ سالها الكابتن.

– عبد الحسن، عبد الحسن، هذاك هو، واقف مع الشباب يا خواجه، لا اكل ولا شرب.

قال لها ابن الحرام: روحي اعطيه.

ومشيت بين الرجال والكل يهمس لها: ارجعي. ارجعي. لكن لا حياة لمن تنادي. ما كانت شايفه حدا الا ابنها. قبل ما تناوله الصره، الكابتن حط ايده عليه وسحبه من بيننا، سحب فرد وقوّسه قدام امه وقال لنا روحوا ادفنوه. قسم كبير من الناس صرخ في وجهها وقال:

انت السبب في قتل ابنك، لولاك ما كانوا عرفوه.

وهي صارت تشهق وتصيح:

هذا ابني حبيبي جيت له اسقيه، بتكون عطشت يما، جعت يما؟

(صوت مسجل)

وامضت ما تبقى من حياتها حاملة صرة فيها ثياب عبد الحسن وقربة ماء وهي تلف من قرية الى قرية ومن بيت الى بيت، لا تنطق الا بجملة واحدة:

«يما يا حبيبي مين قتل عبد الحسن»؟

(١٠)

(حكاية)

الشيخ عباس. مات قبل ثلاثين سنة.

ما بيروح عن بالي.

كان يلبس قمباز مقلّم ويركب على حمار ابيض ويدور في شوارع البلد حامل رزمة مفاتيح ويتنقل معها من بلد الى بلد.

اهل بلدنا كانوا يقولوا عن الشيخ عباس انه مسكين لانه فقد ذاكرته، بس كلهم حفظوا نكاته.

يوم من الايام التقاه شيخ ظريف، وكان عباس لابس قمباز ابيض وراكب على حماره الابيض، ساله الظريف:

«قل لي يا شيخ عباس، مين الحمار؟ الأبيض من فوق والا الأبيض من تحت؟»

الشيخ عباس تطلع فيه وقال له:

«الحمار هو اللي ما بيعرف مين هو الحمار».

الشيخ عباس كان «ضريب حجر ممتاز ويصيب نقفه بنقفه» مثل ما كان يقول عن حاله، الثورة حملته بارودة من أيام تركيا ليسقط الطيارات البريطانية اللي كانت تقصف الثوار. الله يرحمه، كان يقول: اليوم سقطت عشر طيارات، ثاني يوم يقول سبع طيارات. كل يوم بروح مسقط سبعه ثمان طيارات. ولما يقولوا له: على هالمعدل ما ظل طيارات للانجليز، كان يقول: يشهد الله، كل رصاصه بطياره، بس الانجليز عندهم طيارات قد ما عندنا هسهس. في حرب ٤٨ حملوه مترليوز رشاش ليدافع عن عين غزال القريبة من البحر، مترس في البلد وصار يقوس على الطيارات لحد ما خلصت الذخيرة. ترك سلاحه وراح يركض عالقيادة في الطيرة ليجيب فشك، ولما رجع بعد ثلاث أربع ساعات، لاقى البلد

مهجرة واهلها شاردين وبيوتهم مفتحة، دار بيت بيت وسحب المفاتيح وربطها في سلك نحاس، وحملها معه لوين ما راح.

لما كنا نسأله: شو هاي المفاتيح يا شيخ عباس؟

كان يقول: هاي مفاتيح طياراتنا، الله وكيلك، ولا طياره بتطير في السما الا اذا اخذوا مفتاحها مني.

في حرب الـ٦٧ راح لشفاعمرو يزور أصدقاءه من أيام الثورة، تطلع في السماء شاف سرب طيارات. انتفض الشيخ عباس وحمل رزمة المفاتيح وركب على حماره وقال: «يا الله».

«لوين يا شيخ»؟ سألوه أصدقاؤه.

رايح عالبلد، هاي طيارات اسرائيل رايحة تقصف بلدنا، مفاتيح طياراتنا معاي ولا بد انه طيارينا بيفتشوا علي وعلى المفاتيح، رايح لافتح لهم اياها علشان يكسحوا العدو.

(صوت مسجل)

ولكش حماره وكانت الشمس تشرف على المغيب.

بعد يومين وجدت جثته على الطريق الوعري.

كانت الجثة ممزقة والى جانبها تناثرت المفاتيح وعلى بعد امتار كانت جثة الحمار ممزقة ايضاً.

لقد اكلهما الضبع..

(١١)

لا احتفل بيوم ميلادي، ولا ميلاد اطفالي، ولا حفيدتي سلمى، فهل تريدونني أن احتفل بالحرب؟!

لو خيرت لاخترت يوما آخر أولد فيه وعامًا آخر ومكانًا آخر، فما ضرني لو أنني ولدت قبل الميلاد أو في يوم خريفي من أيام القرن الثالث عشر، في تدمر أو في غرناطة وخراسان بلاد فارس.

لماذا ولدت بعد حرب ما زالت مستمرة الى ما لا نهاية وفيها منتصر ومهزوم ويريدونني ان أكون دائما أنا المهزوم؟

لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم ويأكل اهله ساعة بعد ساعة؟

لماذا لم أولد هنديًا احمر يقاتل الغزاة برمحه وريش النسر وصراخه الذي يشبه عويل الذئاب؟

تخونني الذاكرة وافقدها يومًا بعد يوم وقد يأتي يوم أسود فأجد نفسي بلا ذاكرة، مجرد جسد يتحرك الى لا مكان، اهيم في الشوارع المزدحمة او في الوعور الخالية، الى أن يعثر علي صياد كان يومًا رفيق طفولة، فأخذ الحياة على علاتها واستقى منها فرحها فصان ذاكرته، ويمسك بيدي، أنا الذي ناطح طواحين الهوا ففقد ذاكرته وصار لا شيء، تمامًا لا شيء، ويأخذني الى البيت ويسلمني الى أهلي ثم يعود هو الى بيته ويحدث أهله عن شيخ فقد الذاكرة ويقول متفاخرًا أمامهم: لولاي لأكلته الضباع.

ستأكلنا الضباع ان بقينا بلا ذاكرة.. ستأكلنا الضباع.

(صور يقدمها الكاتب على خشبة المسرح، إنتاج مسرح «السرايا»/يافا، إخراج أديب جهشان)

كاتب فلسطيني مقيم في دالية الكرمل

حنا ابو حنا

عن غارة ومغارة ومحنة قهّارة

أسماء أمهاتهم

الرينة، حزيران ١٩٤٨

اجفل النوم وظلّ يحيى يتقلّب في فراشه مضطربًا.

افاعي استفهام عملاقة تلتفّ حوله في متاهة لا تنتهي.

الاحداث تتراكض. تمرّ في الخاطر صور الباصات التي حملت المهجّرين من طبريا إلى الناصرة.. آلاف وفيهم عائلة عمّه.

الشاطئ الفلسطيني كله انتقل إلى القوات اليهودية قبل ان يغادر الانتداب البريطاني البلاد.

صور مجزرة دير ياسين تمرّ دامية في مخيلته. تتوالى التفاصيل: بطون الحوامل تبقر. جثث ممزّقة مبعثرة.. شاحنة تمتلئ بحشد من سكان القرية تمرّ بهم في استعراض في حيّ «محنيه يهودا» ثمّ يُقتادون إلى محجر حيث يمزّقهم الرصاص. مذبحة. مائتان وخمسون من الاطفال والنساء والشيوخ يُذبحون ذبح النعاج.

في بادئ الأمر صعُب على يحيى أن يصدّق أن قومًا ذاقوا همجية الجرائم النازية يمكن ان يقترفوا تلك الجريمة.

لكن الوقائع طعنت حُسن الظنّ طعنة قاتلة.

لائحة المجازر اتّسعت.

إلى قرية ناصر الدين، قرب طبريا، دخلت مجموعة صهيونية مسلّحة ترتدي الملابس العربية. رحّب بها السكان واهمين أنها جاءت لنجدة أخوانهم المحاصرين في طبريا. يفرغ المسلحون رصاصهم في صدور الناس.. تتساقط الضحايا.. بعض الجرحى يفلحون في النجاة.

قال الشارح: في قرية عين الزيتون قرب صفد حشروا الناس في علّيّة في المسجد

وأشعلوا النار من تحتهم. بين اللهيب والدخان ارتفع العويل والصراخ الجنوني والموت المتوثب. الذين حاولوا النجاة بالقفز من النوافذ إلى الأرض كان الرصاص لهم بالمرصاد. الضحايا حوالي مائتين فيهم الأطفال والنساء والشيوخ.

تساءل يحيى: بماذا يختلف موت هؤلاء عمّن ماتوا في أفران الغاز؟ أيّ فكر شيطاني هذا الذي يدبّر وينفّذ؟

نهض من فراشه يلاحقه الذعر. تسلل من الغرفة المليئة بأخوته النائمين وخرج إلى ساحة البيت الشرقية..

إنها ساعة السَّحَر التي يحبها. الألوان تتعانق في الأفق استعداداً لاستقبال الشمس. هذه الطبيعة خادعة. الجبال والتلال والأودية تبثّ هدوءاً وقناعة. إنها متعة للنظر تسرقك من الهموم لحظات ثم تحسّ فجأة أنك تهوي إلى قاع واقع رهيب.

في الجو شيء من الرطوبة الباردة. يمشي في الحاكورة ينقل نظره بين الأفق والشجر والتراب لعلّ هناك عزاء.

تظلّ الشمس تلعق الندى عن الأعشاب كما تلحس البقرة جلد عجلها الوليد. مروّع هذا التناقض بين السماء والأرض.

قال في نفسه: دورنا قريب فكيف نحتمي؟

الخطة واضحة: اتركوا بيوتكم واسلموا بجلودكم. هذه المجازر رسائل. يريدون البلاد خالية من العرب.

احسّ انه بحاجة إلى من يبث إليه شيئاً من همومه وشجونه.

ليس إلّا الورق.

عاد إلى البيت. جلس يكتب مذكراته وخواطره. هذا الوقت ليس أفضل الأوقات للكتابة فليست له زاوية مستقلة. تعوّد ان يعتمد الليل فهو عادة أقل ضجيجاً وتشتيتاً. لكن هذه الايام سلبت هدوء الليل وخصوصيّته. ففي كل ليلة يلتقي الجيران في بيت يحيى حيث الراديو الذي تغذيها البطارية والمضافة التي ترتّب فيها حراسة الحارة.

في أيار بعد أن انفرطت سلطة الانتداب وازدادت الهجمات على القرى العربية تساءل الناس: ما الذي يمنع الدخول إلى هذه القرية والبطش بأهلها؟

قالوا: كل حارة تحرس بيوتها.

- من قال ذلك؟

اتّفق أهل الحارة الغربية في البلدة العتيقة على تنظيم حراسة ليلية لتلك الحارة ممن

يملكون قطع سلاح ورتّبوا لذلك نوبات. كان ذلك حافزًا لأهل الحارات الأخرى للتحرّك على ذلك الطريق.

بيت عائلة يحيى في الطرف الشرقي. سنسلة الحاكورة هي الحد. اجتمع الجيران، كل واحد وسلاحه.

العدد دون العشرة والعتاد ثلاث بندقيات وأربعة مسدسات. رتّبوا نوبات حراسة ليلية في كل نوبة ثلاثة من أبناء العائلات المختلفة.

حرس يحيى في أكثر من ليلة.

لفّ رأسه بكوفية وحمل البندقية التي اشتراها أبوه بمائة جنيه، ولم تزد الرصاصات التي معه على عشرين. تمرّن منذ أيام على إصابة الهدف. ذهب مع آخرين معهم بنادق ومسدسات. وضعوا علبة صفيح على صخرة وتناوبوا على محاولة إصابة العلبة. ادّعى أحدهم خبرة بالسلاح وإطلاق النار. استمعوا إلى توجيهاته: هكذا تسند عقب البندقية إلى الكتف وهكذا تدخل الرصاصة في بيت النار.. هكذا تصوّب وتعالج ردّ فعل البندقية عندما تودّع الرصاصة. صوّب وأنت واقف.. صوّب وأنت منبطح.. هذه «التدريبات» كلّفت مبالغ وقد أصبح الجميع عاطلين عن العمل. لكن هل تكفي للدفاع عن قرية أمام مهاجمين اتقنوا التدريب وتمتعوا بخبرة عسكرية؟

يقف إثنان في النوبة الليلية مع يحيى. هو أصغرهم سنًا. وقفوا خلف السنسلة لتكون الحجارة درعًا.

أخرج عباس علبة صفيح فيها تبغ مفروم وورق سجائر رقيق وبدأ يلفّ سيجارة. صاح أبو العبد، وهو أكبر الجماعة سنًا: تدخّن في أثناء الحراسة؟! قد تقتلك نار سيجارتك.. إلى جمرتها في العتمة يصوّب القنّاص.

قال عباس: شو هالبلية. ما بقدر أصبر طول الليل بلا سيجارة!!

انصت إلى صوت الواويات والكلاب وألحان الصرصار وخلّ عينك ع التلة.

قال يحيى: بعد ساعة نوزع نوبة النوم - واحد مستيقظ وإثنان ينامان نومة الذئب.

تذكّر الشعر الذي يتحدث عن نومة الذئب بنصف جفن وتذكّر التعبير الشعبي الذي يصف نوم بعض الأطفال بالنوم الغزلاني.

قال عباس: ومن يحرس في النهار؟

- ما عندنا عدد كافٍ للحراسة في الليل والنهار.

قال يحيى ضاحكًا: نقول للمهاجمين لا تهجموا إلاّ في الليل. عيب عليهم أن يهاجموا قرية بدون حراسة!

قال أبو العبد: بيننا وبين المستعمرات اليهودية عدد من القرى العربية، فلماذا يختارون قريتنا دون غيرها؟

- لأنك خطير جداً!!

- شكراً على التقدير!

قال يحيى: من يعرف منطقهم وخططهم؟

يعرف يحيى أن هذه الحراسة تافهة. لم يدرس أحد خارطة المنطقة وليس من يستطيع أن يؤلّف فرق حماية فليست هناك سلطة مركزية أو محلية ولا سلاح لهذه الفرق.

قال جابر متهكماً: البركة في جيش الإنقاذ. جابر جاء ليقضي السهرة هنا ويشارك في الحراسة تطوعاً.

قال أبو العبد، وهو المعروف بحدّة طبعه ولسانه: قصدك جيش الانقاظ (تعمّد أن يلفظ الذال ظاء)، هذا إسمه الحقيقي. شفتو كيف بدور ع البيوت يشحد خبز؟ مساكين.. لمه، اللّه يساعدهم ويساعدنا عليهم.

قال عباس: وآخرتها؟

- إسأل أبو نايف.

ضحكوا جميعاً وتذكّروا ما حدث في السهرة في بيت يحيى قبل بضع ليال.

أبو نايف عرّاف يفتح بالمندل ويستشير بعض الكتب القديمة المهلهلة من المصاحف والحظوظ. كان مع الساهرين في تلك الليلة. سأله أحدهم أن يكشف لهم عن نتيجة هذه الغمّة. أن يسأل عفاريت المندل أو «يحسب» مستفتياً كتبه. فأي شيء أهم من أن يعرف الناس إلى أين تسير بهم هذه المأساة؟

مسح أبو نايف بكفّه على شاربيه العريضين الأسودين وظلّت كفه الأخرى ترعى مسبحته. قال: لا بدّ من تبييض بخت الجن ليحضروا ويجيبوا.

قال أبو يحيى، ولم يكن يؤمن بشيء من تلك الخرافات:

انقطع شرش الحيا يا أبو نايف؟!

اجفل أبو نايف وقال: هيك بتهينّي يا أبو يحيى في بيتك؟

- يا حيف عليك يا ناصر. إحنا كلنا بنسأل عن مصير وانت أولنا بدّك تعرف شو آخرتها، وبتطلب نبيّض بخت الجن؟ تدفع لك مصاري؟ وين النخوة.. وين؟

بلع أبو نايف ريقه وعلم أنه الآن في امتحان رهيب.

طلب فنجاناً مملوءاً بالزيت. اختار أحد الحاضرين. غطّى رأسه بشرشف وطلب إليه أن يركّز نظره على فنجان الزيت.

شفتا أبو نايف السمراوان تتمتمان بصوت خافت، لكن من حوله لا يسمع سوى أشباح حروف.

قال بصوت عال: ناد على الجنّ ليجيئوا. قل يا أهل الجن يا أهل الخير تعالوا خذوا أماكنكم قدّامي. ناد على شمهورش.

ارتفعت تمتمة أبو نايف ومن تحت الشرشف سمع صوت الوسيط مرتعدًا ينادي: شمهورش.

قال أبو نايف: بصوت أعلى.

ارتفع صوت الوسيط راجفًا..

بعد عدد من المحاولات فشل الوسيط أن يرى شيئًا كما فشل وسيطان آخران في ذلك.

قال أبو نايف وهو ينظر إلى بعض الشباب الحاضرين: هنا أناس جُنُب نجسون لم يتطهّروا. لذلك لا ينكشف المندل.

ثار إبراهيم أخو يحيى على هذا القول: – أنت الجنب. وتمتم شتيمة.

قال أبو يحيى: إذن إسأل كتبك.

أحرج أبو نايف وبحث عن مخرج. قال: أولاً هاتوا إسم الشخص واسم أمه وتاريخ ميلاده. خذ اسم الحاج أمين أو بن غوريون أو شرتوك. هل تعرفون أسماء أمهاتهم؟

قال أبو جميل: إذن بلاش فلسفة.

حمل أبو نايف نفسه، خرج غاضبًا وهو يقول: آخرتكو عاطلة. أنا بفرجيكو..

قبل أن ينفضّ السامر عيّنوا أسماء الحرّاس لليلة المقبلة. كل بيت يتكفّل بحارس شاب لكن يجب أن يكون مع الفرقة دائمًا كبير «عاقل» بينما تبقى البندقيات الثلاث دائمًا مع الحرّاس.

أحسّ يحيى بغثيان شديد: أهكذا يتقرّر مصير شعب ووطن؟ جسم مشلول ولا رأس. أيدٍ وأرجل وأعضاء هلاميّة تتحرّك بشيء من الارتجاج المتشنّج وأصوات من الخارج تتشدّق بالنجدة لتزيد من الضياع.

العنوان مكتوب بحروف بارزة على الحائط – من يقرأ..؟

عن غارة ومغارة

الرينة، تموز ١٩٤٨

في الجو طنين غريب أخرج الناس من بيوتهم لترتفع الرؤوس إلى الفضاء مستهجنة. فوق القرية تحوّم طيارة صغيرة، لعلها من نوع «پايپر». إنها طائرة استطلاع يهودية.

استلّ أبو ابراهيم مسدسه البارابلو، صوّبه إليها وأطلق كل ما في الباغة من رصاص.

قال أبو يعقوب: تريد أن تسقط طائرة بالمسدس؟ لو كانت بندقية لكان الأمر معقولاً أكثر.

– «بيّن عذرك ولا تبيّن بخلك». أنا على الأقل جرّبت. ماذا فعلت أنت؟

– يا ويلي على حالي.. لا عندي بارودة ولا عندي فرد.

تندّر البعض على فعلة أبو ابراهيم. قال أكرم الطالب في الثانوية: كان على المتنبي أن يقول: «فليسعد الفرد إن لم تسعد الحال».

قال والد يحيى: أنظروا إلى واقع الحال. عندهم طيّارات ومدافع ودبابات وجيش ونحن لا نملك نظامًا ولا سلاحًا. سلّمهم الإنكليز المدن الرئيسية قبل إنتهاء الانتداب وهم الآن قوة راسخة أمام أيدٍ فارغة تعمرها الفوضى.

قال ياسين: لكنّ الجيوش العربية تحرّكت وهي مسلّحة ومنظّمة ومدرّبة.

قال أبو جميل، وهو معروف بنزقه وعدم احتماله للمداراة: «يا ياسين يا حبيبي افتح مخّك المسكّر. إن كان المندوب السامي الإنكليزي سلّم لليهود كل اللي سلّمه وظلّ بعد إشي.. أبو حنيك – غلوب – رايح يكمّل على الباقي. كيف عقلك ممكن يفهم أنه أبو حنيك هو قائد الأركان اللي بدّه يحرّر فلسطين؟ إعقلوا يا جماعة. إلعبوا يا ولاد واللعبة على أمّكوا.. شفتوا جيش الأنقاض..؟ المكتوب بنقرا من عنوانه.

عندما اجتمعت العائلة على الغداء قال أبو يحيى: مجيء الطيّارة مؤشر إلى إمكانية القيام بغارة جويّة تتساقط فيها القنابل على الناس والبيوت. أين الملاجئ وكيف نحتمي؟

قال يحيى: حالتنا كلها ارتجاليّة. إنها مثل ثوب مهلهل كلّما حاولت ان تقطّب ناحية تمزّقت أطراف اخرى. هل نستطيع نحن الافراد ان نبني ملاجئ؟

قال أحد الاولاد: يمكن ان نوسّع المغارة تحت التينة لتكون ملجأ.

– أولاً المغارة لا تبعد إلاّ ثلاثة أمتار عن البيت والبيوت مستهدفة، وسقف المغارة لا يزيد سمكه على نصف متر من ترابٍ خفيف، فإذا سقطت عليه قنبلة كانت المغارة قبرًا جماعيًا.

– هل نقف مكتوفي الأيدي؟ يجب أن نعمل شيئًا.

ان يفعل الإنسان شيئًا ولو غير مجدٍ، يبعث شعورًا مزيفًا من الراحة ينطلي بالانشغال.

بدأ بعض الاخوة بالحفر لتوسيع المغارة. وجدوا بعض العظام البشرية. هل كان هنا

قبر قديم؟

تشاءمت الأم: هاي المغارة ما بتكون ملجأ. ما بتوبني إلاّ غسيل الأواعي المعفرة.

لكن الحفر استمرّ وتكوّمت تلال من التراب. أما السقف فظلّ ناحلاً هزيلاً.

تندّر أحد الأخوة، قال: إن لم تكن ملجأ فلتكن زريبة للأرانب.

قالت الأم: الأرانب أشطر في الحفر وما بدها مساعدتكو.

ظلّ الأولاد يلعبون لعبة حفر الملجأ بحماس والمغارة تتسع وتمتد.

عن خربة وخراب

فرقة الحراسة الليلية المطلّة على الوادي الشرقي تُفاجأ.

لم يأت العدوّ من الشرق أو من الشمال.. جاء من فوق.. من السماء. طيّارة تحوّم وترمي بالقذائف. سقطت إحدى القذائف على حظيرة الدواب عند الجيران فقتلت بقرة وهدمت قنبلة أخرى جانبًا من جدار. الدويّ رهيب. قنبلتان أخريان وجدتا في الصباح في شارعين بعيدين رفضتا الانفجار. القنبلة بحجم نصف برميل كبير.

طبعًا لم تذهب عائلة يحيى إلى الملجأ الذي تعب الأبناء في حفره وإعداده.

الخوف في القرية غول كبير يخبط خبط عشواء.

كان الناس في الصبح يتخبّطون في مستنقع من علامات الاستفهام والذعر.

قالوا: سقطت صفورية.

إنها أكبر القرى المحيطة بالناصرة، فيها حامية حسنة من أهلها وعلى شارع الإسفلت الذي يحاذيها ويصل إلى شفاعمرو جسر الحلّدية الذي قيل إنه كان ملغومًا ليعرقل دخول الآليات اليهودية القادمة من شفاعمرو التي تمّ احتلالها قبل زمن يسير.

سأل أحدهم: ألم تنفجر الألغام التي تحت الجسر؟

قالوا: أزالها جيش الإنقاذ لينطلق من هناك ليحرر شفاعمرو.

– الله أكبر.. خيانة يا عالم.. خيانة!

– الطبخة مطبوخة والله يستر شو وراها.

قالوا: أهل صفورية شتلوا. وجههم والسهل.

– حدا بظلّ ببلده بعد المذابح في دير ياسين وغيرها؟.. رحيل يا عرب!

كانت جراثيم الذعر تفتك بالناس. الذّعر وبأ معد. إنها حرب نفسية أيضًا أعدّوا لها جيدًا وهذي ثمارها.

وقف أبو يحيى وأولاده على «الحوّطة» ينظرون بقلق إلى ما حولهم.

عائلات تهرول هاربة. نساء يحملن بقجًا على الرؤوس وأطفالاً في الأحضان. بعض العائلات معها دواب أرهقتها بالأحمال والأطفال.

قال الشارح: حدّثوا أن أحدهم لقي في أثناء الهجيج الحدّاء المشهور توفيق السعيد الريناوي فقال له:

« يا بو الأمين وين قولك للإنكليز:

لا بد يا غرب ما تحمّل على حمار

وترحل من فلسطين العرب!

الإنكليز حمّلوا على سفن وطيّارات وإحنا مش ملاقيين حمار نحمّل عليه ».

قال يحيى: إلى أين يذهبون؟

قال أبوه: من يسأل؟ النجاة أمامهم حيثما تتاح.

قال يحيى: وحين يصلون إلى تلك الأماكن؟

قال أبوه: أنت تضيّع الوقت بهذه الأسئلة.

جاء جدّ يحيى وجدّته. جدار بيتهم وجدار بيت يحيى متلاصقان.

قال والد يحيى والدمعة تخنقه: لا بد من الرحيل.

– إلى أين؟

– عدت تسأل؟ إلى حيث يذهب الجميع.

تطلّع يحيى إلى والدته وأخوته. الأم تفرك يديها قلقًا والأخوة قوس واسعة من الأعمار.

قال: وماذا ينتظرنا هناك؟

– هنا الموت وهناك مع الآخرين.

قال يحيى: وهناك الذل والموت. هل معنا من المال ما يضمن إعالتنا إلى حين ونحن عشرة أنفار أكثرهم أطفال؟

– لنهرب أولاً من الموت!

إذا استطعنا أن نتفادى صدمة الاحتلال في اليوم الأول والأيام التالية فقد ننجو من الموت.

تدخّل الجدّ زايد قال:

المغارة في « الخريبة » واسعة لائذة ومشرفة. نأخذ فراشًا وزادًا لبضعة أيام ونراقب التطورات من هناك حتى يزول الخطر.

« الخريبة » أرض للجد واسعة، خارج نطاق القرية، تمتد من رأس التلة إلى الوادي. استثمر فيها الجد عرقه وحيويته. زرع بعض الأشجار ورعاها وحوّل جزءًا إلى مقثاة

يزرع فيها البندورة والخيار والبطيخ والحمص وغير ذلك بما يساير الفصول. كان الجد يسبق الشمس ويعمل وحيداً. ينكش ويزرع واحياناً يستعين بابنته وزوجته حين يكون غرس الاشتال وسقيها.

احب يحيى قمة «الخربة» حيث يرى الناصرة وصفورية والشارع الهابط من طرف الناصرة ممتداً إلى طبريا. كان يجيء إلى القرية في عطلة الصيف حين تكبر كرات البطيخ وتبلغ سنّ الحلم، وإذا لم تكن في جيبه موسى كان يلطم رأس البطيخ بحجر فينشقّ وينقسم. اما الخيار والبندورة فهما بعليان فيهما طعم بكارة لذعها شهيّ.

في الخربة كثير من كِسَر الفخار مختلف الالوان. لا بد ان هذا المكان كان ماهولاً منذ قرون. تشهد بذلك هذه الآثار الفخارية والموقع المشرف على نبع الماء – «القناة»، بل إن الإسم يوحي بمكان كان معموراً ذات يوم. من سكن هنا؟ تمنى لو يعرف. من نبع الماء المحاذي امتدت انابيب ضخمة باتجاه صفورية، كشفتها الحفريات ثم غطّيت. قال بعضهم إنها من العهد الروماني.

كم جلس يحيى عند باب المغارة وخياله يرسم صوراً للناس الذين عاشوا هناك.

لقي اقتراح الجد قبولاً من الجدة والام ويحيى والاخوة. اما ابو يحيى فتردد حيناً. قال: انا المسؤول عن العائلة وأمنها واخشى ان تضطرب الامور.

قال يحيى: لن نكون في القرية ساعة الاحتلال ويمكننا ان نبقى هناك بضعة أيام أخرى إلى أن تنجلي الامور. شعروا انهم بهذا الحل سيكونون قريبين من البيت يستطيعون إذا احتاجوا شيئاً ان يصلوا ولو تحت جنح الظلام.

أخيراً وافق الوالد أمام هذا الإجماع. قال: إذن تعالوا نفرز ما نأخذ من فراش وطعام.

حملت دابة الجد هرماً من الفراش وحمل الاولاد الكثير مما تحتاجه العائلة من الطعام.

– إحسبوا حساب أسبوع على الاقل.

– معنا ما يزيد على حاجة أسبوع.

الدابة تحمل وزر هؤلاء الناس الذين يفكرون في النجاة، لكن ما ذنبها حتى تهبط نحو الوادي ثم تبدأ بالصعود الشديد. احد الاولاد يمسك بالرسن يجر وآخر يحقز من الجانب ويحث.

لم ينسَ يحيى أن ياخذ شهاداته لتكون معه إذا انقلبت الأمور واضطر إلى الرحيل لعله يجد عملاً في سلك التعليم حيث تحط به الرحال. وحمل بعض الكتب ليزجي بها ساعات القلق.

مهّد الجدّ والاولاد أرض المغارة وفرشوا حصيراً وبساطاً. أقامت الجدة في الداخل موقداً

من بعض الحجارة وجمعت بعض الأغصان الجافة. قالت: نسينا الفحم.

قال الجد: اللّه أكبر! ما بذك شُوَك وسكاكين كمان؟!

قال الوالد لإثنين من أبنائه: خذوا الدابة وتنكة املأوها ماء من «القناة».

أعدّ الجد القهوة.

الوالد عصبي يؤرجحه القلق. يفكر بصوت عال ويحاول أن يرسم صورة لما قد تسفر عنه الأمور.

الصغار هادئون يشمّون رائحة الدخان الخانق في الجو.

يحيى يقرأ رواية «خبز وخمر» للكاتب الإيطالي إينازيو سيلونه، مترجمة إلى الإنكليزية.

الوالدة مشغولة بإعداد الطعام.

في أثناء القراءة يسرح ذهن يحيى. هل يستطيع أن يستمر في القراءة في هذا الجو؟ ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟ يحمله الكتاب إلى الريف الإيطالي والحياة القاسية التي يحياها الفلاحون هناك. يبدأ بالتعرّف إلى بعض شخصيات الرواية ويكاد ينسجم. تهبط مطرقة على رأسه: ماذا تفعل؟ هل تدرك أن هذا اليوم حاسم في حياة شعبك وحياتك؟ كل شيء يقف اليوم على مفترق طرق.. ماذا تفعل؟

قال صوت من داخله: وماذا يفعل أولئك الهاربون؟ يحاولون أن يراوغوا الموت. ونحن كذلك دون أن نبعد عن البيت.

ارتعدت أحشاؤه: لعلّ أعتى ما يبطش بالإنسان أن يقف مقيّدًا باللافعل وبالإحباط حيال غول المأساة الذي يهجم عليه. بماذا يختلف عن الحشرة البائسة التي ليس لها إلاّ محاولة الهرب المذعور أمام قوة تمتد لتبطش بها؟ النظر في الكتاب يتيح له أن يبتعد عمّن حوله ليتأمل فيما هم جميعًا فيه. التأمل فعل أيضًا.

تذكّر المثل العامي: «اللي بوخذ أمّي هو عمّي»! مثل موروث عن العلاقات الإقطاعية. الأقنان العاملون عند الإقطاعي يرتبطون بعلاقة إنتاجية بالأرض وبه. لم تكن كذلك عندما باع الإقطاعيون العرب – آل سرسق وغيرهم – أملاكهم في فلسطين لليهود. المالك الجديد لم يرضَ أن يبقَ الفلاحون على أرضهم. طردوهم فوقفوا أمام مصير قاتم – لا أرض ولا بيت ولا عنوان. هذا ما حدث في مرج ابن عامر ووادي الحوارث وغيرها وغيرها.. هنا تغيّر المثل فأصبح: «اللي أخذ أمي بدّش يكون عمّي». لا يريد أن يعترف ببنوّتي لهذه الأم ويريد أن يجرّدها من أمومتها لي.

يرتفع الصوت في داخله: وأنت ماذا تفعل الآن؟ تفكّر؟ لم يسعفك التفكير من

بعض القوات اليهودية تلتف حول المدينة. جماعة منهم تحتل «المرقب» الإسمنتي الذي أقامه الإنكليز في أثناء ثورة ١٩٣٦ على السفح الشرقي المطلّ على جبل سيخ. زخّات رصاص عشوائية تنطلق بين الحين والحين من هذا المرقب.

بعض الدواب والمواشي السائبة المذعورة دخلت إلى أرض الحرية وراحت تعيث في الزرع فساداً. انطلقت جدة يحيى خارجة من المغارة لتطرد الدواب وتحمي المقثاة.

جنّ جنون والد يحيى. صاح بها: إرجعي.. إرجعي.. إنك تكشفيننا للرصاص.

لكنها لم تبالِ وراحت تلاحق الدواب بالحجارة وبالأصوات المنتهرة حتى طردتها.

قال الراوي: أكلت الجدة والعائلة من جنى المقثاة في ذلك الموسم فما أشدّ غيرة الفلاح على ترابه وعرق جبينه.

كل شيء يلتفّ بغلاف من الغموض. كيف وصلت الدبابات إلى داخل الناصرة؟ هل كانت أي مقاومة؟

يحيى رأى الدبابات وهي تجتاز الخانوق وليس من نبأ عن المابعد.

استمر الانتظار والترقّب في المغارة.

لا يزال الرصاص من ذلك المرقب يمزّق السكون بين فينة وأخرى.

الأفق يدمى في وداع الشمس. غبش المساء يموّه معالم الأشياء.

لم يدخل المحتلون إلى القرية ولم يتحرك فيها شيء.

قال والد يحيى: سأذهب لأتفقد الوضع.

أصوات احتجاج من أم يحيى والآخرين: أنت لا تعرف إن كانوا دخلوا إلى البلد من جهات أخرى لا نراها.

- ما معنى أن تذهب الآن في العتمة وفي ساعات الاحتلال الأولى وهي الساعات الحرجة التي أردنا أن نتفاداها؟

لكن الرجل عنيد لم تقنعه تلك الأقوال. حمل بندقيته ونزل عن السفح إلى الوادي ثم صعد نحو القرية.

رأى شبحاً جاثماً امام بيت أبو خليل. حيّاه من بعيد لكنه لا يرد التحية. عندما اقترب منه وجده عجلاً ساهماً لعله يتأمل في ما يحدث لبني البشر.

البيوت حوله معتمة خالية. مضى يطوف في الشوارع حتى وصل إلى الكنيسة الإنجيلية. وجد الباب مفتوحاً على مصراعيه والكنيسة مليئة بالناس المحتمين بحرمتها. إنه لجوء إلى حضن الله.

سأله بعض أولئك اللاجئين: أين عائلتك؟

قال: في الخربة.

قالوا: كيف تنامون هناك وحولكم بنات آوى والوحوش؟

أقنعوه أن ينادي عائلته. قالوا: الموت بين الناس نعاس.

عاد والد يحيى وهو يتأمل عبثية السلوك في مثل هذه الظروف. قال في نفسه: لا بأس!
وقف في أسفل الوادي في العتمة ونادى عاليًا: تعالوا انزلوا.. سننام في الكنيسة.

تمتمت الوالدة شيئًا غير مفهوم.

ليس الأمر سهلاً. ما كادوا يرتبون الموقع ويهيئون الفراش حتى تغيّرت التوجيهات!

قال الجد: لا بأس إذا بقيت بعض الأغراض هنا. لن يجيئ أحد.

تذمّروا.. لكنهم أطاعوا.

أعادوا الفراش إلى البيت ومضوا إلى الكنيسة.

الناس هناك منهم من جلس مستندًا إلى الجدار ومنهم من اتخذ من المقاعد الطويلة مستندًا. وإذا داهم النوم أحدًا أغلق جفنيه وعبث برأسه ورقبته. ذلك نوم لا يطول.

قال الجد مبتسمًا: انظر إلى رافع كيف وضع درعًا من النساء حواليه ليمان قبله إذا اقتضى الأمر.

الحديث كله همس كأنما يخشى الناس إذا رفعوا أصواتهم قليلاً أن يزعجوا الجندي الجاثم في المرقب.

ارتسمت في ذهن يحيى صورة القطيع في حظيرة الغنم. كل هؤلاء «اللاجئين»، مسلمين ومسيحيين، أوكلوا أمرهم إلى مَن ينتسب إليه هذا البيت.

في الصباح كان الاتفاق أن يخرج ثلاثة من الرجال حاملين علمًا أبيض ليسلموا القرية فينتهي التوتر و«تستقر» الأمور.

باب الكنيسة مواجه لذلك المرقب وليس بعيدًا عنه.

ما أن تحرك الرجال الثلاثة بضعة أمتار حتى أطلقت عليهم النار من المرقب فعادوا إلى الكنيسة.

لم يجئ أحد إلى البلد اليوم.

التوجّس في الذروة. ما زال المصير غامضًا. أليس من المفارقات أن ينتظر الناس المحتل ليجيء فيستريحوا!! لا يستطيع أحد أن يصل إلى الناصرة ليعرف ما يحدث هناك.

يعود يحيى إلى البيت. البطارية التي يتغذى منها الراديو ما زالت حيّة. الإذاعات العربية تتحدث عن معارك تدور في شوارع الناصرة والأغنية «خلّ السيف يقول»

تطعن الآذان بالمفارقة المأساوية .

قال الشارح: لم ترتفع يد تقاوم في الناصرة . وقّع على وثيقة التسليم المشتملة على أحد عشر بندًا رئيس بلدية الناصرة ورئيس اللجنة القومية ورئيس أملاك وقف الروم وضابط بوليس الناصرة واعتبرت المدينة منذ الساعة السابعة والربع من مساء السادس عشر من تموز سنة١٩٤٨ في القبضة الإسرائيلية .

انقضى اليوم التالي ولا يزال الناس ينتظرون جيش الاحتلال .

جاءوا في اليوم الثالث . طافت بالقرية سيارات جيب عليها مدافع رشاشة جديدة لونها كحلي غامق يتلألأ في الشمس .

حضر ضابط عسكري إلى بيت الوجيه حنا خميس . طلب أن يسلم أهل القرية ما عندهم من أسلحة . بعد نقاش وافق أن يوقع على وصل فيه أسماء الذين سلّموا أسلحتهم ونوع كل قطعة .

قال الشارح: بعد حين عرف الناس قيمة هذا الوصل عندما طُلب إلى البعض تسليم أسلحة كانوا قد سلّموها يومذاك .

(مقاطع من الجزء الثاني من السيرة الذاتية - «ظل الغيمة»، المعد للطبع)

شاعر وكاتب فلسطيني مقيم في حيفا

دافيد چروسمان

لست هنا لتترجم كلاً منّا للآخر..

عزيزي إميل، السلام عليكم.

خمس سنوات بعد وفاتك وأنا مع كتبك ومع ذكريات من عدة محادثات جرت بيننا، ومن رحلات مشتركة لنا الى خارج البلاد، ومن رحلة ليلية في القطار من باريس الى بروكسل، حيث حدثتني عن طفولتك وعن سنوات صباك وعن تلك الليلة التي اتضح لك فيها انه قد «راحت فلسطين».

وأنا أحاذر من أن يشتد بي الشوق وتداعب قلبي الأمنية لو انك هنا معنا لما تغيّرت، ولما ضللت الطريق، ولكنت ايضًا ترشد إليها الآخرين يهودًا وعربًا، الذين حيّرت عقولهم احداث السنة الأخيرة.

ولكنك كنت انسانًا يتورّع عن كل مثلنة، وحتى لذاتك، وانا لا الزمك اليوم في غيابك بموقف سياسي معين. ومع ذلك، وبما ان كل شيء من حولنا ينهار وينجرف، وبما ان «الوضع» يصادر حميمية كل واحد منا، ويحولنا – وأنت بالذات – الى ما يشبه الـ«رموز»، الى ممثلين لتيارات وأفكار، فانني أجد نفسي جالسًا لاكتب الى الشخص الذي عرفته. الشخص الذي حدثني كيف كان يخطب من على منبر الكنيست، بلغة عبرية طليقة، كانت مكتوبة بحروف عربية. الرجل الذي طلب مني ذات مرة في اوروبا في مدينة مكسوة بالثلج ان نمشي معًا «انكاجيه» لكيلا تنزلق أقدامنا على الثلج الدقيق الغادر، وبعدها عندما وصلنا الى شاطئ الأمان قلت لي «أترى؟ فقط هكذا يمكن».

خمس سنوات بعد موتك. تلك الايام البعيدة، ايام بداية محاولة المصالحة بين الشعبين، ايام بداية عملية اوسلو، تبدو اليوم وكأنها مرحلة خلاص قصيرة وخدّاعة، خلال مرض عضال، لا نجاة منه، عرفت مسبقًا. في آذار ١٩٩٣ قلت لي: «سأموت قريبًا، وأنا لا أحسدكم، جميعًا»، وقمت بحركة عريضة شملت الجميع، حركة صياد يرمي الشبكة.

عزيزي إميل، من مثلك عرف ان الشرق الأوسط كان منذ الأزل، مكانًا صعبًا وعنيفًا،

يولد اولاده وهم يحملون السيف ويموتون بالسيف . « انهن يلدن وهن يركبن القبر » كتب بيكت في « في انتظار جودو » دون ان يعرف انه يكتب عنا هنا .

خمس سنوات بعد وفاتك، واكثر من أي وقت مضى في السنوات الاخيرة، خيل الينا بأن الطموح بخلق « شعب اسرائيلي » واحد، مع ثقافة مدنية مشتركة، هنا، حُكم عليه، على ما يبدو، بالا يتحقق في السنوات القريبة، وبالتأكيد ليس قبل ان يُحلّ ويهدأ النزاع مع الفلسطينيين الذين وراء الخط الاخضر المستقبلي .

وعلى ما يبدو سنضطر جميعًا – يهوداً وعربًا داخل دولة اسرائيل – الى العيش سنوات طويلة أخرى في حالة انقسام داخلي، في ضبابية مرهقة لمصطلحات الجنسية، والهوية، والتعاطف مع الاهداف الكبيرة للدولة . هكذا سنعيش في حيرة لا حل لها « من نحن »، وما هي الدولة التي نريدها ان تكون لنا، وما نوع الديمقراطية التي ستسود هنا . هل « الآخر » الذي معنا هو بالضرورة « عدو » ايضاً، وهل العدو هو الفلسطيني الذي في داخل اسرائيل، الذي يطالبنا بأن نتعامل معه بمساواة كاملة، ام ترى هو اليهودي الذي يريد ان يقيم هنا دولة أپارتهايد ؟

هكذا سنعيش على ما يبدو سنوات طويلة، داخل تناقضات داخلية قوية، ستقودنا بين الحين والآخر الى حالات من التوتر والضيق، والى مواجهات « موسمية » عنيفة بين اليهود والفلسطينيين، مواجهات توفر لكل واحدة من هاتين المجموعتين أسبابًا للشعور بالقلق، والغربة في وطنها، وبالعداء للمجموعة الاخرى .

في هذا المناخ القاسي، في هذا الاغبرار، يجب ان تعمل القوة الثانية، المقابلة . قوة من لا يعيشون في الاوهام . اولئك الذين يعرفون جيداً مدى خطورة الوعد القومجي بالترجيح الواضح الى هذه الجهة او تلك .

وهذا هو المكان الذي نفتقدك فيه . بين اولئك من بيننا من لا يريدون ان يغتروا بالاوهام . اولئك الذين يعرفون انه لا توجد الا طريق ممكنة واحدة تحول دون هدم وانهيار كلتا المجموعتين، وهي طريق التعاون الكامل والمساواة المطلقة، اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا . هذه هي طريق الاعتراف بالمسؤولية عن المعاناة طويلة السنين والظلم المتواصل اللذين سببتهما الدولة لمواطنيها الفلسطينيين؛ وهذه هي الطريقة التي يتكون بها التفهم الحقيقي لدى المواطنين الفلسطينيين لوعي وقلق الأغلبية اليهودية؛ وستتبلور في نهاية المطاف مكانة الفلسطينيين الخاصة، كأقلية قومية كبيرة داخل الدولة ذات السيادة، اسرائيل، والغائبون يتحولون الى حاضرين وشركاء متساوين .

ستكون هذه طريقًا بطيئة ومحبطة . من وراء الحدود ستبقى دول ومنظمات تُفعّل كل

قوتها ومواردها الكبيرة، من اجل تاجيج العداوة بين اليهود والفلسطينيين داخل اسرائيل.

كذلك في داخل اسرائيل نفسها ستهيج وتُهيّج العناصر الإنفصالية من جهة والترانسفيريون من جهة أخرى. فهم سيتوجهون الى الغرائز والى شهوة الدم، وسيحمسون بشعارات لها قوة سحر الكل، المطلق – القومي او الديني – الذي يطل ساخرًا من الواقع الجزئي، الناقص، والمتنازل.

وفي داخل هذا الحقل المغناطيسي السالب الذي احدثوه، وفي صميم هذه الضوضاء والعنف والحماس الذي ينشرونه من حولهم، سيضطر الى العمل اولئك الذين سيحاولون راب الصدع المرة تلو المرة، وتعزيز جهاز الشفاء، وذكر الخطر الكبير الكامن في التفكك. سيكون ذلك عملاً سيزيفيًا، لأن الإنسان شرير بطبيعته. وانه لكي يكون الشخص «انسانًا» حقًا يجب عليه ان يعمل بعض الشيء ضد الطبيعة الانسانية. على عكس القلق والمخاوف، وكذلك على عكس ما يتجمّع من تجارب. سيكون ذلك صعبًا، واحيانًا ميئسًا واحيانًا بطوليًا، ولكنه دائمًا – امتحان أخلاقي من الدرجة الاولى، للشعبين. سيكون ذلك مثل نقل شمعة مشتعلة في عاصفة كبيرة. وكما هو معلوم توجد طريقة واحدة للقيام بذلك: التركيز على الشمعة.

عزيزي إميل، عندما اقراك، في «المتشائل» وكذلك في «اخطية» مشاعري الضبابية تتبلور الى إدراك: نحن شعبان مختلفان عن بعضهما البعض، ويشبهان بعضهما البعض كثيراً جدًا. في جروحهما، في مزاجيهما، في الحماس، والعواطف، والطموحات، في حاسة المقامرة، وفي قدرتهما العجيبة على التدمير الذاتي. شعبان يتحركان على خط تقارب وتباعد واحيانًا على مسلك تصادم. اننا نتارجح بين عدم الفهم المطلق الواحد للآخر، وبين التفهم العميق الزائد، الذي يخترق وينزل الى الطبقات السفلى في لاوعي الآخر واحيانًا ينكّل به هناك.

وانت لست هنا الآن، لتصوغنا ولتترجم كلا منا للآخر، لتقرأ الواقع اليهودي بحروف عربية، وبالعكس، لتعرفنا من داخلنا، لتسخر بعض الشيء منّا جميعًا، لتعيدنا الى حجمنا الانساني، مُحتمَل، لنا بعض العيوب، ونستحق الشفقة دائمًا.

(أيار ٢٠٠١)

المؤلف روائي إسرائيلي

الترجمة: جميل غنايم

حسونة المصباحي

رسالة إلى إميل حبيبي

خريف ١٩٩٥، صبيحة يوم تغلّفه غلالة من الضباب الخفيف، جاءني صوتك متعبًا عبر الهاتف لتقول لي إنك في فرانكفورت لحضور فعاليات المعرض الدولي للكتاب وأنك تشتهي أن تراني. واعتذرت لأنني كنت أهيئ نفسي للسفر إلى لندن فرددت عليّ أنت بتلك الحدّة المحبّبة إلى نفوسنا نحن الذين أحببناك منذ أن قرأنا رائعتك: «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النّحس المتشائل» واعتبرناك أستاذًا وأبًا روحيًا: «وماذا تفعل هناك في تلك المدينة المليئة بالعرب الفاسدين.. تعال إلى هنا وسوف تقضي وقتًا ممتعًا!». ولكن كان من الصعب عليّ أن ألبي طلبك. فقد كانت حقيبتي جاهزة. وكان رأسي وقلبي قد سبقاني إلى مدينة شكسبير فما عاد هناك لا وقت ولا فرصة للتراجع. وعندما جاءني خبر وفاتك بعد ذلك بأشهر اجتاحني حزن أسود ليس فقط لأني لن أراك مرة أخرى، وإنما لإحساسي بأنني خُنتك في تلك الساعة الحاسمة التي تسبق الرحيل الأخير. وحتى هذه اللحظة لا يزال الندم يقرصني بسبب ذلك. وهذا الصباح وأنا أستيقظ، سمعت صوتك المتعب وأنت تلحّ عليّ في القدوم إلى فرانكفورت. فلكأنك لا زلت حاضرًا بيننا بقامتك الفارعة، وشعرك الأشيب الغزير، وابتسامتك الساخرة، وسيجارتك التي تأبى الانطفاء، ومشيتك البطيئة، مشية المسافر الذي أرهقه الترحال فما عاد يطيق السير على وجه الأرض إلاّ قليلاً..

كان لقائي الأول بك في صيف ١٩٨٩ في برلين قبل بضعة أشهر من انهيار جدارها. وكان ذلك بمناسبة المهرجان الثقافي الضخم «الغرب – الشرق» الذي حضر فعالياته عدد كبير من الكتّاب العرب، وخلال تلك السهرة الطويلة والممتعة التي أمضيناها في مقهى «أينشتاين» الشهير، تمكّنت من أن أقترب منك، ومن أن أتحدث إليك. وشدّ ما كنت سعيدًا حين اكتشفت أن كتاباتك تعكس شخصيتك. فأنت ساخر ومرح وفصيح اللسان وصريح وطيب القلب وصاحب نكات ظريفة، ومطّلع اطلاعًا واسعًا على التراث العربي، وعلى التراث الفلسطيني بالخصوص. ومثل كل المبدعين الكبار، كنت قادرًا على أن تشدّ

الانظار والاسماع لوقت طويل. فكانت السهرة سهرتك بامتياز. وكنا نحن التلاميذ المعجبين الذين يقتصرهم دورهم على الإنصات. فإن تكلموا، فلكي يطرحوا عليك سؤالاً أو يدلوا بملاحظة تفتح شهيتك لمواصلة الحديث.

ولما بدأت تباشير السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين تلوح في الأفق إثر تلك المصافحة التاريخية بين إسحاق رابين وياسر عرفات، جئت إلى أصيلة لحضور فعاليات مهرجانها الثقافي. ومرة أخرى وجدت الفرصة سانحة للاقتراب منك، والاستمتاع بحديثك، والاستفادة من أفكارك. وفي البداية حاولت أن تلجم أولئك المثقفين الذين يتقنون فنّ العنتريات محاولين أن يخفوا وراء ذلك جبنهم وخواءهم. فلما أدركت أن جهودك لن تصيب هدفها، انصرفت عنهم غير آسف، ولم تعد تتحدث إليهم إلاّ في ما ندر. فإن هم رغبوا في فتح باب النقاش معك، فررت منهم كما لو أنك تفرّ من مصابين بالجذام لتعتصم بغرفتك بالفندق أو لتجلس قبالة البحر الذي تحب صامتًا ساكنًا كما لو أنك تمثال إغريقي قديم. والحقيقة أنه ما كان على هؤلاء المثقفين الأدعياء أن يفتحوا أفواههم للنيل منك، أو لانتقاد مواقفك أو للتشكيك في شجاعتك وفي إخلاصك لشعبك ووطنك. فأنت من أولئك الذين اختاروا البقاء على الأرض التي كانوا يرغبون في اقتلاعها منك بقوة السلاح مثلما فعلوا مع الغالبية الساحقة من أبناء شعبك. ورغم الأهوال والكوارث التي واجهتها مع أبناء وبنات بلدك الذي سرق منك ومنهم في واضحة النهار، قررت أن تظلّ في حيفا التي أحببتها، وأحببت بحرها وأوصيت أن تُدفن فيها وأن يُكتب على قبرك: «باقٍ في حيفا». وبقلمك الناري دافعت عن حقوق ووجود لا مَن تبقّوا معك فقط، بل وأيضاً عن أولئك الذين تفرقوا في المنافي، وباتوا لاجئين في الخيام المنصوبة في الصحاري والمفازات الموحشة، يعتاشون من مساعدات وكالة الغوث الدولية. ولأن أولئك الذين جاءوا من بعيد راكبين الأساطير القديمة لاستباحة بلادك، كانوا يبتغون نسف هوية شعبك ومحو ذاكرته من الوجود، فإنك فعلت كل ما في وسعك لإفشال برنامجهم الجهنّمي ذاك، مبقيًا على نضارة ثقافتك الوطنية، ومحافظًا على لذّة ما كنت تحبّ أن تسميه بـ«الصحن الفولكلوري» الفلسطيني، الذي سيكون في ما بعد أحد الينابيع التي غذّت أعمالك، وخصوصاً رائعتك الأولى: «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»؛ وهكذا تمكّنت من أن تثبت أن قوّة الكلمة يمكن أن تكون، إذا ما أجيد استعمالها، أنجع من قوة السلاح وأجدى نفعًا منها. وفيما كان الشعراء والكتّاب الآخرون حريصين على أن يرسموا صورة جد مثالية للفدائي الفلسطيني، وحتى للفلسطيني العادي، ساعين من خلال ذلك إلى نسيان ما حلّ بهم من مآسٍ وفواجع، وما يتعرضون له من الإهانات اليومية، خيّرت أنت

ان يكون بطلك فلسطينيًا جبانًا، هشًا، خائنًا لا يخشى الاعتراف بعيوبه السبعة، ولا يميّز بين التشاؤم والتفاؤل، فهو يقوم في الصباح من نومه فيحمده على أنه لم يقبضه في المنام، فإذا ما أصابه مكروه في يومه يحمده على أن الأكره منه لم يقع. ومن خلال هذا «المتشائل» كما أحببت أنت أن تسميه، تمكّنت من أن ترسم صورة جدّ مثيرة وجدّ نابضة بالحياة لمأساة شعبك ووطنك. ومن خلاله أيضًا هشمت صورة البطل الإيجابي والمثالي الذي لا تأتيه الهزيمة لا من الخلف ولا من الأمام والتي ظلّت تغذّي الثقافة والسياسة عند العرب منذ عصور ما قبل الإسلام وحتى هذه الساعة. وهذا في حد ذاته شيء رائع وعظيم!

وكان قبولك للجائزة الأدبية التي تمنحها إسرائيل لكبار المبدعين سببًا في إثارة تلك العاصفة الهوجاء التي استهدفتك مبدعًا وإنسانًا لا في فلسطين وحدها، وإنما في كامل أنحاء العالم العربي. فقد شنّت أعداد وفيرة من المثقفين والشعراء الفلسطينيين والعرب معركة حامية ضدك، ناعتة إيّاك بأقبح النعوت وأسوأها. بل أن البعض منهم لم يتردد في اعتبارك «خائنًا» لوطنك ولقضية شعبك. دليلهم على ذلك أنك قبلت أن تتسلم جائزة من يد من نكّل بشعبك وقتل أبناءه أو شردهم في المنافي، ولكنك واجهت العاصفة بشجاعة ورباطة جاش كما هو حالك دائمًا. فأنت الذي عشت في «شدق الذئب» كنت تعلم جيدًا أن قبولك للجائزة لا يمثل تنازلاً لأحد، وإنما هو انتصار كبير توّج تلك المسيرة النضالية الشاقة والطويلة التي أجبرت العدو أخيرًا على الاعتراف من خلال روائعك الأدبية بهوية شعبك التي كانت ولا تزال مهددة بالانقراض. وكنت لا زلت تعاني من تبعات تلك العاصفة لما التقيت بك ثانية في أصيلة، تلك المدينة المغربية الجميلة التي دأبت على تضميد جراح من يحبونها من أهل الثقافة والأدب والفن، والذين يجيئون إليها كل صيف من كل حدب وصوب ليعيشوا فيها أيامًا من السلام والهدوء والأمن. وجدتك متعبًا، ربما لأن المرض الخبيث الذي سوف يقتلك قبل مرور أقل من عام على ذلك، قد بدأ يفعل فعله في جسدك. ولاحظت أن حركتك ازدادت بُطئًا وأنك بدأت تجد صعوبة في الوقوف وفي التنقّل. ورغم أنك حافظت على بسالتك، وعلى حبّك للحياة فما كنت تتركنا إلّا عندما يكون الليل قد اقترب من نهايته ولفّت تلك الفتاة المغربية السمراء التي كانت تعشق أدبك وتحرص على حضور جلساتك الصاخبة، الوشاح الأزرق حول رقبتها احتماء من برد الفجر الذي بدأ يلوح في الأفق. وربما يكون ذلك اليوم الذي أمضيته معك في فندق «المنزه» بطنجة ولا رفيق لنا سوى زجاجة «جيفاس» أتيت عليها وحدي تقريبًا، من أجمل أيام حياتي. فيومها حدثتني بصراحة عن طفولتك، وعن أيام المحنة الكبرى، محنة ١٩٤٨، وعن نضالاتك في صفوف الحزب الشيوعي، وعن عملية السلام، وعن الجائزة وعن.. وعن.. ويومها قلت لي:

«في البداية كنت أعتقد أن السلاح أنفع وأجدى من الكلمة لاسترداد الحقوق المشروعة لشعبي. لذا خضت النضالات في الشوارع وفي الميادين العامة، وقدت المظاهرات، وخطبت في الجماهير، وفعلت كل ما في وسعي لأكون حاضرًا في قلب الحياة السياسية الفلسطينية.. ولكن مع مرور الزمن وتراكم التجارب أدركت أن الأدب أكثر نجاعة أو قدرة على التأثير. وأعتقد أن أعمالي الأدبية التي كتبتها من وحي مأساة شعبي هي التي تمثلني أكثر من أي شيء آخر. مع ذلك لست نادمًا على ما فعلت. فأنا عشت الحياة التي اخترت أن أعيشها أو قدر لي أن أعيشها».

في اليوم ذاته، أظهرت تفاؤلاً بالسلام وقلت لي بأن شعبك تعب من الحروب وأنه آن الأوان لكي يستريح ويضمّد جراحه أو يستعيد أنفاسه بهدف إعداد نفسه لبناء دولته وإعادة ترميم هويته. وفي النص / الوصية الذي وضعته قبل وفاتك بقليل تحت عنوان: «سراج الغولة» أو «لا تطفئوا هذه الشمعة»، كتبت تقول: «أعرف أننا سائرون الآن – فلسطينيين وإسرائيليين – في مسيرة سلمية بدأ شعبانا يريان عبرها الضوء في نهاية دياميس العداء المتبادل وأنهار الدم أجيالاً متعاقبة (...) كلانا جرّب وفشل. شعبي العربي الفلسطيني أدرك أن الوجود الإسرائيلي في فلسطين ليس ظاهرة عابرة، إن خيرًا وإن شرًا. ومن المستبعد أن يكون شعب إسرائيل، بعد تجربته القاسية هو أيضًا، أقلّ وعيًا من الشعب العربي الفلسطيني في هذا المجال المصيري. فهو أيضًا جرّب وفشل. ومن المفروض فيه أن يكون أدرك هو أيضًا، أن الوجود العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين ليس ظاهرة عابرة. فالشعب العربي الفلسطيني أثبت حتى داخل إسرائيل نفسها أنه غير مؤهل للزوال من وطنه الذي لا وطن له سواه». ومتفائلاً بالمستقبل، كتبت تقول في مقال نشرته مجلة «الوسط» اللندنية فاتح العام ١٩٩٦: «ها هو شعبنا العربي الفلسطيني يعود رويدًا رويدًا، شعبًا طبيعيًا – كما الشعوب في سرائها وفي ضرائها – بعودته إلى وطنه فلسطين. حتى ولو كانت هذه العودة أشبه بعودة الجندي الأسير من أسره، عودة تثير القيل والقال ممن يسوى وممن لا يسوى».

نعم كنت تريد السلام حتى ولو كلّف ذلك شرب الكأس، الأشدّ مرارة. وكنت تريد أن يعود شعبك إلى أرضه وأن يمحو من ذهنه وإلى الأبد أن «إخوانه العرب» سوف يساعدونه على استعادة حقوقه المشروعة. فأنت أكثر من يعلم بأن من «الأخوة العرب» بانفعالاتهم وعنترياتهم وأنظمتهم الفاسدة وحكامهم الطغاة لم يفعلوا شيئًا آخر غير تعميق الجرح الفلسطيني، والزيادة في تعفّنه وتقيّحه حتى بات شعبك على وشك الانقراض. ولأنك كنت تعلم أيضًا أنه لا جدوى من انتظار الفرج من خارج شعبك ومن خارج قدراته العينية، كما كتبت في «النص – الوصية»، فإنك حرصت دائمًا على رفض تدخّل الأنظمة العربية

في الشأن الفلسطيني. وعندما وقف جلّ المثقفين الفلسطينيين والعرب إلى جانب صدام حسين عند غزوه الكويت، وهلّلوا وكبّروا لمّا ضرب إسرائيل بالصواريخ معتقدين أن ذلك لن يعدو أن يكون بداية «النصر» المرجوّ، صرخت أنت غاضبًا ومحتجًا. وبشجاعتك المعهودة أدنت تلك الأفعال الحماسية المجنونة، وتلك السياسة الهوجاء التي لم تخلف سوى الرماد ولم تفض إلاّ إلى المزيد من الكوارث ومن الهزائم. وقد كنت على حق. فبسبب ذلك يموت الآن الآلاف من أطفال العراق بسبب الحصار الذي جرّه زعيمهم الأوحد على بلادهم بفعلة الغزو الشنيعة. وأما الخسائر التي مُني بها العرب من المحيط إلى الخليج فهي لا تحصى ولا تعد. ومن المرجّح أنهم سوف يظلّون يعانون من تبعاتها عقودًا طويلة أخرى.

والآن ما أظنّ أنك مرتاح النفس في قبرك في حيفا. فالعنف والجنون الأسود باتا سائدين في أرض الأنبياء. ومن جديد دخل شعبك الداموس المعتم التي ظننت قبل رحيلك أنه خرج منه وإلى الأبد. وها هو يعيش مرة أخرى أيامًا سوداء قاتمة تذكر بأفظع وأمرّ الفترات التي عاشها خلال الخمسين سنة الماضية. فقد أطلق أرييل شارون العنان لجيشه لكي يرتكب المجازر والفظائع في المدن والقرى والملاجئ الفلسطينية ويهدم المنازل والبيوت وأكواخ الطين على رؤوس أهلها، ويدمّر البنى التحتيّة للدولة الفلسطينية المرجوّة، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ، باسم «الحفاظ على أمن إسرائيل» و«محاربة الإرهاب» ناسفًا بذلك تلك الآمال الصغيرة في سلام عادل بين شعبه وشعبك. ومنذ أشهر لم تعرف بلادك النبيلة صباحات دون دماء وأحزان ودموع، ولا ظهيرات دون نكبات وجنائز ولا مساءات دون خوف ومجازر. فكان ربيع هذا العام، ملطخًا وملوثًا بدماء شهداء جنين ورام الله وبيت لحم والقدس وغيرها من مدن وقرى الضفة. وأنا أعرف جيدًا الموقف الذي سوف تتخذه لو كنت حيًا إزاء هذه السياسة المجرمة التي ينتهجها أرييل شارون وجيشه، وحزبه، حزب «الليكود» المقيت الذي طالما حاربته وحاربك، وكانت المعارك بينك وبينه حادة وضارية طول الوقت. ولكني لن أتردد في القول بأنك سوف تدين العمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين الإسرائيليين بالخصوص والتي تحرّض عليها وتعدها بعض الفصائل الفلسطينية المتطرفة التي كنت في حرب معها هي أيضًا بسبب تزمّتها وتشدّدها ورفضها للسلام المرجوّ. فكأنها لم تستخلص العبرة من دروس الماضي ولم تدرك بعد أن مواجهة العنف بالعنف لا تخلّف سوى الدمار والدم، وإن الرد بالكراهية على الكراهية لا يقود إلاّ إلى كوارث وفواجع أمرّ وأشدّ من تلك التي ابتلى بها شعبك منذ نشأة دولة إسرائيل وحتى هذه الساعة. ثم أنك كنت من بين المثقفين الفلسطينيين القلائل الذين أدركوا تلك الحقيقة التي عبّر عنها الرائع ألبير كامو ذات يومًا حيث قال: «لقد تعلّمنا عكس ما فكّرنا أحيانًا، بأن الفكر لا يستطيع أن يفعل شيئًا

ضد السيف غير أن الفكر متوحّدًا مع السيف هو المنتصر الأبدي ضد السيف الذي يشهر مفردًا . لذا فإنك سوف ترفع صوتك عاليًا لإدانة الإرهاب الأعمى مطالبًا بأن يكون الفعل النضالي متوحدًا مع الفكر ومنسجمًا معه حتى لا ينقطع الحبل ويسقط الجميع في البئر السوداء . إن حب الوطن شيء رائع . ولكن لا يجب بأي حال من الأحوال أن نبرر باسمه كل عمل نقوم به ، بما في ذلك إرسال أبنائنا ليتناثروا فتاتًا من اللحم في محطات الباصات ومطاعم الأكلات السريعة في تل أبيب والقدس وحيفا وغيرها من المدن . فالذين من أبناء شعبك يقاتلون تحت نفوذ الغضب الأعمى وحده ، أثبتوا من خلال إرسالهم الأطفال والفتيان الفلسطينيين إلى الموت ، أن بيساريف ، المنظر الروسي للعدمية ، كان على حق عندما قال ذات يوم : « إن الأكثر تزمتًا وتشددًا هم الأطفال والشبّان » ، ناسين أن بلادهم في حاجة إلى أبنائها الذين هم في عمر الزهور لكي تجد لنفسها مكانًا تحت الشمس بعد كل العواصف والزوابع التي عرفتها وتعرفها .

مطلع العام ١٩٩٦ ، كتبت في مجلة « الوسط » تقول حادسًا بأن موتك وشيك : « لم يتبقَّ من القرن العشرين ومن الألفية الثانية على هذه الحضارة سوى أربعة أعوام . فمَن من أفراد جيلي ، جيل القرن العشرين ، سيقيّض له الاحتفال معكم بليلة رأس السنة الأولى من العام ٢٠٠٠ ؟ يقينًا أن الموت حق على أبناء (وبنات) آدم وحواء ، وصدق أبو العلاء المعرّي في قصيدته الشهيرة : « غير مجد . . » إذ أشار إلى المعنى ذاته الذي يدور في خلدي وأبرر به استمرار بقائنا فوق مسرح الحياة ، أتشبّث به على الرغم مما في الشيخوخة من الآم تجعلنا أقرب إلى المقعدين المحترمين حتى يجاز لهم أن « يبقّوا الحصوة » . أصبحنا على قرب عهد الحياة بنا من الأباء والأجداد في حياتنا . لم نرتكب القبيح الذي حذّر المعرّي من مغبّته ، وننتظر المثل من أبنائنا وأحفادنا حتى لا ينقطع حبل التجربة . فهم جديرون بأن يردوا التحية بأحسن منها » .

وظنّي أن جميع أبناء بلدك مطالبون الآن بأن يحيّوك التحيّة اللائقة بك ، أنت الذي مشيت طول حياتك وبين يديك الزوابع والعواصف ، وحملت معك إلى مأواك الأبدي الأمل في أن يتمتع شعبك ذات يوم بالسلام والأمن والطمأنينة . فكنت أحد الرموز التي سوف يظلّ يفتخر بها إلى الأبد . .

(أيار ٢٠٠٢)

روائي تونسي مقيم في ميونيخ / ألمانيا

ثقافة عبرية»

آچي مشعول

يَدٌ وَاحِدَة

يَدٌ واحدة تخلطُ الكَرْنَب
يَدٌ واحدة تُديرُ قُرْصَ الحُبّ
يَدٌ واحدة تنقرُ في الأنف
يَدٌ واحدة تُصَفِّقُ بالكَفّ
يَدٌ واحدة تُمْسِكُ بالقلَم
يَدٌ واحدة تطيرُ كَالجناح
يَدٌ واحدة تُخْفِي يدًا
تُخْفِي يدًا تُخْفِي يدًا
وَطرُومبِلْدُور كانَ أجْذَم
يَدٌ واحدة في المِحْراث
يَدٌ واحدة كانَ أجْذَم

السّهل الدّاخلي

هنا
في السّهل الدّاخلي
أرعى مع الووكمان في المَرْج
أنتقي لي عصا
أفتحُ كوز رمّان
أصفّرُ للكَلْبَة

إلى قائمة الأشياء الّتي تُسبّب لي قُشَعْريرة
أضفتُ هذا الصّباح بيلي هوليداي تُغنّي:
I'm so lonely

تَجَلٍّ

في الصّباح الباكر جدًّا
رأيتُ على حبلِ غسيلي
ملاكًا ورديًّا عالِقًا في مِلقط
وقطًّا أسْوَد
تحتَهُ
يُحاولُ الإمساك
بِكُمّه.

أنفخ الرّوح

أتذكّرُ خطابًا صغيرًا كتبتُه
بيني وبين نفسي عن
أنّي أردعُ حياتي
كي أُنصتَ للشِّعْر
الّذي سيأتي إذا ما
اختصرتُ الطّريقَ إليه

بدلَ ذلك، أنفخُ الرّوح

في عشيقٍ ما مَرْحوم
أُجَنْدِلُهُ بِسنانِ القَلَم
على حَلَبةِ الوَرَقة
وَأَغُدُّ حتّى تسْعَة .

نوكطورن II

(أ)
داخلَ البيت
كُلّ شيء مخزون :
السُّكَّر في القارورة
الخبزُ في صندوق
الخُبز،
السّكّينُ في الجارور
الطّعامُ في الجَفْنَة،
الرِّياحُ العاتية
بين ثنايا السّتارة
الشّيءُ فوقَ الآخر
الملاحفُ
المخدّاتُ،
الكَلاسين
وَالصّدريّات،
كُلّ شَيْء مخزون :
الموسيقى في شُقوق الإسطوانات،
الفَارُ في العليّة
الأشياءُ المرفوضة .

(ب)

إذا قامت المرأةُ من فراشها
وَفتحت البرّاد،
يمكنُ رؤيةُ مُحيّاها،
يمكنُ رؤية نظراتها
في الجبنة الّتي تنظر إليها من ثُقوبها،
لكنْ في هذا الضّوء الشّاحب،
يُرى جوعُها مفتوحًا
على ضَوء آخر
وليسَ للأزرق المتراقص
في شاشة التّلفزيون،
وليس للأحمرِ المُشعّ
من ساعة المُنبِّه،
أو لِتيُّون القمر
الّذي يُشعُ اباجورة رُوحِها.
هي بحاجة
إلى ضوءٍ آخر
في اللّيل المُنتظر كاريكةِ جِلْد سوداءَ
لابتلاعها.

(ج)

لا أقفُ هكذا دونما سببٍ في اللّيل
مائلةً نحو المغسلة
أشْعِلُ مَنْصِبي
وأغنّي للبعيد:
سرْبُ أسماكٍ مُسافرة

لانّ كلّ
ما لهُ حَولٌ وقوّة
يبتعدُ عن الأرضِ:
دخانُ المدخنة،
الصّلاةُ،
قفزاتُ السّعادة

لكنّ أهلَ البيت يتنفّسون كما الاغنام
نائمون في الغرف واللّهُ حارسُهُم

وتحتَ البيت مياهُ الجوْف
وتحتَ الجوْف
لاڤا منَ الكَسَل.

وداع

«ابريل هو ألامُ الشُّهور
يخلطُ الذّاكرة بالشّبق» ت. س. إليوت

عقابًا لكَ على موتكَ
ينفونكَ الآن
إلى مدينةٍ جديدة،
بيوتُها صَغيرة.

مُلتفعًا بثياب التّرحال
البيضاء –

الموضة العتيقة ذاتها،
يُجرّدونكَ من اسْمِكَ
الشّخصي

وغصبًا عنكَ
خوْضٌ، قسيمة صفٍّ
تُعطيكَ عنوانًا آخر.

وانا أخزُ أصابعي
بأشواك الـ «بلُو مُونْ» الزّرقاء
الّتي تنشرُ رائحتها البَضّة
من حِضْني

وأرَى كيفَ يَشْتُلُونك
في بُستان المَوْتى الكبير
وما مِنْ مَطَر،
حتّى أكثرُهُ رياءً،
سيُنبِتُكَ ثانيةً
أبدًا.

الهدوء

أنا هُدُوءُ الغُرْفة.
كُلّما دققْتُ غَلَطَ
الصَّخَبُ في رُؤُوسِكُمْ.

أنا مَنْ يُخمِّرُ الكَلِماتِ الَّتي
ستأتي.

أنا الحُفْرَةُ الَّتي يُمْكِنُ
مَلْؤُها بالكَلِمَة.

لَنْ تُفْلِحُوا بالإفلاتِ منِّي،
أنا الطُّمَأْنينَةُ في قَلَقِ
جَسَدِكُمْ

أنصبُ لكمْ كميناً في طرفِ
أياديكُمْ المبسوطة
الضّحكات
القهقهات
الحركات الخفيفة
على الكرسي.

أنتم تقلمونني
من رؤوسِ الأظافر،
تلتقون بي
في السّقف
في الجدران
في الأشكال الغريبة الّتي
تنبتُ في البلاطات.

أنا الإنصاتُ الكامن في كلِّ شيء
أنا هو من ينبلجُ فيكم
الآن.

وفاق

أبي العجوز، المُنهَك،
عادَ من بين الأموات ليغفو في صالوني
على الأريكة الجلديّة.

جاء بثيابه الجميلة –
بدلة، ربطة عنق،
أوروبيًّا ألقت به رجلاه بين آسيويّين.

أنا الآن صرتُ والدةً لوالديّ
ولا شائبة بقلبي تجاهه
أقترب منه من الوراء
وأربّتُ على كتفهِ كَفِعْلِ رجلٍ
على كتفِ زميلِه:

«يا لكَ مِنْ ساذج يا أبي»
أقولُ لهُ،
وأقصدُ صنفَ الرّجالِ الّذِينَ
كُتبَ عليَّ أنْ أعشقَهم طَوال عمري
بسببِه.

قصيدة حبٍّ

علامَ ترحلُ بعيدًا
بحثًا عن العجائب،
بينما هي بين رجليّ؟

تعالَ إليّ
عميقًا
إلى رحمي

لانّ المساءَ ارخى سُدولَهُ
وانطفأ البُرتقال.

پاپوا نيو-غيني

أُحبُّ انْ اقول پاپوا نيو-غيني.
وإلاّ لـمَا كُنتُ أتيتُ إلى هُنا.

زَوْجي انطونيو يَضُمّني من الوراء ويهمس
قبلَ انْ ينام:
حِبّيني اكْثرَ مِمّا أُحبُّكِ

وَانا الالطفُ وجهَهُ وأُحبُّهُ اكثرَ
مِمّا يُحبّني
وعلى كلّ حال لا يَهمّني لأسبوع
انْ احبّه اكثر، في نِهاية المطاف
صَعْبَةٌ حَياةُ سفيرِ البُرتغال:
الدُولُ العُظمى تُهدّد
وَلَيْلَهُ أرِقٌ بَحثًا عن
العصر الذّهبي في المستعمرات،
كلمات مثل انجولا، ماكاو، كوشين ونامپولا
تُبحر للوراء كسفنٍ خشبيّة عتيقة في دمِهِ
وتُحوّلُ شَخيرَهُ نُواحًا وغيْرَ مرّةٍ

يَتَشَرَّدُ قلقًا مهزومًا. ولِمَ لا؟
يستحقُّ أنْ أحبَّهُ أكثر.

أنا كريمةٌ وأملكُ
الذّراعين الجديدتين اللّتين تضمّانني
في حين قلبٌ غريبٌ يحُثّني
على أنّ العصافيرَ في پاپوا نيو–غيني غنيّةٌ بالألوان
وصوتُها جميلٌ جدًا ومُغْرٍ، وعبْرَ السّتارة هناك
يُضيءُ القمرُ أيضًا حياتي السّابقة.

يا لي منْ حِرباء ماهرة.
عندما أزْحَفُ على پاپوا نيو–غيني
أُبدّلُ ألواني بألوانها،
وعندما أزْحَفُ على جَسَد أنطونيو
أبدّل ألواني بألوانه، إذ يجب
أخْذ كلّ ما تمنحهُ الحياةُ
وأنا آخذُ
يعْني أمْنحُ.

زوجي مُرتّبٌ للغاية.
حتّى البابا المعلّق على حائط غُرفة نومِنا
يبتسمُ راضيًا عن التّرتيب الخالص:
نَعْلٌ حَذْوَ نَعْلٍ،
القميصُ والبنطالُ مَطْويّان،
ساعةُ اليدِ على المنضدة
زوجي لا يحبّ أن أنام مع السّاعة.
لكنّي أحبّ في اللّيل توزيعَ إيقاعات
نبضِ القلب والصّلصلة الدّيجتاليّة

إذ هُوَّةٌ ساحرةٌ ممتدّة بينهما.

الآن أنا أطمئنُ في جسده اللّذيذ،
يَسُوع الذّهب المتدلّي من عنقهِ
بارتخاءٍ، مغميٌّ عليهِ ويداعبُ جلدي.

أنا يهوديّة ونحنُ عاريان.
ماذا يُفكّرُ عنّا يوحنّا اللاّبسُ
المُعتمِرُ قُبّعةً وبيدهِ العصَا.

واحد- اثنان -ثلاثة هُوَ أحشويروش
وأنا زوجةُ السّفير في پاپوا نيو-غيني.

ترجمة: سلمان مصالحة

ولدت آجي مشعول في هنغاريا في العام ١٩٤٦. متزوّجة وتعيش مع عائلتها في قرية زراعيّة هي كفار موردخاي في جنوب البلاد.
نشرت آجي مشعول حتّى الآن ثماني مجموعات شعريّة وحازت على جوائز أدبيّة متعدّدة بينها جائزة رئيس الحكومة وجائزة يهودا عميحاي.
تُعدّ آجي مشعول من أبرز الأصوات الشّعريّة العبريّة النّسائيّة المعاصرة. الحياة القرويّة، بنباتها، حيوانها وطيرها، إضافة إلى الألوان والرّوائح كثيرًا ما تنعكس في شعرها الّذي تصعب أحيانًا ترجمته إلى لغات أخرى بسبب الإشارات والتّلميحات الّتي تستند إلى لعبة لغويّة هي من صميم اللّغة العبريّة.
لا يخلو شعرها أيضًا من نبرة الدّعابة والسّخرية الذّاتيّة الّتي يحاول الشّعراء عادة الإبتعاد عنها.
الجسد والإيروطيقا لهما مكانة خاصّة في شعرها، ومن خلال لعبة الحبّ الجسدانيّة إنّما هي تريد الوصول ليس إلى المتعة في التّعبير التّجسيدي فحسب، بل أبعد من ذلك إنّها تطمح إلى الوصول إلى متعة التّعبير التّجريدي في اللّغة.
هذه هي المرّة الأولى الّتي تترجم قصائدها وتنشر باللّغة العربيّة.

يتسحاق لاؤور

القومجية المحررة

حول شهوة القوة وكراهية الشرق في «العروس المحرّرة»، او مَمَّ حررت العروس أ.ب. يهوشواع؟

قصة ظريفة وقصيرة كتب أ.ب. يهوشواع عن يوحنان ريفلين، المستشرق الحيفاوي، الذي أصر فجاة على فحص سبب طلاق كنته وابنه الذي تم قبل ذلك بخمس سنوات، محاولاته باءَت بالفشل لتنتهي القصة دون ان يعرف الحقيقة. ما هي الحقيقة؟ والد الكنة كان يقيم علاقات جنسية مع أختها، طلب الصهر من زوجته ان تعترف بما رأى، اما هي فطلبت منه ان يعترف بأن هذا مجرد هذيان، إلا ان والدها الغبي، دون علمها، احتمال التسوية بين الحقيقة والهذيان وحكم عليهما بالطلاق. على العكس من المستشرق «البوليس السري»، فان زوجته القاضية تكتفي بما يمكن اثباته بناء على الادلة المكشوفة. وفي نقاش بين الاثنين حول النظرة الى نبش الماضي، تتجلى شبكة العلاقات بينهما.. شيء من الحب، الى جانب كثير من الجنس، والأهم تعلق كبير من جهة الرجل بالمرأة. التوتر بين قوة المرأة السلبية وعُنّة الرجل الفعالة هو أجمل جوانب القصة. الرجل ليس طفوليًا قبل-أوديبي، والزوجة ليست مفترسة او خاصية، ومع ذلك فكل واحد منهما يقوم بدور «مناقض» في العلاقات بينهما. في القصة تتطور كذلك العلاقات المثيرة للاهتمام بين ريفلين وابنه المصاب، وهناك مكان واحد ينجح فيه يهوشواع حتى في كتابة مشهد ذي قوة عاطفية حقيقية حول الصدام بين الأب وابنه.

كم هو مؤسف اننا بدلا من قصة حصلنا على رواية. ما الذي انتفخ في الطريق من القصة الى الرواية؟ الكثير جداً من الفولكلور، الكثير من مقطوعات الحوار باللغة العربية، حوار عادي دائمًا وغير متجانس في نسخه بحروف عبرية. تزخر الرواية برضى أصحاب البيوت، وبالسعادة بالبيت الجديد، وتحويل بيت البطل الجديد والفخم الى نوع من الاحتفال للقاصّ نفسه. كما نجد ايضا نوعًا من التندر الطويل والممل، الممتد على طول

وعرض صفحات كثيرة حول موضوع چرشون شاكيد، الذي يسمى في الرواية بروفيسور طراسكي. يقال إن شاكيد يستمتع بهذا التندر (إنها أيضًا طريقة للدخول الى تاريخ الادب العبري). ولكن في الأساس توجد حوارات طويلة بين الرجل والمرأة، ابتداء من النقاش الاول بينهما والتي تبدو توسيعًا لميل يهوشواع إلى الاكثار من رصّ الكلمات حيث لا حاجة اليها. اليكم مثالا بسيطًا لحوار يمتد على عدة صفحات: «اذن ما الذي دفعك الى الاسراع في السفر؟ انت تشكو من انهم لا يسمحون لك بالعمل، وفي النهاية تجدك تبحث عن انشغالات زائدة»، «فكرت انني اذا كنت سأسافر الى المطار فلماذا لا اقوم نحوهم بلفتة كريمة، كما شعرت انه سيحدث تأخير في هبوط الطائرة»، «كيف شعرت بذلك؟»، «في المجيب الآلي للمطار كان هناك بلاغ منذ الساعة الحادية عشرة ان ساعة الهبوط ليست نهائية»، «ولكن اذا شككت بحصول تاخير، كان بإمكانك ان تنتظرني. وهكذا كنت سانضم اليك، انت تعلم كم انا محبطة لأنني لم استطع السفر الى المطار»، «ولكن من كان يتصور ان التاخر سيستمر أكثر من أربع ساعات. فكرت انه سيكون تاخرًا بسيطًا»، «كان بامكانك على الأقل ان تنتظر وترى». ويستمر الحوار هكذا عدة صفحات، وليست هذه هي المرة الوحيدة في الرواية، بل مرات كثيرة جدًا، وكان القاصّ المتغطرس جلس مستمتعًا بكل انواع النكات الشخصية، ربما تندر عائلي– داخلي.

لنفرض ان الاستحواذ في هذا الحوار، الذي يتكرر باشكال مختلفة في سياقات متعددة، يكون مسليًا في المرة الاولى، لكنه يكف عن كونه كذلك بعد المشهد الثاني، لان الشخصيات لا تتغير بالمرة، فهذه الشخصيات تتباهى به «هوية» ولا يتغير إلا مواضيع المحادثات بينها. في القصة (الوهمية، التي أحاول استخلاصها من الرواية) كان من الممكن بعد الحوار الاول، تلخيص جميع النقاشات في جمل بسيطة: «وعادا الى النقاش بينهما بطريقتهما المعهودة، إلا ان موضوع النقاش هذه المرة دار حول سفر القاضية الى الخارج»، أو «حول مكالمة ريفلين التلفونية مع ابنه في باريس»، وما شابه ذلك.

لو ان أ.ب. يهوشواع بقي في إطار القصة لكان سيكتفي ببلورة شخصية البطل كرجل لا يطاق، يستحق الشفقة، عديم المشاعر، عدا الأهمية التي يخصّ بها نفسه؛ لو بقي أ.ب. يهوشواع في إطار القصة لكان سيجعل القصة تتركّز في شخص فضولي، يهتم بالآخرين، كيلا يهتم بنفسه، وحتى في اللحظات التي ينجح فيها في فهم ابنه (الذي هو انعكاسه)، يفلت الابن من بين اصابعه. وها نحن، لكي نكتب رواية عن «حقيقة حياتنا الكبرى» وليس فقط عن حقيقة ريفلين الصغيرة، يحمل المؤلف بطله المضحك، العجوز

الغبي، تناظرات وظيفية مختلفة ومباني ورموزا و« دلالة » لصالح معلمي الادب وهم جمهور سيء جداً في كل ما يتعلق بحب العمل الفني (بسبب أمراض الـ« ثيم » (الفكرة الجوهرية في العمل الادبي) والـ« تأويل ») . والأسوأ من ذلك كله أن يهوشواع يحول ريقلين الرجل غير المثقف وغير الحكيم الى صاحب إدراك تأويلي - متعلق تمامًا بالشؤون الاجتماعية السياسية لعالمنا، ويخلو حتى من القليل من السخرية .

وهكذا، بقصة مثيرة بسيطة، بسيطة جداً، يحاول بطلنا استيضاح اسباب الطلاق . قسم من اللغز يحلّ في مرحلة متقدمة، بواسطة سلسلة من الرسائل تبادلها العريس والعروس، وقسمه الآخر بواسطة اعترافات فجائية بين الاثنين . في النهاية، ندرك اننا اوشكنا ان نقع في خطأ، فالنسيب لم يضاجع البنت الصغيرة، بل بنته الكبيرة غير المتزوجة، وتصيبنا الحيرة : هل فعل الاب ذلك لكي يواسي البنت البكر او ما العلاقة بين هذه المعلومة المهمة جداً وحقيقة إهداء يهوشواع هذا الكتاب لابنته . التوتر بين رغبة ريقلين في التجاوب مع امر زوجته : لا تنبش، ورغبته الشديدة في النبش، هو توتر لطيف . طلاق ابنه يؤلمه . ولكن اكثر مما يؤلمه الطلاق بسبب تعاطفه مع ابنه (ريقلين، على طول القصة، غير قادر على التعاطف مع أي الم، مثل مؤلف هذا الكتاب تمامًا) ؛ الطلاق يؤلم ريقلين لانه يمسّ بكرامته . لم يقصد يهوشواع، ولكن ربما بسبب القرب الشديد من ريقلين، جعل مستشرقه رجلا يسعى وراء الاحترام . كما ان عدم زواج ابنه مرة ثانية يقلقه، ليس بسبب معاناة الابن، بل بسبب المسّ بما يعتبر محترمًا .

« هذا شيء جيد جداً » يدعي قارئ الرواية بحماس خجول . حقًا، انه جزء ممتاز من القصة، ومن المؤسف انه يغرق في الرواية، لان الرواية تخسر الكثير جدًا بسبب عمى المؤلف . لا يفهم أ .ب . يهوشواع ريقلين، وكلما طالت الرواية شُوِّهت معالم ريقلين وتحول الى ما يشبه روبنزون كروزو مستعملاً . وهذه العصيدة تستند الى الاستعمال الرخيص لتشوّق القارئ/ة لمعرفة ما اذا كان النسيب، والد چاليا وتهيلا، قد ضاجع تهيلا حقا ام لم يضاجعها، فهذا هو « اللغز » الذي بنيت عليه الرواية والنظائر والـ« دلالة » . اضافة الى ذلك، الحاجة الى بناء المقابلات، والتي هي نوع من المعلومات الخاصة بطلاب الأدب، التي يوظفها المؤلف توظيفًا متعبًا، حتى كان الكتاب كتب من اجل التمارين الادبية، وهذه الحاجة تدعوه الى « اختلاق » ولدين من جانب ريقلين وبنتين من جانب النسيب (اسمه هندل) . لماذا هناك حاجة الى ولدين؟ هل بسبب الطباع المختلفة؟ لا . فكلا الزوجين يحييان على نفس الحاجات الايديولوجية . بنت واحدة عزباء والبنت الثانية حامل . ولد واحد على وشك « الهجرة من البلاد »، والولد الآخر يعمل « عملا عبريًا » بعد

انهاء فترة الخدمة العسكرية. أي ان: الخصوبة والصهيونية تسيران جيدًا معًا. وهكذا تضيع القصة القصيرة على حواجز وحفر.

ريقلين القصة الضائعة هو شخص مثير للغضب، كتوم، وسخيف. وريقلين الرواية هو شخص مزيّف. وهو موصوف، على سبيل المثال، كشخص يحب الموسيقى الكلاسيكية، ولكنه في جميع رحلاته الطويلة، لا يصغي، ولو لمرة واحدة، الى الموسيقى في الراديو ولا حتى في البيت عندما يكون وحيداً. متى يحين وقت الموسيقى؟ عندما «يذهبون الى حفلة موسيقية». عندها فقط نقرأ افكاراً حول الموسيقى. فعن موضوع تشايكوفسكي نقرأ: «الموسيقى اللطيفة والبسيطة جداً للملحن الروسي»، او عن موضوع هايدن: «يشك ريقلين اذا كان جديراً بان تكرّس له حفلة كاملة، اذ ان هناك شكًا في امكانية المحافظة على التنويع والتوازن اللذين يحتاجهما المستمعون». وباختصار: بسيط، وسطحي اكثر من «أمس في الحفلة الموسيقية»[1]. وهنا يندفع بحرارة القارئ المُهان: «هذا كتاب عن شخص لا يحب الموسيقى، ولكنه يحب ان يشاهد في قاعات الحفلات الموسيقية». إلا أن يهوشواع لم يرَ أي سطحية مثّل في حب بطله للموسيقى. انظروا ما ابعد هذا التسرّع الموسيقي، هنا، عن الاعتراف بغرابة البطل، داخل عالم الموسيقى الكلاسيكية لـ«مولخو» (بطل رواية بهذا الاسم ليهوشواع)، بعد وفاة الزوجة. هناك كانت الموسيقى، بالنسبة لمولخو، جزءا من عالم الزوجة الميتة، جزءا من الحداد عليها. ريقلين هو مولخو مزيّف: غريب عن الموسيقى ولكنه موصوف لنا كمن «يحب الموسيقى»، أي «يذهب الى الحفلات الموسيقية».

لماذا لم يزيّف أ.ب. يهوشواع في «مولخو» بينما يزيّف هنا؟ لان مولخو يهوشواع كان غريبا، متعزلا، هامشيا، سفرادي (شرقي)، جرح ينزف، بينما يصر على تثبيت ريقلين كوسط، وليس كهامش للثقافة، والمعرفة والسلطة، ينتصب في ميدان غير موجود، يتحدث عن الأمة، وعن الثقافة، والسياسة، عن الشرق، عن طبيعة العرب، وهو غير قادر، يهوشواع، بسبب وضع الأمة (تذكروا «كرنڤال غاندي»، ثقافة احكام الاعدام [«التصفيات»]، التجويع والإغلاق، تفهموا وضع وعي الأمة)، وبسبب مراودة المؤلف لمواطنيها، ذلك النفاق الذي يميزه. انه غير مطالب بالطبع بالوعظ. على العكس، ففي «مولخو» لم يجرؤ على الوعظ، بينما هنا يعظ. ما الذي يعظ به؟ «المفهوم ضمنًا»، المشترك في علم «الجميييع»[2]: تحريم مضاجعة الوالد لابنته، العرب أقلّ درجة، والعمل (العبري) يحرّر.

لا تجد موضعًا يبرز فيه ضعف هذا الكتاب كما في هذه المقاطع الطويلة حول

« المعلومات الموضوعية » كما يسميها المستشرقون، وخاصة على لسان البطل : صفحات طويلة لا توجد لها أية وظيفة سوى اظهار رأي المؤلف الى الوجود في حوارية كاذبة مع الآراء المقابلة (الموردة بسطحية اكبر) . وعليه، فليست الرواية حول مستشرق، يلتقي عناصر معلوماته وراء الحدود، ويفقد الارض التي يقف عليها، بل على العكس تمامًا . « ينجح » المستشرق المختلق، بواسطة الرواية، في شرح أفكار المؤلف أ . ب . يهوشواع، غير الاستشراقية، وغير الاكاديمية، الاجتماعية- السياسية المذكورة اعلاه، ولا « ينجح » في الشرح فقط لليهود القراء بل للعرب ايضا في العمل الأدبي نفسه . والنصّ الطويل معلق مثل الغسيل بين شرفتين : هل ضاجع النسيب ابنته تهيلا او لربما كانت تلك چاليا بالذات، ابنته الصغيرة، الحامل الجميلة؟ وفي « مقابلة » : هل سماهر، الطالبة الجامعية من الجليل، حامل فعلا، ام انها مجرد مجنونة، غشاشة، ممراض، بالإضافة الى أنها قبيحة وعربية؟ وهكذا وعلى طول عشرات الصفحات نجد انفسنا مضطرين الى ان نقرأ أقوالا « أكاديمية »، تشبه الى حد كبير موضوع موتيف الموسيقى، الا اننا نتحدث هنا عن جزء كبير من شلالات الكلمات .

في النهاية لا شيء في موضوع غشيان المحارم يتضح لنا اكثر من الحقيقة بانه « حقا كانت هناك عملية ايلاج من جانب الاب وليست فانتازيا من جانب الابن » . لا نكتشف شيئًا عن طبيعة جريمة غشيان المحارم، ولماذا تبقى البنت وفية لوالدها، ولماذا نحن فضوليون، ولماذا ريفلين فضولي، ولماذا لم ينجح في كشف الحقيقة، ولماذا نذهل أنها هذه البنت لا تلك . لا ينكشف أي انسياب (عدا « القراءة الانسيابية »، بلغة نقاد الروايات)، لأن كل شيء أُحيط واغلق من خلال مسح استحواذي للشكوك، قبل ان تبدأ القصة، وحيلة « القصة المثيرة » قد تزود القراء، الا ان الحبكة البوليسية تحلّ بشكل غير انيق، ودفعة واحدة يُنسَ التوتر . المهم ان غشيان المحارم فعل فعله، والنص الايديولوجي هضمه المستهلك .

ريفلين خبير في تاريخ حرب تحرير الجزائر الدامية . وهو قلق بسبب الحرب الأهلية التي تدور حاليًا هناك، اذ لربما انها أسوأ من جرائم الاستعمار . ولكن كما في موضوع التحقيق في غشيان المحارم كذلك الامر في موضوع بحثه العلمي الجديد : المعلومات الاستشراقية هي « نهائية »، بمعنى ان الحقيقة كانت معطاة قبل ان يبدأ كل شيء (كذلك الارهاب الفظيع في الجزائر بدأ قبل فظائع الاستعمار) . لندع جانبًا الفرضية (التي تنطبق جيدًا على اسرائيل إبان حربها الاستعمارية وايضا على ذوق اليمين الاوروبي، الذي يقود التوجه في عدد من عواصم الثقافة بالنسبة لاعادة كتابة تاريخ الفظائع الاستعمارية) . لو ان الحرب الاهلية في الجزائر زعزعت شيئًا في عالم المستشرق - لكان سيعتزل فجأة درسه، او يجمد

بحثه بفضيحة كبيرة – لكنا سرنا برغبة حتى في اعقاب تخبطات المؤلف الاجتماعية السياسية، مهما كان بطله سطحيًا، وذلك لان شيئا كان سيحدث في عمل البطل، في action/passion الخاص به. الا ان يهوشواع عرف قبل ان يجلس لكتابة روايته العلاقة بين الارهاب العربي في الجزائر والقومية الجزائرية بشكل عام، وهو يتوق فقط الى قيادتنا في أعقاب أي «حقيقة مجملة، يعرفها كل قارئ متوسط لـ «لا موند ديبلوماتيك» أكثر مما يعرفها المستشرق ريفلين.

وهكذا، في موازاة «كشف الحقيقة» على سرداب غشيان المحارم (عجائب الـ «مقابلة») يفلح المستشرق في نهاية المطاف في كتابة الحقيقة عن الجزائر: الحرب الاهلية اندلعت بسبب انفصام الهوية اللغوية هناك. دولة واحدة تتكلم اربع لغات – الفرنسية، العربية الفصحى، القبيلية (لغة القبيليين البربرية) والعربية المغربية. قد يكون هناك من فكر بمثل هذا الغباء. موسوليني مثلا، الذي حاول ان يفرض على الايطاليين لغة واحدة، وفشل. من جهة اخرى، الحرب الاهلية في ايطاليا، ما بين ١٩٤٣–١٩٤٥ أدت الى اعمال فظيعة في مناطق، لم يتكلموا فيها بنفس اللغة فحسب بل بنفس اللهجة ايضا، وفي عهد فرانكو حُظر على مواطني الدولة الاسبانية استعمال لغاتهم الخاصة وبالطبع، تحت شعار «الهوية القومية». ذهب فرانكو، وعادت اللغات التي لم يفلح الجناح القشتالي بإبادتها. ولم تنشب حرب أهلية. وفي البوسنة تكلم الجميع اللغة الصربية فقط، في الحديث والكتابة. (ولكن، بطريق الصدفة فقط، تخيلوا كم من النفاق للقارئ «المثقف» يكمن في هذه الاضاءة: اعلم/ي أيها/ أيتها القارئ/ة العزيز/ة ان المفتاح لسلامة بلادنا وشعبنا يكمن في مجرد القدرة على القراءة بالعبرية، وبمجرد قدرة اللغة العبرية على المحافظة على تفوقها). نعم، من الواضح لي ان يهوشواع ليس هو من اخترع هذه الحماقة، من الواضح انه نقل وترجم مقالا ما كتب عن الجزائر، ولكن يجب ان نعرف ما الذي نختار ان ننقله.

لا اريد ان اعارض فرضية يهوشواع / ريفلين، ولكنني اريد ان اشكو من ضحالتها، ومن كونها خارجة تمامًا عن القصة. والآن يتساءل القارئ المتحمس. لا اقصد بالطبع الإختلاف مع نظرية يهوشواع /ريفلين، وإنما التذمر من سطحيتها، ومن كونها خارج حبكة الرواية تمامًا. والآن يسأل القارئ المتحمّس المصر على التفكير انه يتمتع «بإبداع ثقافي» وليس بقصة بوليسية، إذا ما كان توماس مان قد أعطى لابطاله في «جبل السحر» فرصة الثرثرة خارج الحبكة. صحيح، (ونترك جانبًا الفرق بين ذكاء يهوشواع وذكاء مان)، ولكن النقاش الكبير في «جبل السحر» لم يحسم لدى مان قبل جلوسه للكتابة، وإنما دار

في أثناء الكتابة، وهو واضح في كل صفحة. اما نظرية ريفلين/يهوشواع فهي مملة أيضاً لانه غير قادر على الشك بأي من الاشياء التي اكتسبها في فترة بلورته. ولذلك لم يحاول هدمها بيديه بواسطة نفيها. لذلك فقد عاد إلى مسالة الهوية كالببغاء. فالهوية ليست جدلية بالنسبة إليه (كل واحد هو و/او يمكنه أن يكون كل شيء بمختلف العلاقات)، وإنما لحم ودم مغطى بالنتك. وما يتبقى للقارئ هو «ان يكون مُثاراً»، ماذا حدث مسبقاً. الكتابة جاءت لفهم العالم، وليس لتفسيره. ولفهم هذه الحقيقة، لا حاجة لقراءة هيدبغر ولا سوفوكليس. ولكن يجب الإصرار وقراءة الادب الجيّد.

ولكن هذه الامور ليست سبباً جيداً بما فيه الكفاية للكتابة عن رواية بهذا الشكل السيء.

الاهم من كل هذا هو السم العنصري الذي يتدفق من كل صفحة من صفحات الكتاب، وذلك بواسطة «حيلة» البطل كـ«خبير بالعقلية العربية» ودون أقل القليل من السخرية. في مركز «المقابلة» تقف سماهر، «طالبة جامعية فضولية مزعجة وطموحة»، لها «عيون نشيطة في لجنة الطلاب العرب، تتراكض بين مكيدة مقلقة واهانة للظلم الدائم». بمناسبة زواجها تزيّنت وتجملت المخادعة – المهانة و«حب الشباب الصغير الذي تنقل بين خديها وعنقها اختفى في حمرة خجلها الشديد». بعد عودته من حفلة الزواج، عندما يحاول ريفلين مضاجعة زوجته، وهي ترفض، يدور بينهما الحوار التالي: «تفوح منك رائحة غريبة. رائحة غريبة؟ عمّ تتحدثين؟ لا تشعر بالاهانة. يبدو ان شيئا ما لصق بك هناك في القرية. عطر غريب. هل لمست شيئا؟ هل اغتسلت بالصابون؟ لا تغضب. ليس الامر فظيعًا. يكفي ان تغسل وجهك قليلا. صعب علي مع هذه الرائحة التي أحضرتها من هناك. وبشكل عام، ربما من المفضل ان تغتسل ثانية. كذا سيكون ممتعا أكثر. ادخل اولا وانا بعدك». سخرية –يعني. لم يسال أي صحفي. ها نعم، ستقولون، «بوليتيكلي كوريكت». اذ نعرف جميعًا ان المؤلف هو ليبيرال، مثلنا، وها نحن لسنا كذلك، وهو بكل تاكيد يسخر. لنتابع إذن..

رئيس القسم، البروفيسور عقاري، بالذات، يحب العرب، ولكنه يذكر باسف، أنهم يفتقرون الى القدرة على «تحقيق واحترام حرية الفرد، والرغبة فيها او حتى فهمها». وبطلنا وهو المعتدل من بين المستشرقين، القريب جداً من المؤلف، يشرح بالم: «لقد القيت (نصاً عربيًا معينًا) عدة مرات على مسامع طلابي لكي أثبت لهم انه قبل الف واربعمائة سنة كان في الدكتاتورية العربية على الاقل سخرية لطيفة وليس القسوة فقط» على الاقل. ولاسفه لا يوجد شيء سوى القسوة والطغيان، ولكن: «ماذا سيقول جميع

النزيهين، يتابع بعدها، اذا استشهدت بالقصائد الرائعة التي كتبت قبل الف وخمسمائة سنة لكي افسر عمليات القتل والارهاب الحالية ». هل يشبه بذلك المعلمة – الجندية[3]، ام تراه ساخرا بالنسبة لبطله؟ يمكننا بالطبع ان نسوق الى هذه المناقشة ما قاله أ.ب. يهوشواع قبيل صدور كتابه في المقابلات الكثيرة في الصحف والراديو والتلفزيون لكي نوضح مدى التشابه بين وجهة نظر أ.ب. يهوشواع الى الحياة ووجهة نظر ريڤلين بطله (في احدى المقابلات تحدث عن انه لا يتخيل مشاهدة العرب يؤمون قاعات الحفلات الموسيقية . . .)، ولكن حتى بدون هذه المساعدة، من السهل جدا، من القراءة في هذا الكتاب، ان نتيقن كم تنشغل الرواية في بناء « واقع » حقيقي، وفي الأساس بواسطة « العرب ». لندع هذه المناقشة، حول « قصد المؤلف » و« السخرية » و« وجهة نظر المؤلف »، اذ انها زائدة حقًا. انتبهوا من فضلكم فقط الى الكلمتين « ارهاب » و« قتل ». فهما تترددان كثيراً، بل كثيرا جداً، في الكتاب، الرواية بكاملها تبني على ما تحب كثيرا عمله وسائل الاعلام ورئيس الوزراء ووزراؤه: ربط كلمة « الارهاب » بـ« القتل » وهاتين الكلمتين بالـ« العرب ». مباشرة بعد الاقتباس حول « عمليات القتل والارهاب »، وفي الصفحة نفسها يأتي القتل نفسه. من قتل؟ يهودي، بالطبع. القتيل الوحيد في الرواية، التي تجري أحداثها في إطار الفردوس الفلسطيني في « فترة أوسلو ». من قتله؟ « العرب الفلسطينيون »، بالطبع. لان القتل والارهاب في هذه الرواية هو اسم مرادف للعرب. (حتى ان نشاط ادوارد سعيد وطلابه في الجامعات الأمريكية يسمى في الرواية « ارهابًا »).

على كل حال، بعد قتل المستشرق الشاب، يهاجم ريڤلين الليبرال، طالبته، طالبة البحث، سماهر: « الآن تفهمين، يا سماهر، من تقتلون (. . .) فلسطينيوك (. . .) وهي تنكمش امام ثورة غضبه غير المتوقعة، وبعدها تتمتم باصرار، ما العمل، يا بروفيسور؟ هذا هو قدره (. . .) ». في موضع آخر يتابع ريڤلين نفسه الذي يمثل أ. ب. يهوشواع المعتدل: « بشكل عام، فجأة يئست من جميع العرب. كيف يمكن ان اكتب بتعاطف ما مع الكفاح الجزائري في سنوات الاربعينيات والخمسينيات، وانت تشاهد اعمال القتل القطيعة التي يقومون بها اليوم ». على هذا التساؤل تجيبه مستشرقة أخرى: « ولكن ما يهمك مما يقومون به اليوم من اعمال قتل وارهاب؟ » إضافة الى ذلك، « من يطلب منك، عموما، ان تحب العرب لكي تقوم بدراستهم؟ ». أيٌّ من أشخاص الرواية لا يحب العرب. والقارئ مدعوّ الى تحقيرهم وفي الاساس الى الحذر منهم. ريڤلين ايضا لا يحبهم. هو يستفيد من خدماتهم، وهو « يقرأ بين الاسطر تلميحات حول ضائقة زملائه وراء البحار ويشعر بانه من واجبه ان يمد لهم يد المساعدة. الضمير العلمي لا يسمح بالتملص من

التحدي الذي يضعه أطفال مذبوحون في القرى». دعوكم من هذه الشفقة (الباثوس) النرجسية. وماذا عن الاطفال الفلسطينيين؟ وعليه، في هذه الرواية التي كتبت صيغتها النهائية بين خريف ٢٠٠٠ وخريف ٢٠٠١ هذه السنة التي شهدت مقتل وجرح مئات الاطفال الفلسطينيين، في هذه الرواية هناك طفل واحد فقط يطلق عليه الرصاص ويتحول الى «نبتة». ومن تراه أطلق عليه الرصاص؟ «عرب اسرائيليون». ولكن عن طريق الخطأ فقط.

اضافة الى سماهر – التي تتخلل قصة حملها المختلق محاولات عائلتها لتحصيل شهادة الماجستير لها بالنفاق والخداع، بسبب الشرف، طبعًا، يذكر عدد آخر من الطلاب. انتبهوا الى بنائهم: «وقد بدأ يتضح ليس غش طالبين عربيين بل غباؤهما ايضا، حيث لم يكلفا نفسيهما عناء نسخ ابحاث قديمة أخذاها من غيرهم، واكتفيا بتصويرها وتقديمها لمحاضر آخر دون ان ينتبها الى وجود ملاحظات المحاضر الاول على قسم من هذه الابحاث». هل الحديث عن طالبين فقط؟ ليس تمامًا. انظروا الى طريقة بناء نص التحريض العنصري التالي: رئيس القسم «ابن الشرق، يظهر تعاطفا ليس فقط مع مشاعر جميع الطلاب العرب الذين تحت رعايته فحسب، بل مع الغشاشين من بينهم». هل الحديث عن طالبين فقط؟ ليس بعد، ولكن نتابع بناء «عامة الطلاب»: «في قسم اللغة الانجليزية، تقول (السكرتيرة الشابة) يدّعون ان مصدر عدد من الابحاث التي يقدمها طلابهم العرب والتي تكتب هناك باللغة الانجليزية، موجود في بيروت او دمشق او حتى في العراق. توجد طريق تهريب خاصة بالابحاث في جميع انحاء الشرق الاوسط، وخاصة ابحاث حول شكسبير». السكرتيرة نعتت بالطبع بالغباء، وعدم الموثوقية، بواسطة نوع من السخرية، الا ان المعلومات التي تدلي بها تسهم في بناء الصورة النهائية للطلاب العرب في الجامعة، «شكّاؤون» (هذا اصطلاح يهوشواع بالنسبة لمواطني الابارتهايد الزاحف)، لصوص، غشاشون، منافقون. عمومًا، لا يوجد فرق عند يهوشواع، عندما يكون الحديث عن نظرة اليهود الى العرب. لماذا؟ لأنه يكتب «هوية»، والهوية عنده تبنى كنقيض، وهي دائما «جماعية»، حيث أننا امام العرب «كلنا يهود». اذهبوا وابحثوا في الادب الافريقانيري (سكان جنوب أفريقيا من اصل هولندي) في جنوب أفريقيا من ايام الابارتهايد فستجدون سخرية من هذا النوع، وصفًا مهينًا كهذا للاكثرية السوداء.

الا ان النفاق العربي يستخدم من بين ما يستخدم له، من اجل مزيد من الحب للاسرائيليين، وليس ريڤلين الرائع فقط. فها هو نسيب ريڤلين يصل الى مطار اللد: «لوحت بشرته اشعة الشمس، نشيط ومنتعش على جدار نافورة المياه، ابهاما قدميه

مندفعان خارج صندله الخفيف ذي القشاطين ويقرأ جريدة «معاريف». اسرائيلي ابن اسرائيليين، وكأنه لم يغب ثلاث سنوات». رائع. ما الطفه. كم هو اثني. وعلى النحو التالي وصف ابن ريقلين: «ومع انه بعد نوبة ليل طويلة، ظهر من الجبل ليس جنديًا مترهل الملابس بل ضابطًا بزة عمله مرتبة وبدون تجعدات، وفي ضوء الصباح المنعش امتلأت عيناه بالبريق نحو عمته، ودون ان يخشى نظرات الجنود التي تتفحص قائدهم، اسرع يحتضنها ويقبلها بلطف محاذرًا نعومتها المعهودة». يا له من حبّوب، ولكن انتبهوا كم يمكن لهذا الحبّوب ان يكون صلبًا: «عندما تقدم من الضابط رقيب اشقر، له وجه الصبي، مستغلًا لطافة اللقاء العائلي لقائده، لكي يطلب منه شيئًا ما، يقاطعه القديس بعد جملته الاولى وبصرامة هادئة ولكنها حازمة يصرفه من امامه». وكيف لا؟ اذا جاز لي ان أضيف، على الرغم من الانشغال الذي ينقطع بـ«الارهاب» و«القتل»، الا ان الحلبة الرئيسية التي نلتقي بها مع الجيش هي ليست الاحتلال والحواجز، والتحقيقات، والمستعربين، بل قاعدة مخابرات في الجليل. جيش دفاع. حضن العائلة. والجنود على الحواجز؟ جماعة طيبون.

الا ان قمة هذه النرجسية بلغة القاصّ العدوانية نحو من «ليسوا مثلنا»، أي اولئك الذين بحاجة الى التأكيد على اصلهم لكي نلقبهم بلقب ما: عازف الكمان الـ«روسي»، قائد الاوركسترا الـ«هندي» (ثلاث مرات في مشهد قصير)، رئيس القسم الـ«شرقي» (دائمًا «شرقي»). والانكى من كل ذلك الاستعمال الذي يعاني من تضخم كبير باللقب «عربي»، وهو أكثر اصطلاحات القاصّ عنفًا. المرة تلو المرة يحرم هذه الشخصيات من أي ضمير كان باستثناء الاسم الشخصي (الذي يستعمل اقل من اللقب «عربي»). كل العرب يسمّون كل الوقت، ودون انقطاع، بـ«العربي»، حتى اولئك الذين يظهرون طوال الرواية، كابطال حقيقيين، ويوجد لهم اسم او لون بشرة (اسمر، بالطبع). على سبيل المثال: «يوجد شيء محبوب وظريف عند هذا العربي، فكر المستشرق وبدأ يهتم بماضيه. اتضح ان راشدًا تعلم سنتين هندسة كهرباء». وهكذا حتى النهاية.

حتى الآن، عن طريق الحديث، ان كان من جهة القاص او الشخصيات، الحديث الذي يبني عالما، وبناء على ذلك من الممكن بالطبع مواصلة التشبث بهراء الـ«سخرية» (بدون ان نسال السؤال الحاسم حول كل هذه السخرية: سخرية من قبل من؟). ولكن المكان الذي ينهار فيه ادعاء السخرية هو احداث الرواية نفسها. هنا تظهر المرة تلو المرة المشاهد الاستعمارية بين روبنزون كروزو ريقلين مع صيغ مختلفة لجمعة. سماهر تتحول الى خادمة – مترجمة له، راشد الى سائق، وفؤاد، النادل العجوز يتحول الى أمين سره – الجاسوس، وهو لا يدعى العربي العجوز فحسب بل كبير الخدم. اختراع لعملية (ما

يسميه النقاد بلغة شعبية: «خيال يهوشواع» متعلق بالحسم حول سخرية القاصّ، ونظرته الى الشخصية الرئيسية. على سبيل المثال يقيم ريقلين علاقات جنسية مع زوجته مرات كثيرة او على الأقل يفكر كثيرا باقامة علاقات جنسية مع زوجته. في العملية المركزية لا يبني المؤلف ريقلين عنيفا، الذي يقوم بأعمال «منحرفة» مع زوجته. على العكس، الخيال، الذي ليس شاذا في صيغته النهائية يسوق الى القارئ منتجًا نهائيا فيه الشريكان في العملية الجنسية، على الرغم من سنهما يظهران ويسمعان «بخير»، لا يثيران الرجال او النساء، لا يشذان عن معايير القارئ المعاصر. عندما يصل الى وصف علاقات اليهود والعرب أي علاقات البطل مع العرب (أي علاقات يهوشواع مع العرب) يحول المؤلف العرب الى «عبيد بطبيعتهم».

الآن، بعد «العروس المحررة» يمكن ان نقرأ ونعود لنقرأ الفانتازيا الاستعمارية لـ «أمام الغابات» (مجموعة قصص لـ أ. ب. يهوشواع)، ورغبة العربي في ان يخدم (وخوف اليهودي، أي المؤلف / القاصّ الذي يقود القارئ الى هذا الخوف من الخيانة، أي الى العبودية كوقاية من الخيانة). مرات عديدة يعود العربي في هذه القصة كـ «عبد سيتمرد فورًا اذا لم تراقبه». حواري القصير مع أ. ب. يهوشواع ينتمي الى هذه النقطة.

بعد ان نشر مقالي حول «اللغة الممزقة» في جريدة «هآرتس» سنة ١٩٩٤ (المقال الذي وسعته فيما بعد الى مقال أطول تحت عنوان «نكتبك يا وطن» (كتب الي أ. ب. يهوشواع وطلب ان يجيبني عن السؤال الذي وجهته في ذلك المقال وهو: «لماذا قطع أ. ب. يهوشواع لعربيّه اللسان؟» البكم الجزء المهم من الرسالة:

عندما جئت ببطلي الى الغابة، التي كانت واقعية نسبيًا وداخل واقع مفروض، (في هذه القصة بدأت دخولي البطيء الى الواقع في المكان والزمان) وجدت فورا انه لا توجد عند هذا الطالب الجامعي المقدسي، مهما كانت مشاعبا، القدرة النفسية – الاجتماعية على حرق غابة الـ كيرن كييمت» التي كلّف بحراستها (..) ولذلك كان لا بدّ من وجود عامل مساعد من الخارج يساعده على قلب مهمته رأسًا على عقب. كان هذا العامل هو العربي المحلي، الذي خرج من زاويته المنسية والهامشية وفق الروح الحقيقية للواقع في اوائل الستينات، التي امتازت بهدوء سياسي واقتصادي، وهدوء أمني، كانت فيه القضية الفلسطينية مكبوتة في زاوية نائية ليس في وعي الاسرائيليين فحسب (..) بل في وعي العالم العربي من حولنا. هذا الوضع هو احد العوامل التي تثير الفلسطينيين لان يحاولوا أخذ مصيرهم بأيديهم بشكل مستقل أكثر، وهكذا تأسست حركة «فتح» سنة ١٩٦٤، لا يعرف هذا العربي الذي يمثل الكبت الكبير الذي بدأ يتحقق في الواقع الاسرائيلي

والعربي العام، لا يعرف في الحقيقة ما هي أهدافه. الفكرة المريبة الدعائية حول «دولة علمانية ديمقراطية» لم يتبلور بعد في الفاظه. هذا عربي اولي، يريد شيئا بسيطا: الا ينمحي ذكر قريته من الذاكرة بواسطة الغابة التي تنمو بسرعة. معركته ليست من اجل القرية، بل من اجل الذاكرة، وكيف يمكن صياغة هذا بالكلمات؟

بكلمات اخرى، طيلة الوقت الذي لم يكن فيه للفلسطينيين برنامج سياسي، لم تكن لهم لغة. من يطلب فهم «الرخصة للقتل» في هذه الايام، في الخريف الثاني للانتفاضة بامكانه ان يقرأ في تلك الرسالة الكود القاسي: «عندما يكون مريحا لنا فقط نصغي لما يقولون»، أي ان اللغة لغتنا، التي تتحدثنا، واذا كانت تتحدث المها هي فهي غير مسموعة. وهكذا يتابع يهوشواع رسالته:

بعد حوالي اثنتي عشرة سنة فقط، وجد لسان العربي المقطوع. كان ذلك لسان نعيم في «العاشق» (رواية ليهوشواع/ ترجمها الى العربية الشاعر والمترجم محمد حمزة غنايم) مثل انطون شماس صغير يعمل في كراج وفي رأسه تتردد ابيات لبيالك (كبير شعراء العبرية في العصر الحديث) وقد تمكنت من تشغيل هذا اللسان بصدق وامانة.

حتى هنا، ما يتعلق بالفانتازيا منذ بدايتها. ولكن علينا ان نعود الى طريقة تمثيل العبد العربي، كما يتخيله المؤلف في فانتازيته منذ سنوات. كما ان ام سماهر تلخص نغمة العبودية المتكررة: «ولكنك تستطيع ان تدبر الامر (..). قالت لي سماهر بان البروفيسور ريفلين هو اهم واحسن محاضر. ما يقوله ينفذه الجميع». ويقول القاص بواسطة روبينزون ريفلين بطله: «المحاضر الذي يعرف جيدا الطريقة التي يمزج فيها العرب بين السذاجة الصحراوية والمكر الهادف، يسرع، على الرغم من خفة دمه، في نثر وهم «العلامة النهائية»».

نصل هنا الى موضوع «الهوية القومية»؛ وبخفة دم يشرح لهم انه حتى عندما يكتب عن عرب بعيدين في الازمنة القديمة، يبحث عن علاقة مع القريبين. إذ في نهاية المطاف كلكم من نفس الجذر، من نفس الصحراء. لندع هذه الفرضية البيولوجية المبتذلة. (كل العرب من نفس الجذع؟ تقريبًا كما ان اليهود من نفس الجذر). ولكن انتبهوا الى التشابه بين هذه القطعة وبين مشهد مهم في الفصل الثالث من «السيد ماني». في هذا المشهد يتحدث ماني الى العرب، بعد احتلال البريطانيين للبلاد: وهكذا كان يقول، «من انتم؟ استيقظوا قبل فوات الأوان وانقلاب العالم. خذوا هوية بسرعة! ويخرج من جيبه وعد اللورد بلفور، الذي ترجمه الى العربية، ويقرأ على مسامعهم». هنا ايضا لا يوجد اي نوع من السخرية. حقا، المستعمر يحثّ مواطنيه ليهتموا بانفسهم. الا انه في «السيد ماني»

الشخصية التي تحت ليست جزءا من الاجماع اليهودي . على العكس . ‹ماني هو سفارادي (شرقي) ويهوشواع يبذل قصارى جهده في تلك الرواية ، من اجل تحويله الى جزء شرعي من الاثنية اليهودية الجديدة . وبالذات بواسطة حيل روائية كـ«الزواج المختلط» بين السفارادِيم والاشكناز .

ولكن هناك مكان مهم في الرواية ، فيه يذهب ريفلين لينام في نفس السرير الذي ضاجع فيه والد كنته ابنته البكر ، تهيلا . هذا المشهد يذكرنا بنوم مولخو في سرير البنت في بلدة القادمين الجدد بالقرب من الحدود الشمالية . ولكن هنا ، عندما ينام ريفلين في هذا السرير ، فهو لا يتذكر المشهد في «مولخو» . قد تقولون ربما لا يعرف ريفلين رواية «مولخو» . انه يعرفها . وليس هذا مجرد اعجاب القاص بأدبه ، او لفت انتباه القارئ الى ما يحب النقاد تسميته «إشارة ذاتية» . المكان الذي تفسّر فيه بعض عدائية المؤلف للعرب هو سرير آخر ، حيث ينوّم يهوشواع ريفلين ويجعله يتذكر مولخو . ريفلين يصل القرية العربية التي ترد دومًا بكلمات «القرية العربية» ، ولا يوجد ذكر لاسمها تقريبًا (المنصورة ، وهي قرية دمّرت عام ١٩٤٨ في العالم الحقيقي وطرد أهلها) ، وهناك ينام في سرير راشد . هنا بالذات ، وليس في البنسيون . «يتذكر قصة موظفي وزارة الداخلية الذي أرسل بعد وفاة زوجته لفحص استمارات ووثائق واهية في بلدة مهاجرين بعيدة في الجليل ، ليس بعيدًا عن هنا ، وفي وسط النهار غاب في نوم عميق ، متجاهلاً الجميع ، في سرير طفلة شابة ، ولكن نفس الموظف نام بين يهود» . هنا بالذات يتذكر ، بين العرب . وهنا الخبث : تحت بتر «الهوية» تتم اللهفة لاستبدال أصل مولخو الإثني – السفارادي الوسيط بين الدولة «الإشكنازية» وبين البلدة «السوداء» – بريفلين . وهذا لا ينجح لدى يهوشواع ، لأنه في كل مرة يطلّ شيء من المكتوم الذي يعود بوسائل أخرى (كالموسيقى المذكورة أعلاه) . الآن ستفهمون أيضًا لماذا نسي يهوشوع ان يشمل في «السنوات الخمس الحاسمة في حياة الشعب اليهودي» ، في «مار ماني» (١٨٤٨ ، ١٨٩٧ ، ١٩١٧ ، ١٩٤١ ، ١٩٨٢) بالذات اهم سنة في التاريخ اليهودي الحديث ١٩٤٨ : حيث هاجر مولخو من بلاده ومجتمعه الى الدولة الجديدة التي عرفته من جديد وهو يكره هذا التعريف ، كان يرغب في نسيان ماضيه لكي يتعاطف مع الهوية الجديدة . من اين هاجر ؟ من القدس السفارادية .

هكذا كتب يهوشواع في ما يشبه التأبين لوالده قبل ان كتب «مولخو» :

كان السفارادِيم القدامى ، شيوخ العائلة وما شابه ، جزءا فقط من كياني وليس الجزء الذي يدعو الى التعاطف كثيرا . سنوات التحضير التي سبقت قيام الدولة خلقت ابطالا آخرين ، كنت اتابعهم ساعات طويلة من نافذة بيتي في شارع «الملك جورج» ، وهم يتجولون

بالقرب من سينما «تلْ أور» و«بيت الهستدروت». في البداية بملابس الخاكي وقبعات الصوف (تلبس مثل الجوارب) وبعد نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٤٧ مع الستينات وسيارات الجيب ايضا. هم القلائل، المتواضعون الذين لم اجعل منهم شخصيات رومانسية واسطورية لكي اقوّضها فيما بعد بإيهام رومانسي. لم يكونوا متصلين بجدي الذي كان يرتدي العباءة السوداء والطربوش في شوارع القدس، عندما كنت التقيه واحيانا عندما اكون ماشيا برفقة زملائي من «الثانوية العبرية» كنت أخجل وارتبك بعض الشيء.

وبعد ذلك يواصل اعترافاته:

لقد عشت الدُّرج الذي كانت تعشش فيه ملابس اليهودي المنصهر (المتنكر ليهوديته المندمج بين النصارى) في احدى مدن اوروبا الكبرى. في النهاية لم ارغب في ان اكون اشكنازيا بل اسرائيليا وقد كان هذا هدفًا ايديولوجيا جيدا، وأخلاقيا وصحيحا من جميع النواحي، ولكن كان في ذلك –اذا كنت ساكون مستقيما حتى النهاية مع نفسي– بعض الراحة وخاصة في التميّز عن موجات القادمين الجدد لليهود من الدول العربية الذين وصلوا في اوائل الخمسينات مع كل مشاكلهم.

اي اسم اختار مولخو (يهوشواع) لشهادته كقادم جديد الى القدس الجديدة، الى دولة اسرائيل؟ وعليه، بعد الكثير من الضربات، والكثير من الهزات، بنى يهوشواع لنفسه شخصية تحمل اسما نموذجيًا جدا لشخص اشكنازي علماني من تلك القدس العثمانية / الانتدابية، – ريفلين. أوليست هذه هي الفانتازيا العميقة ليهوشواع، فيما وراء الكراهية للعرب؟ الكراهية للشرق، الرغبة في نهاية المطاف في تغيير «لون البشرة». الى من لم يفهم بعد كم كان يهوشواع مرتبكًا والى اي مدى لم يصمد كانسان مستقل امام الحاح المجتمع، اليه هاتين القطعتين من الاعتراف الذي يهز نياط القلب:

في فترة صبانا ومراهقتنا لم يكن الابطال الذين قدمهم الينا (والدي) هم الربانيم (رجال الدين) السفارديم او وجهاء الطائفة بل الموظفين اليهود الكبار في حكومة الانتداب البريطاني حيث كان يعمل، مثقفي الجامعة العبرية حيث انهى دراسته الثانوية في اوائل العشرينات. كان هؤلاء هم احياؤه الحقيقيون والذين كان يتحدث عنهم بانفعال.

هل تعرفون من اين ظهر ريفلين بالذات (كان هناك مستشرق مهم بهذا الاسم، غير ان هذه نقطة غير ذات اهمية)؟ لم يسمح يهوشواع لبطله ان يكون البروفيسور مولخو او البروفيسور ماني او اي نموذج آخر من القدس القديمة، ولكن اشكنازي وبالطبع بروفيسور، «كما اراد ابي». من يريد ان يرى جذور القصة القصيرة العميقة التي ذكرتها في بداية

المقال، لينظر الى هذا الاقتباس من نفس التأبين – المقال:

لا عجب انني اصبت بالعدوى الروسية التي لم تشدني الى حب الادب والموسيقى الروسية بل وجهتني كما الرادار الى الخلفية الروسية لزوجتي في المستقبل.

علينا ان نعود الى «العروس المحررة» بعد ان رأينا ان التحرير كان بالطبع ليهوشواع، يهوشواع السفارادي الذي يكره الشرق. ريفلين لم يعد ذلك الموظف في وزارة الداخلية (بمعنى انه ليس موظفا بيروقراطيا يصدر الهويات)، بل مستشرق اشكنازي، يشتغل في الفوارق بين الهويتين على طرفي «الحدود». هذا هو الانشغال المحموم الذي يصدر دائما من هوامش الامم العصرية، بالقرب من حدودها: اعادة اختراع القومية على انها إثنية، لا على انها مجتمع عصري وديمقراطي، فسيفساء من الهويات. لكي يكون اسرائيليا حقا، لا يستطيع ريفلين يهوشواع الا ان ينشغل دون انقطاع بقضية «الهوية القومية»، مثله مثل الهوموفوب (من يكره اللوطيين) الذي يخشى اكثر ما يخشى ميوله الجنسية اللوطية. لكن القومية ليست الاثنية، كما انه يحظر عليها ان تتحول الى اثنية. هذه بالطبع مشكلة «سياسية». المشكلة «الادبية» تصاغ باختصار اشد: المقارنة الاجتماعية – السياسية بين غشيان المحارم بين الاب وابنته وبين طمس الحدود بين اسرائيل وفلسطين يمكن ان يستخدمها السياسيون، والجنرالات، ورسامو الخرائط، وصيادو البشر ورجال الشرطة العاديون. عندما يأتي كاتب رواية لمواجهة هذا يقع في فخ العنصرية، لا «الستيريوتيبيات». الا ان هذا الفخ اعمق بكثير مما قد يتصور: كراهية يهوشواع للعربي هي كراهيته للشرق، ورغبته الجامحة ليكون جزءا من «قاعة الحفلات الموسيقية» الغربية. اذا كان في «مولخو» واجه هذا الشرخ بين رغبته وبين المجتمع الذي اراد ان ينتمي اليه، فهو هنا يقوم بذلك بواسطة ما يعرف في الغرب كـWhite Trash.

في مرحلة معينة من الرحلة الفولكلورية الطويلة، يصل ريفلين الى رام الله، الى مهرجان غنائي. يوجد هنا استهزاء كبير. ليس سخرية من ريفلين، بل من الاقلية. هناك تندر طويل موضوعه راهبة عربية من لبنان، تغني اغاني بيزنطية والجمهور بانتظار ان يغمى عليها (وكذلك ريفلين/ مولخو)، وهناك مهرجان غنائي: «ومنذ الاغنية الاولى بدا انه ليس من السهل على الفلسطينيين ان يتنازلوا عن البكاء على الطرد وكونهم لاجئين». هذا هو الجزء المضحك، الذي اختصر في اقتباسه، ومحوره – الاستهزاء بالصدمة. ولكن القمة تصل في الوصف السخيف لمحمود درويش: نوع من المحاولة لاهانة الادب العربي الفلسطيني وزيادة على ذلك للسخرية من النكبة الفلسطينية. عندما يغادر ريفلين وحاشيته يفوتهم توديع درويش: «اتضح انه اسرع بعد الاغماءة في ركوب سيارة الاجرة

الخاصة لتعيده الى بيته الثاني في عمان وراء نهر الاردن هناك يعيش ألم اللجوء في صفاء أكبر». انتبهوا الى العمى: على طول الرواية نجد أوصافًا لحنين ريقلين الى البيت الذي ولد وتربى فيه في القدس. وبالمقابل محمود درويش «يعيش ألم اللجوء في صفاء أكبر». (وهو ايضا «العجوز الأعزب»). لانه محروم من العودة الى قريته وهو مجبر على حبّ رام الله بالذات، التي خصصها له في الشؤون الاجتماعية– السياسية وكأنها أدبه، يهوشواع الكاتب في الشؤون الاجتماعية–السياسية. درويش في غنى عن دفاعي. الا ان صحة حياتنا الادبية تتطلب ان نذكر ان قريته قد خرّبت عندما كان طفلا وقد حمل على ذراع والديه في الليل الى لبنان. من الجدير بالذكر ايضا ان درويش عاش في بيروت في فترة القصف المفزع الذي قام به سلاح الجو الاسرائيلي على الاحياء السكنية في صيف ١٩٨٢. وهو محروم من زيارة امه واخوته في القرية التي ترعرع فيها بعد التطهير العرقي عام ١٩٤٨.

بالمناسبة، لقد قرأت على مسامع درويش فقرات يهوشواع «المهينة» في احدى مكالماتي التلفونية معه في رام الله – لا في عمان، عندما كانت الدبابات الاسرائيلية تقصف بديل الاستقلال الفلسطيني. الرواية ليست ساخرة من البطل المثقف. هذه الرواية هي جزء من السم.

185

ثقافة عبرية

[1] زاوية التعليق اليومية في الصحف.

[2] تلميح إلى أسلوب حديث إيهود براك الذي طالما امتدحه يهوشواع.

[3] إشارة إلى الجنود الذين يخدمون كمعلمين في المدارس الإسرائيلية.

نشر هذا المقال في جريدة «هآرتس» على حلقتين. بعد ذلك قررت ان اجعلها بكاملها الخاتمة لكتاب مقالات عن الادب والثقافة والسياسة الذي كتب في غالبيته قبل الانتفاضة الثانية. كانت نيتي ان اضيف الى الكتاب صفحة ختام قصيرة، ابدي ملاحظة او ملاحظتين على المقالات. ولكن بعد ذلك، بعد وقت طويل من وجود الكتاب في مراحل الاعداد، قرأت رواية أ.ب. يهوشواع، «العروس المحررة»، رواية متغطرسة، وملية بالتبجح باحتلال الحدود بين الاغلبية والاقلية، وزحزحة الحدود بعض الشيء، ثم بعض الشيء، ثم بعض الشيء، تمامًا كما تفعل اسرائيل، باسم «الحق في حياة آمنة»، وفي الحقيقة بفضل القوة. هذه الرواية العنصرية – لم أقرأ في الثقافة العبرية «العالية» نصًا اكثر عنصرية منها. لم تكن هذه الرواية تستحق الجهد الذي بذلته

فيها، لولا مرور عنصريته بهدوء حتى عند النقاد الذين لم يتحمّسوا له. نفاق؟ الخوف من السيد؟ شفافيتها الايديولوجية ؟ من الصعب ان نقرر. الحقيقة هي ان الكتاب يباع جيدا، وقد نال تصفيق البارونات العجزة، الذين هم بطبيعة الحال عنصريون مثل يهوشواع، الفرحين بفرحته «بتغيير منبته» بواسطة الاستشراق. اليس هذا مثلا على حياتنا؟ ربما. مثل اعمى واصم وابكم عن صراخ اليتم من حولنا.

(أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠١)

المؤلف شاعر وكاتب إسرائيلي

الترجمة: جميل غنايم

عـلاء الـديـن كـاتـبـة

البرغوثي: حالة سوء فهم

« اللغة موهوبة في قدرتها على سوء التفاهم »
(« الضوء الأزرق »، حسين البرغوثي)

ربما سنحظى قريباً في الثقافة الفلسطينية بقضية شبيهة بتلك التي أرّقت أفلاطون وفلاسفة عصره، كان محورها « جسد سقراط » الذي جرح بقبحه مقاييس جمالهم، وبات قبحه دالاً على أن الجمال الحقيقي يكمن في أعماق بعيدة عن السطح. . أقول قضية شبيهة – لكنها ليست حرفية في أبعادها – سيكون محورها « شعر حسين البرغوثي »، وقد تفرّخ القضية العديد من الأسئلة التي يفترض بها أن تثري تجربة الثقافة الفلسطينية، وليس تجربتها الأدبية فحسب؛ فهل كل ما أطلق عليه البرغوثي شعراً هو شعر؟ وكيف يمكن للقصيدة أن تكون هندسة؟ كيف يمكن للشاعر أن يفكر في القصيدة التي في ذهنه؟ ما هي علاقة الشعر بالفلسفة، وهل هناك حدود أو شروط ما للعلاقة، خاصة إذا نظرنا إليها من زاوية الشعر تارة، ومن زاوية الفلسفة تارة أخرى. . هكذا، يمكن للأسئلة أن تتوالد، ربما لنكتشف أن ما بيننا وبينه من مسافة معرفية هي كالفارق بين الثبات والحركة، وأن الكثير من أدواتنا المعرفية، وبالضرورة طريقتنا في السؤال، لن تفلح في مداواة جسدنا المريض بـ « ليمفوما » – سرطان الغدد الليمفاوية – أسوأ من تلك التي خانت البرغوثي في جسده.

إن مبدعاً مثل حسين البرغوثي، شاعراً كان أو فيلسوفاً أو ما نشاء له من ألقاب، يعرف جيداً أنه يمتهن « الفوضى، ليرتبك النظام »، لكنه نظام من؟ إنه نظام هؤلاء الذين « يحرسون الكلام من الخلخلة »، كان يعرف أنه يعيش استثنائيًا في عالمٍ عادي، يمنعه ذوقه (أخلاقه) من أن يكون مستثمراً جيداً لاستثنائيته، لكن واقعه هذا كان قد أفلح، ربما لبعض الوقت، في أن يسرقه من نفسه؛ من « حسين الحقيقي »، وأن يمتص طاقته الكامنة،

إلا ان هذه الحالة لم يكتب لها الاستمرار، بفضل ما كان حسين الحقيقي يشعله فيه من أسئلة، خاضها معه في رحلة قاسية للخيال في عالم ثانٍ بين العقل والجنون، حتى فاض عليه من نفسه بضوئه الأزرق، وأهداه منه زنبقة المعرفة، ليكتشف حسين ماهيته (جسده) في حضور القلب بالعقل، في ذات الوقت الذي كان البدن من الجسد يمارس انتقامه من / أو خيانته لـ« حسين الأرضي »، وكان قد نسيه.

أيقن حسين أن مكانه ليس هنا، فبحث عن عالمه الثاني، وما ان ادركه، حتى عرف أنه كائنٌ عادي في عالمٍ استثنائي، فعاش في عالمه الأول شبحاً، راجياً الا ينتبه إليه أحد، لكننا كنا قد انتبهنا، وانتبهنا أيضاً لأقنعته التي وضعها ليرصد المسافة بيننا. الكثيرون لم يعرفوا أنها أقنعة، فأعرضوا عنه، ربما كشف حسين للبعض وجهه أو كان قد عرفه مثل بري، فإن بعضنا ما زال يحاول (وأنا واحد من هؤلاء الذين ما زالوا يحاولون). لهذا كله سيبقى البرغوثي حياً – إلى أمدٍ لا اعرفه – كحالة تعبّر عن سوء فهم أو سوء تفاهم، هو نفسه تحدث عنها في اكثر من مكان. ربما سيعلقه الكثيرون كأيقونة على صدورهم، وآخرون سيغمضون أعينهم فقط عن أيقونته، واقفين عند حدود أقنعته ورافضين لها. حقاً « لا معنى للعقل بدون الكثرة من عدد البلهاء » القليلون فقط من سينظرون إلى حسين البرغوثي كحالة معرفية يمكن قراءتها ومحاورتها.

أسأل : هل كان يجب أن ننتظر موت حسين البرغوثي غير المفاجئ لنكتب عنه؟ بالطبع سنجد مبرراتنا للكتابة، ولا أود الدخول في أخلاقيات السؤال.. لكن يبقى عزائي الوحيد هنا أن حسين قد مهّد لنا الطريق لاستقبال موته كحالةٍ معرفية أيضاً، يمكننا أن نسبر أغوارها. على أن فجيعة موته يجب الا تغفلنا عن ضرورة التأني في قراءته، منذ عامين تقريباً وتراودني رغبة المحاولة، وما زلت أكف عنها، لأسباب تتعلق بمدى نضج أدواتي المعرفية الكافية لتناول البرغوثي، وأيضاً تتعلق بطبيعة مشروع البرغوثي الأدبي، حيث ما زلت أمتلك القناعة أن كاتبًا مثل البرغوثي لا يجوز قراءته من زاوية جمالية أو نقدية أحادية الجانب، ولكن يجب قراءته في كليته، يجب معرفته في قلب العلامة التي يقيم فيها ويبعثها؛ « تلك علامة / قائمٌ في العلامة، بل في الذي بعث العلامة / فالكون علامات ». يحيلنا هذا إلى الكيفية التي أظنها ملائمة لقراءة لغة حسين البرغوثي، لذا فإن هذه المقالة تأتي كمدخل، أو مجرد محاولة – سوء فهم – لقراءة نص البرغوثي في كليته، فهو نص متعدد المستويات والمرايا، ينبع على ما أظن من نقطة واحدة أو جوهر واحد، يغلفه شاعرنا بأقنعة اللغة، ليبدو غامضاً ومفتتاً في مراياه، لكن قد لا يغيب عنّا أنه يكمن في روحه العالية أو المتعالية التي تحيا دورتها هناك، وليس هنا..

« في هذه الحياة أحيا لاعرف، لكن في الحياة الثانية
سوف أرجع للأرض طفلاً نبياً. أمشي... »

ترتبط لغة البرغوثي بتجربته القاسية من أجل المعرفة، خاصة فيما يتعلق بجانب الفهم، فهو في حياته الأولى يحيا ليفهم أناه، وأيضاً ليفهم علاقتها بالكون وبالآخر، ليكتشف أن كل شيء في هذا الكون له لغته ووعيه الخاصان به، كذلك أن اللغة - وهي ما تعبر في الاصل عن حالة الوعي - يمكنها أن تختلف وتتغير باختلاف الزاوية التي تتعالق بها الأشياء ببعضها، فما هي حقاً لغة البحر حين ينظر إلى طفل الجبل (حسين) والذي يقف مرتعداً منه، يحافظ على ما بينهما من مسافة ؟! هذا هو سؤاله. كذلك لو نظر لنفسه على أنه قطة مثلاً، وليس قطاً، فإن لغته حتماً ستختلف، فعليه أولاً أن يخرج من كونه ذكراً، ثم من كونه بشراً، ليبحث في لغة القطة.

قال له نبيه يوماً: « كثيراً ما طوّفت، وأغرب ما أبصرت هو العادي، قلت القطة ليست عادية، قال طبيعتها تلك، وما يجعلها عادية، مثلاً في عينيك، يُذهلني، أنتم الغرباء عنّي، وما زلت أستالفُ عالمكم ». هنا ما قد نراه عادياً ليس بالضرورة أن يكون كذلك لغيرنا، فما نلوكه من « لغةٍ واحدة كالسعادين »، ليس بالضرورة مجدية لنفهم لغة تمثال أو قطة، فكيف إذن بلغة الكون، أو لغة « العقل الكلي » للكون - كما يراه الفارابي ؟.. إن لغة البرغوثي هي قناع للغة ثانية؛ لغة متذكرة، وبالتالي فهي بالضرورة لغة أولى، لكنها ليس بالضرورة مجدية لنا، لأننا لا نفهمها. إذن لا بدّ هنا من المرايا، ولا بدّ من كسر كل أشكال القوالب الغبية للشعر واللغة على حدٍّ سواء، لنحصل على الفهم.

تتعدد مستويات المرايا عند البرغوثي، منها ما يمارس لعبتي الانكسار والانعكاس، وهي تنتشر أفقياً في النص، يوظفها البرغوثي بوعي حاد، مستفيداً من معرفته الواسعة بتقنيات وجماليات أجناس الكتابة المتنوعة، كذلك الفنون الأخرى، مثل الفن التشكيلي، النحت، السينما والمسرح. إنه حقاً يفكر في القصيدة - التي يكتبها - وعبرها.

المرايا الأكثر خطورة هي تلك التي تسبر الأعماق، بمعنى أن كل مرآة إذا دخلت فيها ستجد مرآة أخرى خلفها، ولكن كم منّا سيطيق لعبة سبر المرايا والأقنعة التي يمارسها الشاعر!.. الخلاصة أن لغة البرغوثي تتميز بتعدد مستوياتها الدلالاية أو العلاماتية، وبتوزيعات مختلفة (هي هندسته الأثيرة)، فهي تتوزع من مستوى واحد إلى عدد (ربما لا نهائي) من المستويات الدلالية في الجملة اللغوية الواحدة، أي أنها تتدرج من حالة الانتشار إلى حالة التكثيف؛ فمن لغة السرد العادية - ووظيفتها إبلاغ الرسالة - إلى لغة المجاز، ومن لغة المجاز إلى لغة الرمز، ومن لغة الرمز إلى لغة الإشارة، ومن لغة الإشارة إلى

اللغة المغلقة (لغة أيقونية أو طبيعية) التي ينطبق فيها الدال على مدلوله تمام الانطباق في واقعه المتخيل، فهي إذن لغة دائرية، قد تبدأ من اللغة المنطوقة وتنتهي إلى اللغة الأولى؛ لغة الأشياء البكر، كما تسيل في الخيال، والعكس.

« لماذا نحاس الضفاف؟ سألتها. ضحكت. « لأنني عاجزة عن قول ما في ذهني، توجد لغات جاهزة، متذكرة، موازية للتجربة، وتوجد لغات أخرى » .. ضحكت ».

هكذا يمكن أن نفهم مثلاً قوله: « كانت واقفة في الشباك الخلفي / كاشفة نهديها للغروب / كاقحوان في إناء »، فالجملة تحمل دلالة رمزية وأيقونية، على مستوى التقطيع؛ فالجزء الأول من الجملة سردي متخيل، والثاني سردي ورمزي في آن، أما الثالث فهو مجازي ومغلق. إنه يبحث للنهدين عن تشبيه، لكنهما في واقع المخيلة ليسا كذلك على الإطلاق، نجد هذه الحالة في ذات النص بقوله: « مددت يدي إلى قباب نهديها النحاسية تحت الغروب »، اما لماذا نهداها نحاسيتان؟ لانهما ببساطة هكذا كانا في واقع المخيلة، دون قصد تشبيههما بالقبب النحاسية، فما الذي يمنع أن تكون القبب النحاسية في الأصل نهوداً رأيناها في الحلم على هذه الشاكلة.. ماذا قال له بري حين سأله ما العقل؟.. « أشار بيده اليمنى إلى مصابيح النيون، ومرآة الإسفلت، وناطحات السحاب بقرب الميناء بعيداً، وإلى السوبرماركتات المغلقة، ومكتبة الجامعة، وقال: هذا هو العقل ».

لكن محاولات سبر مستويات اللغة (الأقنعة والمرايا، حيث كل مرآة هي أيضاً قناع) عند البرغوثي، لا يمكن أن تأتي أكلها دون فهم عميق لرحلته المعرفية، والتي ربما بدأت من حالة فصام (معرفي) بين الأنا والكون، كذلك بين العقل والقلب، لتنتهي إلى مصالحة بين طرفي المعرفة. رحلة بدأت مع عقلانية ديكارت، ومادية ماركس، و« اللاوعي » عند فرويد، ولم تنته عند عرفانية جلال الدين الرومي، و« العقل الكلي » عند الفارابي، و« الطاقة الكونية » عند كونفوشيوس. إنها رحلة معرفية طويلة تمد جذورها في فصام الغرب ووحدانية الشرق، ربما ليجد له توازناً بين هذا وذاك، في تكامل العقل والقلب؛ في عقل القلب، وربما في قلب العقل، أي في عقلانية عرفانية ترتكز على وحدة الكون والجسد. لا أدري!..

ما أعرفه أن هذه الرحلة تبدو في نص البرغوثي متداخلة، أي أنه زمنياً يصعب تجزئتها، ولكنها تحمل زمنها الخاص في ذات النص؛ من شتاتها في مرايا مهشمة إلى كثافتها في مرايا سائلة، وهي على سبيل اللاحصر، تظهر في أسئلته عن العقل والجنون مثلاً / العقل والقلب / الأنا والكون / الأنا والآخر / الفوضى والشكل / الثبات والحركة / الوعي واللاوعي / الذكورة والأنوثة / الواقع والمتخيل / الفيزياء وما وراء الفيزياء / الوضوح والغموض / الشعر والفلسفة / أو الشعر والهندسة. « الشعر عندي سؤال حين تسأله /

يصبح عنك السؤال / وحين تقفله ؟ / لك هذا الرخام! » . . أما لماذا الرخام؟ فلا أدري! . .

سنعثر أيضاً على ثنائيات دلالية أو رمزية مشتبكة في نصه، مثل . . الجبل والبحر / الشاعر والنبي (الطفل) / الشاعر والسيدة / المنطوق والمتذكر / الاب والابن . . لا يخلو نصه أيضاً من علامات آحادية، على ذات الدرجة من الاهمية، مثل . . القمر / الأزرق / الرخام / الناي / المرايا / الأقنعة / الفضة / النحاس / الذهب، وهكذا . .

رغم هذا، قد لا يكتمل ولوجنا في نص البرغوثي، دون أن ننشئ علاقتنا الخاصة بالألوان، فالبرغوثي يوظف اللون في نصه بصورة بالغة، حيث لكل ذات لونها الخاص، ويمكن القول أن لكل معرفة، ولكل إيقاع، لونه الخاص أيضاً . يأتي اللون في نص البرغوثي ليجسد هذه القناعة، كذلك يحضر اللون لديه لكسر حدة الهندسة، ليضفي عليها جمالاً خاصاً، جمالاً سورياليا، يذكره البرغوثي على لسان سلفادور دالي في قوله لمحبوبته غالا : « أنا لا أرسم الجميل، بل الذي لا ينسى . أريد قصيدة لا تنسى، وليس جميلة ! » والجملة الأخيرة من العبارة هي لحسين البرغوثي . إن الإحساس باللون لا بد أن يكون إحساساً ذاتياً، وكأن البرغوثي يريد أن يقول لنا : إن المعرفة لا بد أن تكون ذاتية، ولذا لا يعيبه أن يضيف جملته على قول سلفادور دالي، لأنها باتت معرفته هو الذاتية . هكذا، لا يمكن أن ننشئ علاقة ما مع نصّه دون علاقتنا الذاتية نحن (بصورة منفردة) مع لون الذات، وهنا قد يتضح لنا أن علاقتنا مع البرغوثي لا يمكن أن تكون محايدة أو موضوعية، لكنها يمكن أن تقوم على موضوعية ذاتية (إذا نفذنا إلى كليته؛ في قلب العلامة التي يقيم فيها)، أي على سوء فهم، كأنه (أي البرغوثي) يُصرّ على هذا، ويدفعنا إليه، لأن اللغة – عنده – هي سوء تفاهم بامتياز . .

لقد تحرر حسين الحقيقي أخيراً من اللغة، وهو يعيش الآن في عالمه الخاص (في قلب لغة ما انفك يسعى إليها) ؛ إنه عالمٌ من الرقص والألوان .

« لن تلمّ بي لغة ألمت بي
وداعًا » .

كاتب فلسطيني مقيم في خانيونس/ فلسطين

قدر أكيد على ضفاف غير أكيدة

ربما ستكون هذه أول كتابة أكتبها دون أن يكون في ذهني انه سيقرأها ويشير الى حركة الاغوار التي لم تلامس السطح كمركز الموج والى الحاجة الضرورية والصعبة – في آن معًا – للمزاوجة بين الابستمولوجي والانطولوجي . ربما عليّ الآن ان أكتفي بما أعطاه بقلب أمين ورؤيا لا تفصل لحظة الشعور عن لغة جماله . وربما، الف ربما، لكن يقينًا واحدًا يغسل الصفحة والهامش من الضعف والإفراط باللغة التي لا تعامد القلب ولا تفيض مع الروح التي انتبهت أخيرًا لميول خاماتها، إنه يقين لَمَسْتُهُ عن كثب حين فارَقَتهُ الحياة وذَهبت إلى صباح عادي ينتابه ما ينتابه من صحو وتفاصيل مهمة وغير مهمة، تحتشد وتتراكم لتكون النهار الطبيعي لمن لم يعرف حسين جميل البرغوثي.

اما نحن « الذين لا تصح علينا قواعد اللغة » فلنا شأن آخر مع الحياة وينبغي ان نسويه مليًا قبل ان نأنس الحضور بدونه، وقبل ان نبدأ تمارين الذهن والجسد بحثًا عن خيوطٍ لنسج الجميل الجديد وقبل ان نعود الى ما يهم وما ينفع من فهم الفهم وإزاحاته على القصيدة النص التي في ذهن الكون . وهو شأن خاص بالذين أحبوه وعرفوا انه بداية الطريق لا نهايته، وان كتاباته لا تحتاج الى مؤمنين او كفرة بل الى قوة خالصة للحب الذي قال عنه سيكفيه ليغمض عينيه آخر اغماضة وهو يحتضن عشية ما وعندها فقط يدرك انه نال ما كان يبحث عنه طوال هذه الرحلة.

ليس لاسمه في هذا الليل البعيد عن كل شيء إلا بحة الناي الذي إذا غنى فاض وايقظ القوى والكائنات لارتحالٍ بعرس الكون في ساعة الشفق التي يتحرك الكل فيها بهدوء وحتم نحو أمه العجوز، المُغرِقة.

ليس لاسمه موت وان ركب الجسد فرس النهر الذاهب الى قدر أكيد على ضفاف غير أكيدة . فوفاء الكائن للعناصر التي حفرت في صخر الروح الفج مدينتها، واسست تدابير القوى التي شأنها ان تصعد أبدًا على درج التعاليم التي تهدمها لتبنيها وفق هندسة أدق

واجمل – وجهٌ ماطرٌ وعينان لماحتان الى غروب اخضر تحاسي على أسوار اوروك، ربما او قرب هرم ربما، لكن المكان الآن اقدم بكثير مما يوحي به الجهاز (« حيال الحياة ») الذي كف عن الإحتيال وآل الى صمت ممتلئ بالرغبات غير المنجزة، والزمان أبطأ .

من سلحفاة تخطو على رمل الابدية المفرطة ببياضها وابتعادها وفوقهما وفوق كل شيء يحلق ذهنٌ صقر نادته الطقوس الى الأساطير في البلاد القديمة .

يفيض مستنهضًا التراب الذي ينهض في كل شيء ويستعد لرقص اسود تخرج إيقاعاته من رحم الروح حيث ظلت حبيسة لآلاف الاعوام وتحررت عندما تحرر .

لم أر لكن تخيلت او خيل لي ان خطوة واحدة تفصل الوردة الحمراء التي في ذهنه عن الظل الرمادي الذي يلتهم المشهد في عينيه، وانه اقام في الفاصل بين البابين وهلة ثم قرر هو الذي انتظرناه طويلاً انه قد « شعر بالحاجة لأن يمضي، شعر وفعل » تاركًا العلامات على الطريق لمن يمتلك الجرأة على ان يقامر بعمره على الأمل . لم يبشر بيأس او جحيم بل عدل موروثه الشخصي والجماعي ليتقن الضحك وكتب بالنشوة للجميل في كل شيء وبرهن حتى في آخر لحظاته انه منحاز تمامًا للحياة رغم تصالحه التام مع الموت .

عرفته، طالما عرفته، في ريعان الحكمة والقلب . ولم ادر لماذا كلما هفا أحد منا مد ذراعًا، انتشله الى الاعلى وقال : « لا تُخضع اعلى ما في روحك لادناها » .

وكنت اعرف ان سمعه وفهمه من قلائد الذهب الخالص وان لديه خزائن معرفة لم تفتح بعد فاخذت، ويا إلهي كم اخذت . ولما كان يعرف ان « الابداع سرقة والعبقرية نهب »، قال انهب مني ومن الكون ما يكفي لتكون مختلفًا . ووعدته ان افعل حتى تصبح القوة « شعورًا وفهمًا ولغة »،

خيط حرير ازرق الهو به بين اصابعي /
ووعدته خيلاً ترقص في السهل /
ولم تكف الثقة /
ووعدته قولا يسيل كما الالوهة في وجه بابها /
ولم تكف اللغة /

ومن طريق الى طريق آثر الحياة والجميل واراد العمق والسطح في آن معًا وأراد من الوقت كل احتمالات النجاة ومن القلب جسارة الموت واعيًا لتحولات الروح والجسد . ومنا اراد ان لا نرضى بقليل او منتصف وكذا يا حسين الذي علمت من علمت واعطيت روحك لتاخذ الامل : « يبدو ان ثمة جدوى » .

ان قلتُ ان هذا وداعًا كذبتُ وان قلتُ انك انت انت وكما كنتَ ايضا كذبتُ /

لكنك في مسحة الابيض /
تضيء الحواف /
وتذهب منا اليك /
لتعدل الإنحراف في خطى القوى /
لميل دائري نحو «الايفاء بالوعد» /
ولتعلن: «لكل من قالوا انتهى /
انك محض ابتدأت». /
هناك هنا والآن آتئذ /
حملتك الطبائع من سرها.

شاعر فلسطيني مقيم في رام الله/فلسطين

معتز أبو صالح

فراغ الناي

. . «ما كنت نايْ
كنت الفراغ الذي في داخل: من غيره
لا تقدرون على الغناء فقد
صممت نفسي فراغاً وصمتاً لكم
كي تغنوا الغنا
اين هو؟ أينكم؟
إن هندستي أن أصمّم نفسي وصمتي غناي . . »
(حسين البرغوثي)

ماذا أكتب عن حسين البرغوثي؟ ماذا أكتب وقد سمّى نفسه فراغ الناي. . ذاك الفراغ الذي يضعك في ورطة. . إن اقتربت منه فلا تستطيع أن تظلَّ كما كنت، لأنه سيحثُّك على الإمتلاء ليكون من اللائق أن تحاذيه. . وإن كنت بعيداً عنه فستشعر بالخسارة كونك محروماً من الإتكاء عليه.

قد يكون من الصعب أن أكتب عن حسين/الفراغ، لكنني أستطيع أن أكتب عمّا فعل بي. . أنا من أولئك الذين لمسوا فراغ حسين، وأقول وأنا بكامل وعيي: من يلمس فراغ حسين حتماً سيتغيَّر. . نعم، لمسته، فانفتحت أمامي متاهة، «فسيحة لمن يريد الدخول وضيّقة لمن يرغب في الخروج». .

«لقد دعونا حسين البرغوثي إلى الحلقة»، هكذا قال لي أحد الأصدقاء الذين كانوا ينظمون حلقات إبداعية في أماكن مختلفة. لم أكن أعرفه من قبل، لكنني شعرت بأنه شخص مهم. . في تلك الحلقة في مكان يدعى «الدائك» في حيفا، رأيته لأول مرة، قبل أكثر من ثلاث سنين. استطعت، في اللحظة الأولى، أن أتبيّن بأهم ميزات حسين/

الفراغ... كان يلبس قميصاً أحمر، بل أحمر فاقع، إلى درجة أنك لا تستطيع أن تراه دون أن تفكر بشيء ما.. نعم، استحوذني ذاك اللون الغريب.. راح يتكلم، أعني راح ينضح من «فراغه»، فتخيّلت كلماته بلون أحمر.. أحمر فاقع، ورويداً رويداً صرت أشعر بشبح أحمر يطاردني.. في لحظة قررت أن أقلب المعادلة، أعني أن أطارده أنا.. فعلاً، ففي نهاية الحلقة اقتربت منه وقلت له: هل عندك مانع أن ندعوك إلى الجولان لندوة ما؟ قال: بكل سرور.. متى تشاؤون. شعرت بالسعادة وبعدها رحت أنتظر فرصة مواتية لرؤية الشبح الأحمر مرة أخرى..

بعد ذلك بأشهر قليلة كنا في الجولان بصدد إقامة شهر ثقافي، وكنت من المنظمين لفعاليات الشهر، وكان اسم حسين البرغوثي أول الأسماء التي اقترحتها. اتصلت به ودعوته فوافق.. سألني عن موضوع الندوة. في الحقيقة لم يكن يهمني الموضوع، لأني كنت على يقين بأن حسين/الفراغ من الصعب أن تحدّه بموضوع.. اقترحت موضوعاً خطر ببالي في لحظتها: الايديولوجيا والأدب.

وصل إلى الجولان صباحاً مصطحباً زوجته «بترا» وابنه «آثر». كان موعد الندوة في الساعة السابعة والنصف مساء.. أقول وبكثير من الاعجاب إن حسين/الفراغ، من لحظة وصوله إلى حين مغادرته، أذهلنا تماماً.. لم ينقطع عن النضح من «فراغه» بكلماته «الحمراء». كان ينضح وآثر الشقي يحوم حوله ويكسر الأشياء.. أما هو فكان يقول لي: انظر.. انظر إلى «آثر»، ويضحك.. شعرت وكأنه يقول له: حطِّم يا آثر.. حطِّم واجعل الأشياء كما يحلو لك.

وصلنا القاعة الساعة السابعة.. راح يتمشى في المكان ماسكاً قلماً وقصاصة ورق سجّل عليها بعض الكلمات.. قالت زوجته: أحياناً يخاف حسين من تقييم الآخرين، يخاف أن يكون في تقييمهم مجاملات، خصوصاً أصدقاؤه. قلت لها: هنا لا أحد يعرفه وسيكون تقييمهم صادقاً..

أخيراً قدمت «الشبح الأحمر».. بعد نصف ساعة من النضح سكت، شعرت بالارتباك! انتظرت بضع ثوان لكنه ظل ساكتاً. قلت في نفسي «دخيلك يا حسين.. ماذا جرى أيها الشبح الأحمر».. خفت أن يكون قد تعب من الحديث طوال النهار، وللحظة نسيت تلك الميزة في حسين/الفراغ.. أنه يحث من أمامه على الامتلاء.. صعدت إلى المنصة بعدما عرفت أنه يريد أن يجيب الجمهور على أي سؤال.. وبدأت تنهال الأسئلة، سؤال يجر سؤالاً، وحتى الآن لا أدري كيف أجبر الشبح الأحمر ذلك الجمهور البسيط على طرح مثل تلك الأسئلة. مضت ثلاث ساعات وكان باستطاعته أن

يتحدث الليل بطوله وحتى الآن يسألني الكثيرون عنه فأقول في نفسي ما قالته « غجريته » :

. . « لا توقظن القوى النائمة فيك، قبل أن تستيقظ أنت .
وانتفعْ بالذي تعرفه .
لا تتكئن على الريح، هناك جبال تحسبها ثابتة وهي تمرق مثل مروق السحاب .
لا تتكئن، كقرد أبيض اللحية والإنحناء، على شعاع قمر
لا تبحثن عن صلابة في الزبد !
وَعُدْ لي واقفاً، لا عصا في يديك، ولا دليل خارجك،
خالصاً من عداك . . »

كان الحصار وكان حسين « رهين محبسين » : مرضه وحصار الدبابات . . ماتت رئتاه لكنهم قبلها قتلوا الهواء . . ماتت رجلاه لكنهم قبلها زرعوا الدروب حواجز، فقرر أن يفك الحصار بموته ليمشي في طريق أخرى . منعني الحصار أن أعيش موته لكنني سمعته في حلمي يقول :

وداعاً فلسطينْ
لقد هزمتنا القصيدةُ في عُقْرِ أحلامنا
هزمتنا القصيدةُ
قالت لنا :
لا خيارَ أمام اشتعالي
فإما حريقُ الغياب
وإما حريقُ الرياح
فلسطينُ
في الجرح كنّا التقينا
وكلٌّ بقبرٍ أرانا التآمنا

وداعاً فلسطينْ
أجفُّ من الحلم أمسيتُ
لكنني اغرقُ
كما ريشةٌ غادرتْ طائراً

قد ترى كلَّ شيءٍ
ولا منْ يراها
أخفُّ من الموتِ امسيتُ
لكنني أشهقُ
كما ميتٌ غادرَ القبرَ
يمشي
ويمشي
ولا وشمَ يعرفه

وداعاً فلسطينْ
يَليقُ بكِ اليوم ان تاخذي كلَّ ما فاتني
ولكنْ
هبيني نعيمَ الممات
وإن شئتِ فامحي خطايَ
وكلّ ما يدلُّ عليَّ هناك
وَنَذرٌ عليَّ
ساوقفُ ثلجي عليكِ
لاني تُفتتُني الذكريات
وَقولي . .
قولي أينَ أهاجرُ بَعدكِ والله حبيسٌ في وَعدكِ

كنعانُ وداعاً
بريءٌ أنا
فَرَسي عنها طارَ السرجْ
سأحاولُ نسيانكَ كلَّ دقيقة
ساحاولُ
إذ أحدجُ وجهكَ
ذاكَ المرسومَ على عينيّ
مغروسٌ في الرملِ

ويلبسُني الثلجْ
لكني، كي لا أنساكِ،
سأرسمُ وجهكِ فوقَ الرملِ
ولو أتعبني الموجْ
كنعانُ
عمّروكِ وما عمّروا فُتنوا بكِ واندثروا

الوداع فلسطينْ
يتناهى المكانُ بدونكِ للصفرِ
أما أنا
أتناهى إلى غابةٍ من رياحٍ
وبدرٍ كفيفْ
كلّما سرتُ درباً
ترنُّ خطايَ هناكَ
بـ« كوثرِ » عمري

تتناهى « المرايا السّائلة »
بغيابكِ للقفْرِ
حطّمتها كي أراني
ولكنني
ما رأيتُ سوى وجهِ طفلٍ
يسيرُ على ساعةٍ من سرابٍ وجمْرِ

الوداع..
غدرتني زوالعهم. ستخبتُ لي لساني
فليكنْ، مندوحُ الزوابعُ، والأصدقاءُ
سينتظرون تقيُّاها،
سوفَ يلتقطون كلامي أغاني...
وأمّا أنا..

في «ضوئيَ الأزرقِ»، اللاّ يغيبُ، زماني
فخُذيه
خُذيه للَيلك،
ولتوقديه بأنجُم هذا التراب العُماني
وَخُذي "حجرَ الوردِ" منّي
وَضعيه على صُبح نافذةٍ دون بيتٍ
ربما يُدركون:
بتدميرهم سوف تُزهرُ أحلى الأماني
يا رفاقي وداعاً..
فلتقولوا لصانعي الحصار:
هنا قرب بيتي
وليس بعيداً عن اللوزةِ
دعوا بقعة حرةً من ترابي
ولتسمحوا لي ببعض موتي..

شاعر سوري مقيم في هضبة الجولان السورية

فاطمة المحسن

محمود البريكان، الشاعر الذي هجس مقتله

هو الاول وإن غادر السباق مبكراً

مات محمود البريكان كما مات المتنبي على يد قطاع الطرق. تقول أخبار العراق إنه قُتل طعنًا وسرق بعض متاع يملكه ودنانير وعملات أخرى قليلة كانت بحوزته. تولّت أخته دفنه في مقبرة العائلة في البصرة، ونعته بضع سطور لاتحاد أدباء العراق.

في ملف الأقلام الذي خصصته للبريكان قبل تسع سنوات، كتب مهدي عيسى الصقر، الروائي المعروف، كلمة استشهد فيها بقول البريكان: «كل آداب العالم وفنونه، ما عاد بوسعها ان تمنع جريمة صغيرة واحدة من ان ترتكب، ولا ان تخفف من مظاهر العبث الشامل».

محمود البريكان الشاعر الذي تحوّل لغزاً في تاريخ العراق الأدبي وأيقونة وأمثولة، مات ميتة عبثية وغامضة، مثل مصير شعره الذي لم يطلع القارئ العربي بل حتى العراقي إلاّ على القليل منه. ظهر مع السياب وبدا مجدداً في القصائد القليلة التي نشرها نهاية الأربعينيات، وقيل إن الريادة الحقيقية في حركة الشعر العراقي الحر قد بدأت على يديه. وهو قول تعززه النماذج التي نشرها وشهادة مجايليه. كان صديقًا لأدباء مرحلته أو مزاملاً لهم، ويتردد قول يشير إلى أن السيّاب أراد أن يتولى إخراجه من عزلته ونشر شعره، وهو يدلل على أن شخصية مثل البريكان كانت تترفع عن المنافسات وتفرض حضوراً مختلفًا للأدب والأديب.

يختلف البريكان عن صحبه بمن فيهم السيّاب والبياتي، بثقافة موسوعية قلّ نظيرها بين الشعراء، على حد قول علي الشوك صديقه وشبيهه في بعض السمات. ربما كانت ثقافة البريكان وراء عزوفه عن النشر، وانقطاعه عن الحياة. فقد ظلّ ملازمًا مدينته البصرة وراغبًا عن الناس والوسط الثقافي، ولم ينشر إلى اليوم ديوانًا، ولكن مجموع ما ظهر له في الصحف والمجلات لا يتجاوز الـ ٣٦ قصيدة حسب إحصاء مجلة «الأقلام» في عددها الذي خصّته فيه بملف العام ١٩٩٣ وحوى شهادات نادرة لأصحابه من الأدباء العراقيين، إضافة إلى دراسات نقدية عنه.

لعل سيرة البريكان الشخصية تقارب في منطقها سيرته الجمالية وتكاد تتطابق معها، بيد أنها تسلط الضوء على بعض ما تنطوي عليه الثقافة العراقية من خفايا والتباسات تعزّز ذلك الولع لديها في خلق الأبطال الثقافيين، وتلك مفارقة في مجتمع تعوّد التنكّر للمبدعين وتجاهلهم. فما عاناه الرصافي والسيّاب والملائكة والجواهري والكاظمي وغائب طعمة فرمان وعلي الوردي والكثيرون غيرهم، لا يدلّل فقط على أن هناك إهمالاً متعمدًا وقمعًا يأتي من السلطات فقط، بل يشير إلى تقليد إجتماعي ينطوي على قلّة إكتراث بالثقافة والمثقفين. وقد شمل هذا التقليد البريكان وإن بدرجة انحراف قليلة. فالبريكان كان يحمل في المقابل ازدراء خفيًا لهذا المجتمع وربما تبرز بين علاماته تجاهله لعارض الشهرة. لعل ذلك الرأي يحتاج الكثير من البراهين التي تسندها سيرته الشخصية، فهو في شعره الأول لا يختلف عن غيره في نزعته الاجتماعية وانحيازه إلى الجماهير، بيد أن الاختلاف الجذري عند البريكان يكمن في ثقافته النوعية، تلك التي قادته إلى الإحساس المكثّف بإشكالية المعرفة وأزمتها عند الأديب ذاته. إن تواضعه الشخصي وكياسته وأدبه الجم، تكمن خلفها رغبة عارمة في تمجيد العقل المتعالي، ذلك الذي يؤدي إلى الشك بوظيفة الشكل الأدبي أو وظيفة الشعر في استيعاب الأغوار البعيدة للمعرفة وما تنطوي عليه البصيرة من أهواء.

ولا يمكن أن نحسب البريكان ثائرًا متمردًا من طراز آرثر رامبو مثلاً، حين أحرق أشعاره وانتهى عند حواف الشرق مهرب سلاح أو تاجر عبيد. بل إن البريكان شخصية متطامنة في مظهرها الخارجي، حاول أن يجنب نفسه الارتطامات السياسية العنيفة التي دفع ثمنها الكثير من الأدباء في العراق، وإن كانت المعتقلات والتعذيب أحد هواجس شعره.

بوسع البريكان أن يمضي بعيدًا في صمته، وهذا ما فعله سنوات طويلة، ولكنه حسب ما ذكر في مقابلة نادرة معه، لم يكف عن كتابة الشعر، والقليل الذي نشره وآخره كان قبل تسع سنوات، يدلّل على أنه كان ينحت بهدوء في أغوار القصيدة المتطلبة التي تناسب مقامه.

القصيدة لدى البريكان في النهاية، هي إستعارة موسّعة للحياة حيث بمقدورها الاقتراب من الحقيقة ولكنها لا تصل إلى معرفتها. إن المهمة التي أوكلها إلى نفسه، كانت أكثر من طاقة شاعر وأعلى سقفًا من موهبته ذاتها. عند هذا الحد، بمقدورنا أن نتخيّل بعض أسباب تتصل بطريقة تعامل البريكان مع الشعر والحياة.

فالبريكان مثله مثل عبد الملك نوري الذي برز قصاصًا ومثقفًا متميزًا في الأربعينيات من القرن المنصرم، كان ينوء بحمل ثقافته القصصية واطلاعه الواسع على الأدب العالمي والفن والموسيقى والمكتشفات العلمية الجديدة، وهوسه بدوستويفسكي وغيره من القصاصين

الكبار في العالم. كما كان يحمل تصوراً خاصاً عن موهبته دفعه إلى الإعراض عن فهم كيفية توظيفها، فانتهى إلى الصمت والعزلة المترفعة، فتحوّل إلى حكاية من حكايات الثقافة العراقية. يختلف البريكان بلا شك عن عبد الملك نوري، ولكنه يمت إليه بصلة يشاركهما فيها بعض الأدباء والفنانين العراقيين من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومنهم الفنان التشكيلي محمود صبري، وعلي الشوك الباحث المعروف، وسواهما، سواء من واصل منهم أو هجر الأدب والفن في وقت مبكر. إن ثقافتهم النادرة وسعة اطّلاعهم على الفنون والنظريات والأفكار العالمية، أحدثت لديهم أزمة حادة في الوعي، وغربة عن المجتمع حتى في فترة انتماء بعضهم إلى الحياة السياسية، كما هو الحال مع علي الشوك ومحمود صبري.

بعض ما نشر من شعر البريكان يشير إلى أنه يرى في القصيدة شيئاً أكبر من بداهة الشعر، بل هي ضرب من صناعة الشاعر لنفسه أو إعادة تقديمها في حال من التوافق والانسجام مع سمو الروح ورفعتها. إنه يقول في حديث له حول مفهوم الشكل الفني: «التشكيل الفني للقصيدة هو تشكيل للروح، وكيان القصيدة ذاته يسهم في الاحتفاء بانتصار الشاعر على الفناء ويرسم رؤياه في مادة الكلمات». يمهد البريكان لهذا بقوله: «لا يكون الشعر عظيماً حتى يتجاوز اليومي والمألوف والمباشر، وإن بدا أنه يصوّر المألوفات».

القليل من صور البريكان تخلو من تلك المسحة التي يحاول أن يضفي عليها سموّاً ورفعة، تنأى بها عن هرطقات الشعر وتخريب المعاني. إن صقله شعره يوفر له نظافة خاصة ونضارة تجنبه المستصغر من الأشياء، والطارئ من الكلمات، والمبتكر منها أيضاً، وتلك مفارقة ليست لصالح شعره. يخيّل إلى قارئه أنه التقى الكثير من مفرداته وصوره في مكان آخر، وعند شعراء عالميين، وعلى وجه الخصوص بين تلك التجارب المنشغلة بمفهوم الشعر الكوني. بيد أن البريكان لا يتعامل مع تأثير هذا الشعر، مثل ما يتعامل غيره، إنه يعيد صقل تلك الصور وتهذيبها حتى تنتسب إليه. وفي كل الأحوال لا يمكن أن يدلّنا ما نشر من شعره على تضاريسه بأكملها، غير أن الذي يدركه القارئ، هو طريقته المخلصة في التثاقف مع الموروث العالمي، فهو لا يملك خفة بدر شاكر السيّاب وطلاقته في مزج المحلي بالعالمي، ولا صنعة البياتي في استجلاب الثقافة إلى الشعر، ولا تجريدات أدونيس وبحثه عن مضمون فلسفي لشعره. عمق المعنى لدى البريكان ووضوح الصورة بمقدورهما عكس تلك الشفافية التي ينظر من خلالها إلى العالم. القصيدة لديه لا تجسّد حقيقة بل تصوّر كثافة ثقلها على الروح. فزعه من العالم وانفصاله عنه، يجعل من شعره محض معاناة خالصة يظهرها في هندسة الشعر وفي ترتيب الصور التي تبدو وكأنها على ثقة من أمر إيقاعها. في الكثير من الصور يتصاعد هذا الإيقاع رويداً رويداً وبخفوت، كي يلامس ذلك الفزع والخوف:

«غرفة المسرح الساكنة
ألفت في السكينة عزلة أشيائها
عزلة الجسم عمّا يجاوره، والهياكل عن روحها،
والعناصر عن ظلّها المختلف.
لا يشوّش فوضى الكتل
ولا يقاطع صمت الظلال
غير أصواتهم، عندما يُفتح الباب، ما بين حين وحين
ويُحرك زر الضياء».

غير ان البريكان لا يعتزل برجه العاجي كما يمكن ان يقال عن المثقف النخبوي، وهو لا يؤمن بهرطقات الفن للفن، فشعره شاهد على رهافة في التقاط الإنساني من الحياة، ومن دون تصنّع أو تعمّل أو مجاهدة. الذي يحدث لديه ان عاطفته التي يترفّع عن إظهارها في قول مباشر، يتمترس خلفها شعره. بيد أنه يدعو القارئ إلى معاينتها من زاوية مختلفة، وسياقات أعم من الانشغالات اليومية للحياة.

في زمن الحرب وفي العام ١٩٨٩ كتب البريكان قصيدة أسماها «التصحر» يقول في مقطع منها:

«في الهواء
يتحرك هذا الوباء الذي لا إسم له
يتسلّل عبر الستائر
ينفذ من بين شقوق النوافذ
يسبح في الغرف الهادئة
ويشعّ مع الضوء من شاشة
ويرسب ظلاً خفيفًا على الأغطية
ويرشّ ببطء على كل شيء
طبقات الغبار.
لا يُحس به حين يظهر.
كل علاماته خلل غامض في الرؤى
ودوار».

إنه شاعر خمسيني بامتياز في هذه القصيدة، فالقرينة واضحة ولا تحتاج إلى كد لاستنباطها، وهي تحرك موسيقى القافية لتتجه نحو تكوين صورة وصفية، غير ان حرصه

على الاستزادة في العلاقة السببية بين الشيء وعرضه، يشكّل محور العاطفة الكامنة او المستترة في الصورة. فالدائرة أغلقت من حيث ينبغي أن تبدأ في الكلام العادي، اي بكلمة «الغبار»، ولكنه زاد عليها حين استدرك بآثار ذلك الغبار على الإنسان.

ندرك حس البريكان التراجيدي في كل سطر شعري، ولعل نزعة التشاؤم واليأس تكسبه غنائية يسعى الشاعر إلى تغييبها، أو حجبها، ولكنها تشي به وتسفر عن وجهها في كل مرة.

لعل الصدفة، أو هذا الزمن الذي يفزعه ويحتمي منه في جدران بيته، قد باغته بالضربة الأخيرة، غير أن دقّات نذيرها كانت تسكن شعره:

«على الباب نقر خفيف
على الباب نقر بصوت خفيف ولكن شديد الوضوح
يعاود ليلاً. اراقبه. اتوقعه ليلة بعد ليلة
أصيخ إليه بإيقاعه المتماثل
يعلو قليلاً قليلاً
ويخفت
أفتح بابي
وليس هناك أحد.
مَن الطارق المتخفّي؟ ترى؟
شبح عائد من ظلام المقابر؟
ضحية ماض مضى وحياة خلت
أتت تطلب الثار؟
اقبلت تنشد الصفح والمغفرة؟
رسول من الغيب يحمل لي دعوة غامضة
ومهرًا لأجل الرحيل؟».

(قصيدة «الطارق» – ١٩٨٤)

كاتبة وناقدة عراقية مقيمة في لندن

محمود البريكان

متاهة الفراشة

مهرجان المصابيح
لافتة المصنع الضخم ترسمها نبضات النيون
الفراشة لا تستطيع القراءة
رفت بكل رشاقتها
دخلت وهي ترقص
وانطلقت في رحاب المكان..
لمحت فجوة وانعكاسًا من الضوء
فانجذبت نحوه
سقطت وسط هاوية معتمة
ورأت سلمًا لولبيًا
وشيئًا كبرج من الصلب، لا تعرفه
وخيوط دخان
كبخار الصهاريج
والتقطت مدخلاً دائريًا
فخفت إليه
إذا نفق من حديد
يؤدي إلى نفق من حديد
وأحست بزاوية الميل
فانزلقت
واستقرت على حامل
عتلات مهاجمة
وكوابيس دوّارة

وأصابع من معدن
فحزام سريع
جرها فجأة
تلوت على نفسها
وعمياء كانت
أكان دمًا ما تفصد من جسدها؟
رأت نفسها في الهواء
بنصف جناح
ونصف جسد
ولم تستطع أن تحرك أطرافها
ولم ترتعش غير ظل ارتعاشة
وكانت هناك
على الأرض، تزحف،
نصف فراشة.

(١٩٨٨)

النهر تحت الأرض

النهر الغامض تحت الأرض
يجري بهدوء
يجري في الظلمة
لا صوت له
لا شكل له
يجري تحت الصحراء المحترقة
تحت حقول وبساتين

وتحت قرى ومدن
يجري يجري
نحو مصبّات مجهولة
عبر كهوف وبحيرات وصهاريج
ينحت مجراه ببطء
ويزامن نبض الأرض.

النهر الغامض تحت الأرض
لا إسم له
لا أثر له
في أية خارطة
في أي دليل سياحة.

النهر الغامض تحت الأرض
يجري أبداً
يجري يجري...

(١٩٩٠)

ســاســون ســومــيــخ

(دفــاتــر مــتــرجــم – ٢)

عيسى

كان لقائي الأول مع الشاعر والكاتب عيسى لوباني في يوم قائظ في صيف عام ١٩٥٨. توجهتُ إلى فندق صغير على ساحل البحر في تل أبيب اسمه، على ما أذكر، «فندق شالوم (السلام)»، وذلك للقاء عيسى وزوجته وكان معهما لؤي الصغير في القماط أو يكاد (ولؤي اليوم محامٍ وأب في الناصرة). لا أذكر الآن مَن رتّب ذلك اللقاء، ولكنني أذكر سببه بكل وضوح. كان عيسى قد جاء من الناصرة إلى تل أبيب ليحاول الاتّصال بوسائل الإعلام (ولم يكن هذا التعبير، أي «وسائل الإعلام»، موجودًا آنذاك باللغة العربية!)، وإثارة حملة جماهيرية ضد فصله من وظيفته التعليمية في وزارة المعارف. وكان الفصل قد حصل – كما كان يحصل آنذاك في الوسط العربي – لانتمائه السياسي أو لتأييده للحزب الشيوعي، ولمواقفه الوطنية الجريئة. وأخيراً، وليس آخرًا، لمعاقبته على قصيدة بعنوان «حكاية كفاح» ألقاها في مهرجان شعري عقد في كفرياسيف في شهر تموز / يوليو ١٩٥٧، ثم نشرتها مجلة «الجديد» الحيفاوية في عدد آب / أيلول ١٩٥٧.

لم أكن قد تعرّفت على عيسى قبل ذلك التاريخ، ولا أدري لماذا. فقد كنت أزور الناصرة بين حين وآخر، وكان لي فيها أصدقاء كثيرون، شعراء وكتّاب ونقّاد وصحافيون. ولكن اسمه كشاعر كان معروفًا لديّ، إذ أنه نشر عام ١٩٥٢ مجموعة شعرية عنوانها «أحلام ثائر»، هي في الواقع أول أو ثاني مجموعة شعرية عربية نشرت في البلاد بعد قيام الدولة. وكان عيسى ينشر إنتاجه في مجلة «الجديد» حال تأسيسها، وكنت أنا أيضًا من كتّاب «الجديد»، أنشر فيها الشعر والنقد، وبابًا كان يصدر أحيانًا تحت عنوان «رسالة تل أبيب».

كان اللقاء مع عيسى مؤثرًا، نتجت عنه صداقة وطيدة استمرّت أكثر من أربعين عامًا.

لم تنجح مساعينا المشتركة في إعادة عيسى إلى سلك التعليم، فافتتح مكتبة في الشارع الرئيسي في الناصرة أسماها «مكتبة الشعوب»، وظلّ يديرها مدة عشرين سنة تقريبًا. وداومت على زيارته في تلك المكتبة كلما استطعت الوصول إلى عاصمة الجليل، بل إن

زياراتي لمكتبة عيسى وتجاذب أطراف الحديث معه أصبحا جزءًا لا يتجزأ من تلك الزيارات. وكثيرًا ما كان يوافيني بالكتب الأدبية العربية التي كان الحصول عليها صعبًا في الخمسينات والستينات.

نعود إلى صيف ١٩٥٨: كانت إحدى نتائج اللقاء أن قررت ترجمة قصيدة «حكاية كفاح» بالذات إلى العبرية. وأعترف أني خلال قراءتي الأولى لأبياتها أزعجني ما فيها من الغضب والنقمة، وساءني أن الشاعر لم يضمّن قصيدته دعوة إلى السلام والتفاهم على عادة الشعراء المحليين آنذاك. ولكنني بعد أن تعرّفت على حكاية عيسى وعائلته وقريته، وقصة ترحيل سكان المجيدل، قريته، وخرابها، أصبحت أكثر استعدادًا لتفهم الأسلوب والمضمون الخاص للقصيدة.

و«حكاية كفاح» قصيدة طويلة مكوّنة من ٧١ بيتًا، نظمت على وزن «المتقارب» بالطريقة العمودية، لكنها ليست موحّدة القافية، ذلك أنها تبدأ بقافية الياء المكسورة حتى نهاية البيت الواحد والثلاثين، يليها ٣٢ بيتًا مقفاة بالتاء المربوطة المسكنة؛ أما الابيات الثمانية الختامية فقافيتها هي «– ون». أما من ناحية مضمونها فهي تنقسم إلى خمسة أو ستة «فصول» أو «حركات».

يتحدث الفصل الأول عن طفولة الشاعر وأترابه في القرية التي ولد فيها:

درجتُ على دربكِ المتربِ   صغيرًا بلا غايةٍ أحتبي
أنقلُ خطوي فلا أهتدي   إلى السَّننِ الأقومِ الأصوبِ
أدغدغُ آماليَ الضاحكاتِ   كما دُغدغتْ كُرةُ الملعبِ
وأحسبُ أن الورى بسمةٌ   على شفتَي إخوتي وأبي
وأمّيَ في الليلِ تهفو إليَّ   تُخفّفُ مِن سَقمي المُكربِ

أما الحركة التالية فتبدأ بالبيت التالي:

درجتُ مع الصّبيةِ الطيّبينَ   ننشَقُ من تربكِ الطيّبِ

وتستعرض هذه الحركة شبابه الأول وقسوة الحياة فيه، ولكن الحركة تنتهي بنهاية «متفائلة» إذ يقول:

ولكنْ، عودي، نما واستوى   وجدَّ إلى غدهِ الأقربِ

بخطوٍ مكينٍ، وعزمٍ وطيدٍ   يتيهُ اختيالاً، مع المركبِ

ولكننا حالما ننتقل إلى الحركة الثالثة نجد أن الأمل قد تلاشى وحلّت محله وقائع دامية، مضمونها الحرب والمأساة. فالقرويون يهيمون على وجوههم مشرّدين، والدماء تسيل ودموع اليتامى تنهمر:

وجهشةُ ثكلى، هوتْ في الطريق   تنادي وتصرُخُ: أبنائيه!!
تجيلُ العيون بما حولها   ومن ثمّ، للقرية النائيه
فترتدُّ مجهشةً باكية   تكفكف من دمعها ثانيه

ثم تلي هذه المقاطع حركتان، الأولى تعود بنا إلى حد ما إلى جو التفاؤل، التفاؤل المقرون بالنضال والصمود:

هنا في أعالي الجليل، تمتْ   وشبّت حكايتنا الساخره
مئات القرى في سفوح الجبال   وحول شماريخها النافره
تربّتْ وفي نفسها عزّةٌ   وفي صدرها نقمةٌ هادره
أنوفٌ بها من إباء الرجال   ومن أهله الحصة الوافره
تنام على مثخنات الجراح   ولكن ثورتها ساهره
فللفجر فيها عناقُ الحبيب   يدغدغ أطرافها الناشره
وللنسم ما ضاع من كرمها   ومن عطر أنفاسها الطاهره
وللطل أوراق زيتونها   وأغصان تينتها السادره

أما الأبيات الثمانية التي يختتم بها الشاعر مطولته فهي تتحدث عن المجرمين «أبطال» التشريد ومصّاصي دماء الشعب؛ وتنتهي القصيدة بالبيتين التاليين:

فبانت نوايا، وخابت ظنون   وهبّ مع الفجر ما يرهبون
لقد هبّ شعبي من نومه   فلم يطق الهبّة المجرمون

والواقع أن ترجمة هذه القصيدة، أو بالاحرى الملحمة، كلفتني عناء غير قليل. فقد كنت فيما سبق أترجم وأنشر نماذج مختارة من الشعر العربي الحديث؛ ولكنها في أغلب الأحيان قصائد قصيرة، وقصيدة عيسى طويلة جداً. والأنكى من ذلك أن أغلب القصائد التي كنت قد مارست ترجمتها حتى ذلك التاريخ كانت من النوع الجديد، ونظمت بأسلوب سهّل على المترجم نقله إلى لغة اخرى. وكنت أختار قصائد من نوع «الشعر الحر» لا تبنى على أساس «البيت» ولا تضمها قافية موحدة. ثم أن «الشعر الحر» وما تبعه من تجديدات في الشكل الشعري، مكّن الشاعر العربي من نبذ التعابير والكليشيهات الشعرية التقليدية، وشجعه على اختيار المفردات البسيطة ذات الطاقة الإيحائية الكبيرة، الأمر الذي جعل ترجمتها أكثر سهولة من ترجمة الشعر المنظوم على الطريقة الكلاسيكية. وكنت فيما سبق أكثر من ترجمة أشعار عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وعبد الرحمن الشرقاوي (ترجمتُ للشرقاوي، مثلاً مقاطع من قصيدته «رسالة من أب مصري إلى الرئيس ترومان»، وكانت عند نشرها في مصر بمثابة قفزة تجديدية هامة). أما مطوّلة عيسى لوباني فقد كانت بجملتها تنتمي إلى الأسلوب العمودي رغم ما فيها من تعابير شبه رومانسية.. والقافية الموحدة – أو شبه الموحدة – تكاد تكون ترجمتها غير ممكنة إلى اللغة العبرية أو إلى لغة أخرى حديثة أعرفها. فما العمل؟ هل أترجم القافية بالطريقة الرائجة آنذاك في الأدب العبري، أي بطريقة الدوبيت (اا – ب ب أو: أب – أب.. إلخ)، ولكن هذا النوع من التقفية سيخلق بلا ريب إيقاعًا وموسيقى مغايرين للموسيقى الملحمية التي تواكب القصيدة. ثم هناك الوزن: قصيدة عيسى لوباني منظومة على وزن المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعول)، والوزن نفسه موجود فعلاً في الادب العبري الوسيط حيث حاكى الشعراء العبريون في الأندلس وسائر أرجاء العالم العربي الأوزان العربية. ولكني لو نظمت ترجمتي على وزن المتقارب العبري لما حللتُ أي مشكلة. ذلك أنك لكي تسمع موسيقى الأوزان العبرية الوسيطة تحتاج إلى نطق الكلمات بنبر يختلف عن نبر اللغة العبرية المعاصرة. أما إذا قرأت قصيدة عبرية، وزنت بالأوزان العربية، بالنبر الإسرائيلي المعاصر، فلن تجد فيها لا وزنًا ولا موسيقى!

وأخيرًا، وبعد محاولات عديدة غير ناجحة، قرّ رايي على استخدام أحد الاوزان المتبعة في الأدب العبري المعاصر، وهو الوزن المعروف باليامب بحيث يستطيع القارئ العبري سماع موسيقى شعرية! وامتنعت عن استخدام القافية في أواخر الأسطر لكي لا يخطئ القارئ فينتظر قصيدة غنائية وهي في الواقع شبه ملحمية. (في محاولات أخرى استخدمت التقفية الموحدة مثلاً كما في ترجمة مقاطع من قصيدة «ستالنجراد» للشاعر

العراقي محمد مهدي الجواهري؛ كما حاولت الالتزام بالتقفية في ترجمة قصيدة من قصائد الصديق المرحوم توفيق زيّاد، سيأتي ذكرها في حلقة لاحقة من حلقات هذه السلسلة).

وبعد الانتهاء من ترجمة القصيدة، طُلب إليّ أن أختار نماذج من الشعر العربي المحلي وأترجمها إلى العبرية لقراءتها في اللقاء الاول للأدباء العبريين والعرب الذي عقد في شقة الكاتب بنيامين تموز في تشرين الاول/أكتوبر ١٩٥٨، فاخترت مطوّلة عيسى إلى جانب قصيدتين أخريين للمرحوم راشد حسين (راجع «مشارف»، العدد ١٥) وحنا أبو حنا.

ثم نشرت ترجمة «حكاية كفاح» بأكملها في صحيفة «مستا» الأدبية (وهي ملحق جريدة «المرحاب») بتاريخ ١٧ تشرين الاول/ أكتوبر ١٩٥٨. ولكن الترجمة نشرت بدون تشكيل، والمتبع في الادب العبري أن الشعر ينشر مشكّلاً بحيث أصبح التشكيل من لوازم الشعر الراقي. أما نشر قصيدة عيسى لوباني غير مشكّلة فربما خلق عند القارئ انطباعًا بأن النصّ الذي يقرأه هو نثري وسياسي ولا صلة له بالفن الراقي. وأخيرًا وليس آخرًا: قدمت هيئة تحرير «مستا» للقصيدة المترجمة بالكلمات التالية: «القصيدة المنشورة أدناه لشاعر عربي من قرية من قرى الجليل. وقد ألقيت في اللقاء الذي حصل بين الأدباء اليهود والعرب. وكما سمعنا في أثناء ذلك اللقاء – فقد فُصل الشاعر من وظيفته التدريسية بعد نشر القصيدة. ومن دون أن نتخذ موقفًا من مضمون القصيدة أو من قيمتها الفنية – والترجمة السريعة تُسيء طبعًا لفنيتها – فإننا نعرضها على القارئ العبري كنموذج نمطي للجو السائد في الوسط العربي وعند مثقفيه. ويسرنا وصول ردود فعل القراء على القصيدة. وقد أغفل المحرر ذكر اسم المترجم، ربما تجنبًا لإحراجه على ترجمته السريعة»!

وفعلاً أثارت القصيدة زوبعة أدبية، أو بالأحرى سياسية. توالت الرسائل على هيئة تحرير «مستا». وكانت جميع هذه الردود سلبيّة، اتّسمت بالغضب على هذا الشاعر العربي الغاضب الذي رفض أن يكتم ألمه وشكواه. وربما كانت ردود الفعل هذه مادة جيدة لتفهّم مواقف جملة المثقفين الإسرائيليين من جيرانهم العرب بعد عشر سنين من قيام الدولة، ولكنها لا تدخل في مجال دراسة الترجمة الأدبية أو الفن الأدبي، مما يجعلني في حلّ من استعراضها ودراستها ضمن هذه الذكريات الأدبية العابرة.

توفي عيسى لوباني في الناصرة في العام ١٩٩٩، وكان من مواليد ١٩٣١.

«دفاتر مترجم – ١»، نشرت في «مشارف» العدد ١٥، آذار–نيسان ١٩٩٧.

المؤلف أستاذ كرسي الأدب العربي في جامعة تل أبيب

انطون شماس يحاور الياس خوري:

« باب الشمس » قصة حب، وفي الأخير، الحب أهم من كل شيء

نبدأ بـ« مؤامرة » الترجمة. اريد ان اقرأ شيئاً قلته في مجلة « الآداب » قبل ثماني سنوات يتعلق بالترجمة. تقول: « الترجمة رحلة يسافر فيها الكتاب الى لغة اخرى وعالم آخر واستقباله مشروط بشروط هذا العالم الآن (وهي شروط اجتماعية وثقافية) لا بشروط تأليف ذلك الكتاب. من هنا فإن الترجمة هي مغامرة كبرى. كل كاتب يحب ان تترجم اعماله لأنه يحب ان يُقرأ ولكن الترجمة رحلة خطيرة فقد تُقرأ بشكل خاطئ، او قد لا تقرأ، وقد لا تُفهم. وقد يكون المجتمع الذي تُرجمت له غير مستعد لان يستقبلك ولكنني لا اعتقد ان في الترجمة مؤامرات كما يحكى عادة ». « باب الشمس » ظهرت بترجمة عبرية ثم صدرت بالفرنسية، وستصدر فيما بعد كما اعلم بالايطالية والانجليزية. سؤالي: كيف تتعامل مع فكرة ان الترجمة الاولى للرواية صدرت بالعبرية؟ وهل تعتقد ان المجتمع الذي تُرجمت له « مستعد لان يستقبلك »؟

الحقيقة انه عندما كنت في المراحل الاخيرة من « باب الشمس » الفكرة الاساسية التي استحوذت على تفكيري هي ان هذا الكتاب يجب ان يترجم الى لغة واحدة على الاقل، وهي اللغة العبرية. وفعلا لما التقيت بياعل ليرر، صاحبة دار النشر « اندلس »، في باريس، وطلبت مني ترجمة « باب الشمس » فرحت كثيرا، لأني اعتقد ان هذا الكتاب مكتوب بلغتين. مكتوب بالعربية ومكتوب بالعبرية في الوقت نفسه. بمعنى، انه وانا اعمل على هذا الكتاب اكتشفت ان الآخر هو مرآة للذات. واذا كنت اتكلم عن التجربة الفلسطينية خلال نصف قرن فهذه التجربة لا يمكن ان تُقرأ الا في مرايا الآخر الاسرائيلي، وبالتالي بذلت مجهوداً كبيراً وانا اكتب هذه الرواية في كسر ليس فقط النمط الفلسطيني، وإنما النمط الاسرائيلي ايضاً كما تجلّى اساسا في الادب العربي وخصوصا في الادب الفلسطيني، عند غسان كنفاني وحتى عند اميل حبيبي. فالاسرائيلي ليس فقط الشرطي او ليس فقط المحتل. الاسرائيلي هو

آخر يملك تجربة انسانية وعلينا ان نقرأ هذه التجربة . وقراءتنا التجربته هي مرآة لقراءتنا للتجربة الفلسطينية . . . اذكر لما كتبت مشهد ام حسن عندما تزور ايلا دويك في قرية الكويكات، انني وانا اكتب هذا المشهد بكيت، ولم ابك فقط حزناً على ام حسن، بل من وحشية الحقيقة الانسانية التي كشف عنها هذا اللقاء، عن الالم الفظيع الذي عاشته المرأتان ولا تزالان . الفلسطينية تعيشه اكثر لأنها تعيش في المخيم وبعيدة عن ارضها، والى آخره . ولكن هناك الماً وحشياً يعصف بالمرأتين وهذا الالم فتح في قلبي وفي وجداني جراحاً عميقة . اعتقد ان هذا الكتاب هو محاولة للتعامل مع هذه الجراح . لا اقول لمداواة الجراح، فالادب لا يداوي الجراح . الادب على الأقل يجعلك قادرا على النظر الى الجراح وعلى التامل فيها وعلى التواصل معها انسانيا ووجوديا ووجدانيا وعاطفيا . انا لا أعرف الآن عن استقبال هذا الكتاب في اسرائيل . يهمني الموضوع، ولكن يهمني اكثر ان يكون هذا الكتاب في اللغة العبرية كي يقرأه من افترضته مرآة لعذاباتي الشخصية، لربما رأى في عذاباتنا مرآة له ايضا .

هل هذا الادراك، او هذه المعرفة، في المراحل الاخيرة للكتابة بانك تكتب ايضا بصورة او باخرى لقارئ يتكلم اللغة العبرية، اثرت على مجرى الكتابة؟ هل شعرت ان هناك شخصاً آخر موجود معك في الغرفة وهو يملي عليك اشياء لم تكن لتكون هناك لو انه كان غير موجود؟

سؤالك معقد، صعب . لانه اولا انت تعرف في الكتابة انك لا تفكر في القارئ . انت تفكر في رحلة، تتوغل فيها الى الاعمق والاكثر عمقا، وبالتالي فانا لا افكر في قارئ فلسطيني ولا في قارئ اسرائيلي . ولكن الاسرائيلي، او الآخر، موجود في التكوين . احسست في المراحل الاخيرة من الكتابة ان الرواية يجب ان تترجم الى العبرية لانه هذا الآخر كان موجودا كمرآة لعذابات الفلسطيني، وبالتالي موجود في تكوين الكتاب . الترجمة هي فعل لاحق لا علاقة له بطريقة صياغة الاشياء . . . انا اساسا لما صدر الكتاب بالعربية كنت متخوفاً من ردود الفعل الفلسطينية، والحمد لله انه لم يصدر اي رد فعل سلبي لسبب لا اعرفه . . .

ماذا كان قوام هذا الخوف؟

اعتقد أن هذا الكتاب قام بتحطيم الصورة النمطية للفلسطيني . قام بتحطيم البطولة . اعتقد ان الادب الذي تعامل مع القضية الفلسطينية طويلا، الادب الفلسطيني بشكل اساسي، قدم نمط الفلسطيني الشجاع، البطل، الشهم، المظلوم، الشاعر، المجدد . . . يعني تكونت من

كتابات الادباء الفلسطينيين خصوصا في الرواية، عند غسان كنفاني وجبرا ابراهيم جبرا، واميل حبيبي بمعنى ما، صورة نمطية للفلسطيني. وهذا الكتاب احسست أنه يقوم بتدمير هذه الصورة. في «باب الشمس»، نكتشف أن الرجلين بطلي الرواية ليسا بطلين، لان البطلين هما المرأتان، نهيلة وشمس، وعند نهيلة وشمس يتم تحطيم كل الانماط عن معنى البطولة ومعنى الحنين الى الارض، الخ. تاخذ المسالة معنى مختلفاً جذريًا. أي أن تجربة نهيلة التي بقيت في قرية دير الاسد في الجليل لا علاقة لها بالحنين، تجربة نهيلة لها علاقة بالمرارة. وبالنسبة لها بطولة هذا الذي يأتيها، لان زوجها كان يأتي متسللاً من لبنان إلى فلسطين، إلى الجليل، بفترات متقطعة، هذه البطولة لا تعني شيئا بالنسبة لها. البطولة الحقيقية بالنسبة لها هي ان نعيش، وان نحب. انا اعتقد ان هذا قام بخلخلة الصورة النمطية للفلسطيني من جهة، ومن جهة اخرى قامت شمس بخلخلة الصورة النمطية للفدائي. ففي النهاية، الفدائي ليس هو البطل او المغامر فقط، انما الفدائي وهو كما رأينا، ملتبس، انسان.. فيه مخاتلات والتباسات، وطلعات ونزلات. كما ان صورة التزوج، كما في قصة الولد الذي طلب رغيفاً وخيّطته له المرأة ثم جاء الرجل وقتله، وقتل الولد.. هذه ليست صورة مقبولة في مجتمع مجروح الى هذا الحد. فانا كنت خائفاً جدا. وانا اكتب ما فرقت معي.. يعني هيك انا بحس وبرأيي هذه هي الصورة التي اتعامل معها. ولما صدر الكتاب كنت فعلا خائفاً من ردة فعل سلبية على تحطيم الصورة النمطية الفلسطينية، والحمد لله لم تحدث ردة فعل كهذه، بنفس المعنى.. اذا فالقارئ الفلسطيني لم يكن يهمني، لان رايي كان ان هذا الكتاب التقط لحظة انسانية عميقة في التجربة الفلسطينية ويجب ان تقال، بصرف النظر عن ردة فعل القارئ أينما كان. فبهذا المعنى القارئ الاسرائيلي أيضاً لم يكن يبالي على الاطلاق.

بالنسبة لكسر النمط الاسرائيلي في الرواية، قد تُتهم بانك تتعامل مع الاسرائيلي الشرقي، السفارادي، في غالب الاحيان. مع ان الهولوكوست تذكر مرارا في الرواية، من ناحية تركيبة الشخصيات انت دائما كانك على حذر من ان تلمس الاسرائيلي الاشكنازي وتحاول تغطية ذلك الحذر بالتعامل مع الشخصية الشرقية، اليهودي العربي، اذا اردت..

الحقيقة انني عشت في بيروت، وفي تجربتنا السياسية عندما كنا شباباً في مجموعات يسارية كان هناك يهود لبنانيون. وهؤلاء كانوا اليهود الوحيدين الذين عرفتهم. انا لم اعش في فلسطين، ويهود لبنان كان بينهم شرقيون واشكناز. كان هناك يهود بولونيون، اتوا في الثلاثينيّات الى لبنان. لكن اليهود المحليين كانوا سفاراديين اتوا من حلب ومن دمشق. فهؤلاء

هم اليهود الذين اعرفهم، واعرف حكاياتهم جيدا لاننا كنا رفاقاً ونناضل سوية. لا اعرف يهودًا اشكناز معرفة شخصية حميمية. انت على حق، الروح هي روح شرقية لان هؤلاء هم الذين اعرفهم. اعتقد انك لا تستطيع ان تكتب ادباً اذا كنت لا تعرف. الادب هو احدى وسائل المعرفة، تنطلق من نقطة تعرفها لكي تعرف اكثر. وتركيب شخصيات لا تقود الى المعرفة هو برأيي امر خاطئ. بمعنى ما، ربما عندك حق في ان الشخصية الاشكنازية في الرواية تبقى ناقصة، ولكن لم يكن من الممكن ان لا تكون ناقصة، طالما انا كاتبها. يعني افضّل ان يكون هذا النقص، على ان اخترع شخصيات منمطة وغير حية وغير حقيقية. شخصية ايللا دويك وابيها يوم اتى الى المعبروت وعبثوا بطربوشه ورشّوه بالـ«دي دي تي»، هي قصص اعرفها من اناس اصدقاء لي اخبرونا اياها.. هذه القصص مهم ان تكون لانها حقيقية، على ان اخترع شخصيات كاذبة وغير حقيقية.

دعنا ننتقل الى الجانب الآخر من السياج الشائك. بالرغم من ان عدد الترجمات من العبرية الى العربية يفوق عدد الترجمات من العربية الى العبرية، هناك كما تعلم ما يسمّى به «تطبيع التطبيع». ما هو التطبيع في نظرك اولا، وهل هيأت نفسك للتعامل مع مهاجميك من معسكر معارضي «التطبيع»؟

للاسف، معركة التطبيع حول الترجمة الى العبرية بدأت قبل صدور الكتاب بعام.. في مقال نشر في «اخبار الادب» ثم في «القاهرية» ثم نقل صداه الى جريدة «الحياة» وعدة صحف في الخليج. واتُهمنا بان ترجمة كتابي للعبرية هي تطبيع. وقد رددت بعنف على هذا. انا برأي ان النضال الاساسي الان ضد التطبيع يدور في الثقافة، وهو يدور في مصر، وهذا شيء مضحك. مصر تعيش علاقة تطبيع فيما يخص الزراعة، وانتاج الغاز.. الامور الجوهرية التي تخص الاقتصاد فيها تطبيع... لكن النظام يسمح، او هو عمليا يطلب من المثقفين ان يناضلوا ضد التطبيع لكي يوحوا، او لكي يعطي النظام المصري ايحاءات خاطئة عن موقفه الفعلي: ان يكون احد ضد التطبيع يعني ان يكون ضد الحوار مع الاسرائيلي. فانا اعتقد ان الصراع هو شكل من اشكال الحوار. ما معنى رمي الحجر؟ من المستحيل اذا اردت انهاء الاحتلال ان لا تقوم بالحوار مع المحتل، بأشكاله المختلفة، من رمي الحجر الى المقاومة الى المفاوضات. اذا كان التطبيع يعني ان لا يكون هناك حوار، فهذا برأيي وهم. الفرق ان العرب بعد الـ٤٨ اغمضوا عيونهم وجمدوا الصراع وبالتالي جمدوا الحوار. ما فعلته الانظمة بعد الـ٤٨ هو انها اغمضت عيونها عن ماساة الشعب الفلسطيني.. لم يكن بن غوريون هو

الوحيد الذي منع المتسللين، بل الجيوش العربية. في « باب الشمس » اروي عن الفلسطينيين الذين عندما طلعوا من الجليل قعدوا في القرى في الجنوب، وليس في المخيمات، وعاشوا مع الفلاحين. وكانوا يطلعوا ويقطعوا الحدود ويروحوا على ضيعهن ويجيبوا زيت وزيتون، وما منعهم من ذلك هو الجيش اللبناني. جمعوهم في تركتورات واخذوهم الى المخيمات لكي يبعدوهم عن الحدود. انا برايي ان من اغمض العيون عن المأساة اوقف الصراع وبالتالي الحوار. طالما ان الصراع موجود فالحوار موجود، وكل كلام آخر هو بلا معنى، بلا معنى فكري. طبعا مرقت « موضة » في الاوساط العربية هي الاعجاب باسرائيل، مثل علي سالم، وهذا برأيي مبتذل. انا لست ضد علي سالم لأنه يقوم بالتطبيع.. هو ما زال لديه عقدة الخواجا، الاوروبي يعني، ويعتقد ان الاسرائيلي هو خواجا. الاسرائيلي ليس خواجا.. « خواجا موسى » خلّص، يعني راح. هذا العهد انتهى. الاسرائيلي يعيش هنا، مثلنا مثله، وعلى هذا الاساس يجب ان نفكر كيف نعيش معه. فبهذا المعنى انا رأيي انه اذا كنت تريد ان لا تحاور فانت لا تريد ان تناضل، واذا اردت ان تناضل فعليك ان تحاور.

هذه المقابلة ستنشر أيضاً في صحيفة اسرائيلية مترجمة الى اللغة العبرية، فانت تقوم اذا برحلة خطيرة، مغامرة كبرى، كما وصفت الترجمة، ولا يحتاج المرء الى الكثير من الخيال كي يتوقع ان يكون هناك من يهاجمك من الطرفين. هجوم الجانب الاسرائيلي سيكون على بعض الافكار التي تطرحها في هذه المقابلة، وعلى بعض الافكار، ان لم يكن جميع الافكار الواردة في « باب الشمس ». انا فلسطيني بعيد عن الجليل، وانت لبناني بعيد عن بيروت، جالسان في آن آربر / ميشيجان نتحدث حديثا سوف يترجم الى اللغة العبرية. كيف كان سيكون شعورك لو انني كنت مراسلاً اسرائيلياً يهودياً لصحيفة عبريّة؟ هل كنا نتحدث؟

الحوار كما صيغ هو معك، وانا احب ان اتحاور معك. انا طبعا معجب بروايتك اعجابًا شديدًا، وبرأيي ان روايتك هي من ابواب باب الشمس الاساسية، ولان كلّ كتابة تتضمن كما تعلم اعادة الكتابة، فانت جزء من باب الشمس..

يا سيدي، هذا يشرفني كثيراً.

الحوار معك هو متعة لي. ونشر حوارنا في صحيفة عبرية يشبه نشر رواية كتبناها بالعربية بالعبرية. نحن في هذه الحدود، اما ان اتحاور انا مع صحيفة عبرية مباشرة فاعتقد انه امر

مستبعد لسبب اساسي، لان الحوار لن يكون حوارا ادبيا. انا مستعد ان اتحاور ادبيا مع اي شخص، لكني كمحاور سياسي لا افيد.. رأيي لا يمثل احدا. لو كنت مسؤولاً فلسطينيًا لاختلف الامر. المسؤولون الفلسطينيون تنشر لهم حوارات كل الوقت، وهذا ضروري لانهم ينقلون الى الجمهور الاسرائيلي رأيهم السياسي لكي يتوصلوا الى تفاهم ما.. او لكي يضغط الجمهور الاسرائيلي على حكومته للانسحاب من الارض المحتلة. انا لا املك هذه الصفة لكي اقيم حوارا سياسيا، لذا لا يمكن ان اقوم بذلك ابدا، لانني عندها اخدع نفسي واخدع القراء. اما الحوار الادبي فانا مستعد للقيام به مع اي كان. هذا لا يؤثر.

نعود للترجمة العبرية مرة اخرى، ووقع هذه الترجمة. هناك مسألتان تشغلان الرأي العام الاسرائيلي في هذه الايام، ليستا بالضرورة متوازيتين او بنفس المقدار من الاهمية. الاولى: مسألة آرئيل شارون، بين مزدوجتين «بطل صبرا وشاتيلا»، وتقديمه المرتقب، وليس بالضرورة الاكيد، للمحاكمة كمجرم حرب.

شارون يرتبط بذاكرتي انا، بالذاكرة اللبنانية، وبذكريات مرة واليمة جدا. هو ليس فقط «بطل صبرا وشاتيلا» انما «بطل غزو لبنان» الذي ذهب ضحيته آلاف من القتلى.. هو بطل حوالي ٨٠٠٠ اسير سيقوا الى معسكرات «انصار».. تدمير هائل للجنوب ولبيروت... هو ايضا يرتبط في ذاكرتنا ببشير جميّل، تنصيب بشير جميّل، اي التيار الفاشستي، على الحكم في لبنان. ومرتبط بمذبحة صبرا وشاتيلا. انتخاب شارون لرئاسة الحكومة الاسرائيلية كان خيبة امل بالنسبة لي من المجتمع الاسرائيلي الذي بدأ يفقد ذاكرته. هذا مجتمع فكرته الاساسية هي الذاكرة، انه نصب تذكاري للمحرقة النازية، لكنه بدأ يفقد ذاكرته، وبدأت تدخل عليه عناصر العسكرتارية وتلعب دورا اكبر، الجيش... انا اشعر الان ان الاركان هو الذي يحكم اسرائيل وليس الحكومة.. لست محللاً سياسيًا ولكن هذا شعوري العميق.. ان يرجع شارون، سفاح صبرا وشاتيلا، الى رئاسة الحكومة وان يحاصر الفلسطينيين مرة اخرى في فلسطين نفسها، ويحاصر ياسر عرفات كما حاصره في بيروت مرة اخرى... هذا مشهد مؤلم ويعبر عن عبثية التاريخ، كأن التاريخ يتكرر. من المفترض ان التاريخ، كما علمنا كارل ماركس، يتكرر مرتين، المرة الاولى يكون ماساة والمرة الثانية مسخرة. شاورن يبرهن ان المسخرة يمكن ان تصبح ماساة. وهذا هو المؤلم في ما يجري الان وبقيادة شارون للمجتمع الاسرائيلي، وبقبول المجتمع الاسرائيلي بهذه القيادة التي قادته الى كارثة. تجربة الاسرائيليين في لبنان كما قيموها هم كانت كارثة، وانتهت بانسحاب احادي وبلا اتفاق. فشارون هو

الذي اخذهم الى لبنان . ومن الغريب جدا والمستغرب ان يعاد انتخابه . . وهذا معناه ان المجتمع الاسرائيلي يمر بأزمة طاحنة، وعليه ان يجيب عن السؤال الاكبر، قبل حق العودة : هل يقبل بدولتين في فلسطين . كل الخطاب الاسرائيلي هو ان الفلسطينيين لم يقبلوا بالتقسيم عام ١٩٤٨ .

بالمناسبة، الحركة الصهيونية لم تقبل بالتقسيم! قبلت باقامة « دولة يهودية على أرض إسرائيل » في الشق الخاص بها، ولكنها لم تقبل بالشق الآخر لقرار التقسيم الخاص بإقامة دولة عربيّة على أرض فلسطين .

بالضبط تماما، هذه هي الخدعة . كل الادعاء بان الفلسطينيين لم يقبلوا بقرار التقسيم . بس قبلوه! ماذا تريدون أكثر؟ مش بسّ قبلوه، قبلوا بما هو أسوأ بكثير من قرار التقسيم . . إذا بتشوف الخرايط، قرار التقسيم كان أفضل بكثير! بس قبلوه! الاسرائيليون عليهم ان يجيبوا على هذا السؤال الان : هل يقبلون بدولة فلسطينيّة الى جانب دولتهم في ارض فلسطين ام لا؟ اذا لم يقبلوا فإنهم قد ادخلوا المنطقة في كارثة، وأنا رأيي انهم ادخلوا انفسهم في كارثة . . . لان مصير جنوب أفريقيا ومصيرهم لن يختلف . في جنوب افريقيا اصحاب البلاد، الاكثريّة السوداء، أخذوا حقوقهم كاملة .

المسألة الثانية، على صعيد اوسع، هي مسألة حق العودة وما تثيره هذه العبارة من رعب في اسرائيل، والتشديد على كلمة رعب . هناك « الحق » وهناك « العودة » – هل نفصل بينهما، هل نحمل الخطاب خطابين؟ الحق يمكن ان يكون معلّقا الى حين او الى الابد، اما العودة فليست شيئا افتراضياً . انت قلت ذات مرة ما معناه ان « العودة الى فلسطين ليست ممكنة، علينا ان نذهب الى فلسطين » . انت تعرف اللاجئين الفلسطينيين كما يعرفهم القلائل فقط، هل تعتقد ان حلا لما نسميه الصراع الفلسطيني – الاسرائيلي يمكنه ان يصبح في حيّز الامكان بمعزل عن هذه القضية؟

انا كتبت في رواية اسمها « مملكة الغرباء » انه لا يوجد عودة، لانك ستعود الى بلاد اخرى . حتى ولو لم يكن هناك اسرائيليون . حتّى مهاجر من لبنان من خمسين سنة رجع الآن إلى لبنان، سيعيش في بلد آخر، سيكتشف ان عليه أن يؤسس لبنان من جديد . اليهود لم يرجعوا الى فلسطين، هم ذهبوا الى فلسطين واسسوا دولة ليست لها اية علاقة لا بمملكة

داوود ولا بعاموس ولا يهوشواع بن نون ولا باحد! في إطار فكرة العودة، الناس الذين طردوا من ارضهم يجب ان يشعروا بان لهم حقًا في هذه البلاد. "كيف يُطبّق هذا الحق، انا رأيي ان تطبيق الحق هو سياسي. لا يمكن ان تعارض حق الفلسطيني بالعودة الى بلاده. بعد الاعتراف بحدوث كارثة بالنسبة الى الفلسطينيين في العام ١٩٤٨ يمكن ان نبحث في كيفية تنفيذ هذا الحق، وما معنى تنفيذه وما معنى التعويض لقسم كبير من اللاجئين، الخ. في هذه المسالة النقاش السياسي ممكن. لا احد يقول للاسرائيليين: حسنا انتم مرعوبون من حق العودة، فماذا مع قانون العودة لليهود؟ انا شخصيا، وهنا اتحدث سياسيا، لا اريد ان اطرح على الاسرائيليين اول سؤال منطقي: كيف يُعقل ان يكون لديك قانون عودة لمن يعيش في بروكلين، وعندما يصل الى مطار بن غوريون يصبح مواطنًا، ولا تعطي هذا الحق للفلسطيني الذي يجلس على بعد ٥ كيلومترات من قريته وقرية ابيه؟ انا لا اريد ان اناقش هذا الموضوع، فليحافظوا على قانون العودة. هذه ليست المسالة. مسالتي هي ان يكون هناك على الاقل اعتراف اخلاقي بجريمة الـ٤٨ يعقبه اعتراف بحق العودة، اما آليات العودة فهي تخضع لمفاوضات سياسية بين دولتين مستقلتين ويمكن ايجاد عشرات الحلول لها. هذه المسالة ليست عائقا امام حل الدولتين، اذا كان هناك خيال عند الطرفين. اما اذا اردنا حججًا لكي لا نقيم السلام، فاية حجة يمكن ان تؤخذ لهذا الغرض. يجب ان يعي الاسرائيليون ان الدولة الفلسطينية التي نفترض انها ستقوم، ٦٠٪ من سكانها هم لاجئون مطرودون من اسرائيل. هذه دولة لاجئين. كيف ستنهض غزة اقتصاديا؟ يجب ان يحس الاسرائيليون بمسؤولية الاخلاقية على الاقل. نحن لسنا فقراء لأن الله خلقنا فقراء، او لاننا كما يدّعون لا نعرف الفلاحة. الجانب الاول من المشكلة هو الاعتراف الاخلاقي، والجانب السياسي يمكن برايي ان تتوجد له حلول سياسية طويلة الامد لا تجعل ايًا من الطرفين مرعوبا من الآخر.

مذبحة صبرا وشاتيلا في الرواية وفي سيرتك الشخصية لها مكانة الجرح المفتوح الذي يكوّن وعيك السياسي، ما الذي تذكره من المذبحة اذا كانت الذاكرة تستطيع ان تتذكر، وما الذي فعلته المذبحة للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين في لبنان، ما الذي فعلته لك؟ هل فاجاك مقتل ايليا حبيقة، وهل تعتقد ان لشارون يدًا في الامر؟

دعنا نبدأ بالاهون، مقتل ايليا حبيقة. الحقيقة انا ضد الاغتيال السياسي بشكل عام واعتقد ان الاغتيال السياسي لا يحل اية مشكلة سياسية. ولكن كمراقب فوجئت ان ايليا حبيقة اغتيل بعد ٢٠ سنة من مذبحة صبرا وشاتيلا. المنطق يقول انه كان عليه دفع الثمن قبل ذلك،

خصوصا انه في لبنان حاولنا كثيرا ان نخلق مناخًا في الوسط المثقف واليساري والديمقراطي للدفع باتجاه ان تكون هناك مصالحة وطنية حقيقية بعد الحرب الاهلية وبالتالي ان يكون هناك محاسبة على جرائم الحرب، على الاقلّ على طريقة جنوب افريقيا، اي لجنة المصالحة والعدالة، اي ان يعترف المجرم بجرائمه. واذكر اني اشتغلت طويلا مع اصدقاء على موضوع المخطوفين اللبنانيين. هنالك ١٧ الف لبناني اختفوا خلال الحرب. وتكونت لجنة من امهات وزوجات واولاد المخطوفين، وكانوا يتظاهرون مرة في الاسبوع، بشكل يشبه ساحة «٢٥ مايو» في الارجنتين، وانا اشتغلت كثيرا في الموضوع لان زميلة لنا اسمها نايفة كانت تشتغل معنا في الجريدة وابنها الوحيد تم خطفه وقامت هي بالانتحار بعد تسعة اشهر على اختفاء ابنها. اشتغلنا كثيرا من اجل كشف جرائم الحرب، وطبعا التسوية السياسية التي فرضت على لبنان في اتفاق الطائف وفي الاتفاق السوري- الامريكي، اقتضت ان تُمحى الحرب من الذاكرة. فطموحي او امنيتي الشخصية كان الاّ يُغتال ايليا حبيقة انما ان يحاسب بمحاسبة عادلة ويعترف بالجرائم التي ارتكبها هو وآخرون من مجرمي الحرب الذين اصبحوا حكام البلاد، للاسف الشديد. اما بخصوص شارون فانا اتمنى، رغم ان ذلك اصبح الآن صعبًا، ان تجرى محاكمته في بلجيكا، ليس للانتقام من شارون انما من اجل كشف الحقائق للجمهور، للمواطنين الفلسطينيين واللبنانيين والاسرائيليين، عن واحدة من افظع جرائم الحرب اللبنانية ومن افظع الجرائم التي ارتبطت بالاجتياح الاسرائيلي للبنان. والهدف فعلا هو ان يتطهر المجتمع من الجريمة لا ان يعاقب المجرم فقط. طبعا يجب ان يعاقب المجرم بطريقة ما، ولكن الهدف الاساسي هو ان نعي ان هناك جرائم ارتكبت. بخصوص صبرا وشاتيلا هناك جريمة ارتكبها الجيش الاسرائيلي وميليشيات القوات اللبنانية. اما بخصوص جرائم الحرب اللبنانية فهناك جرائم ارتكبت على اوسع نطاق وشارك فيها، اظن، الكثير من الناس. وبمعنى ما فكل المجتمع اللبناني مذنب ويحتاج الى اعتراف ومصالحة مع نفسه حتى نقدر ان نبني مجتمعًا تحترم فيه الحياة.

بخصوص مذبحة صبرا وشاتيلا، فقد احتلت حيّزًا كبيرًا من الرواية، او حيّزًا اساسيًا، لان الرواية تدور في مخيم شاتيلا والذي فعلته المذبحة هو انها فعلا دمرت المخيم. وإضافة إلى مقتل مئات الضحايا بتلك الطريقة الوحشية، فإن المخيم لم تعد تقوم له قائمة بعد المذبحة، وتحول الى ما يشبه المقبرة. هناك في مخيم شاتيلا مقبرتان، مقبرة الضحايا التي للاسف حولها الاخوان في حركة «امل» وحلفائهم السوريين الى مزبلة، والجامع الذي تحول الى مقبرة. فعمليا انت تعيش هناك في مقبرة، المخيم يشبه المقبرة والجرح لا يندمل. هناك قصة في الرواية حدثت معي شخصيا. اول مرة زرت المخيم قبل ان يحاصر بعد ذلك في ما يسمى

حرب المخيمات، في العام ١٩٨٥ . في عام ١٩٨٤ زرنا المخيم واتذكر اني رأيت امرأة، وصرخت: « انتصرنا » . سالتها لماذا، فقالت « لأننا عملنا مقبرة للشهداء » . كان ذلك مهمًا جدًا، ان تكون مقبرة، ولكن من ثم حوّلت الى مزبلة . . في العام ١٩٩٨ قمنا بتنظيفها، وحتى الآن هي ليست مقبرة فعلية . المذبحة حطّمت المخيم، وتركت برأيي اثرًا لا يمحى في الوجدان الفلسطيني، ربما اكثر من مذبحة دير ياسين . بمعنى انها لم تجرِ في سياق حرب، انما بعد الحرب، ولم يكن لها اي مبرر سوى الجنون . . هنالك مشاهد فيها وصف لتفاصيل المذبحة وهي نتيجة شغل ميداني، فانا التقيت ببعض الناس الذين شاركوا في المذبحة وهالني كيف انهم يتكلمون عن المذبحة كانهم لا يتكلمون عن شيء، كما يتكلمون عن احد شرب ماء او مزح . انا اعتقد ان هذا اثر فيّ اكثر من المذبحة نفسها ربما . . القاتل لا يزال ليس فقط حرا لا يشعر باي ذنب، انما المذبحة وضعت في سياق خاطئ، في سياق الحرب اللبنانية الأهلية والانتقام، وهي ليس كذلك . هي مذبحة منظمة لم يكن من الممكن ان تجري لولا وجود الجيش الاسرائيلي على اطراف المخيم، وهي تدفعك الى اليأس من امكانية السلام والمصالحة . من يقوم بهكذا عمل، او يساعد في القيام به، لا يريد اية مصالحة، انما ابادة الآخر . بهذا المعنى، هناك شخصية في الرواية، شخصية سليم اسعد، الفتى الذي قتل اهله امام اعينه فشاب شعره وكان في السابعة من عمره . هذه القصة برأيي تلخص يأس الناجين من المذبحة ليس لانهم شاهدوا المذبحة امام اعينهم فقط، انما لانهم يشعرون ان المذبحة للأسف مستمرة .

رايك في الكفاح المسلّح، ووسائل النضال، والإحتلال، والعمليات الإنتحارية؟

وسائل النضال هي وسائل وليست غاية . وبالتالي يجب ان تخضع الى نظام من القيم، اذا كان الواحد عم يناضل من اجل اهداف انسانية ووطنية واخلاقية . لا يمكن للوسائل ان تكون معزولة عن الهدف او خارج نظام قيم الهدف . اذا كان نضال الشعب الفلسطيني من اجل العدالة والمساواة والحق، فيجب ان تجد وسائل تناسب هذا الهدف، وبهذا المعنى انا ضد قتل المدنيين . اتذكر ان آخر مناقشة شاركت فيها منذ فترة في بيروت كانت عندما نشأ رأي انه لا يوجد مدنيون في اسرائيل، باعتبار المجتمع الاسرائيلي كلّه مجتمع عسكري، جنود وجنود احتياط . ورغم انني اعرف ان المجتمع الاسرائيلي مجتمع مُعسكر، فإن عدم التمييز بين المدنيين والجنود الحاملين سلاحًا يؤثر في رأيي على معنى النضال الفلسطيني ويسيء اليه . فانا ضد قتل المدنيين بالمطلق . وهذا ليس فقط عملاً لا اجد له مبررا انما اراه كنقطة ضعف وخضوع لدوامة يقودك اليها الصراع، ويخرج نضالك عن نطاق رؤيتك واهدافك . ثانيا، انا

ضد العمليات الانتحارية لان هدف النضال هو الحياة. يناضل المرء لانه يحب الحياة وليس لانه يحب الموت. استطيع ان اشرح العمليات الانتحارية باشكال مختلفة، والشرح او التحليل اذا قدم لهما تفسير ديني فهو يقوم بتبسيطها، لان هنالك الكثير من العمليات الانتحارية ليس لها علاقة بالدين. لها علاقة بنظام من القيم ونظام من تمجيد الموت والمقاومة المسلحة، وهي قيم برايي في المرحلة الحالية لا تساعد النضال الفلسطيني من اجل السلام بل تسيء اليه. بهذا المعنى انا اعتقد ان الفلسطينيين في نضالهم من اجل العدالة ومن اجل احترام ذاكرتهم واحترام ماساتهم لازم يكون سلاحهم الاساسي سلاحا اخلاقيا. انا افتكر ان الفلسطينيين الان اقوى اخلاقيا من الاسرائيليين، لان الاسرائيلي محتل. ولا لزوم لان يتنازل الفلسطينيون عن الاخلاق في معركتهم لهدف له علاقة بالانتقام. صحيح ان خسائرهم عالية والانتقام هو شعور انساني، لكن برايي يجب عدم الخضوع لشعور الانتقام.

نعود للترجمة العبرية، كما قلت لك لم نقرا بعد وقت اجراء هذا الحديث العديد من المقالات النقدية التي تتناول الترجمة العبرية. ما هي توقعاتك؟ وما هو مدى ايمانك بقوة هذا العمل؟ هل باستطاعته ان يؤثر على القارئ الاسرائيلي بشكل أو بآخر؟

الحقيقة، لا اعرف. لكني مؤمن بان الادب هو احد الاطر القليلة المتروكة للحوار في هذا الصراع الطويل والدامي والبالغ التعقيد. اذا كان هناك اماكن للحوار، لربما كان الادب هو احد افضل هذه الاماكن. وانا اؤمن بان هذا الكتاب طالما صدر يمكن ان لا يقراه احد.. يمكن ان يتم تجاهله كليا، او يُحب.. كل الامكانيات متاحة. ولكن اعتقد ان العمل الذي قام به المترجم موشيه حاخام وانت وياعيل ادخل هذا الكتاب في الادب العبري. لا يمكن بعد «باب الشمس» ان لا يكون هذا الكتاب موجوداً.. وطالما انه موجود فانا مؤمن انه يمكن ان يؤثر كثيرا، ليس قليلا. بمعنى، يكفيني ان يؤثر في عشرين قارئًا في البدء حتى يبدأ السؤال.. انا طموح في الحقيقة... كما تعلم الادب يغير، الادب يغير الذوق العام.

ولكنه لا يغيّر الناس؟

عملية تغيير الناس هي عملية طويلة، مرتبطة بعملية تغيّر في الذائقة. انا طموحي ان يقرأ هذا الكتاب الكتاب الاسرائيليون. لا اعلم ما سيكون تاثير ذلك عندهم، لكن يجب ان يُحدث شيئا ما. كل ادب مهم قراءته، وانا امل ان هذا العمل مهم، أثّر عليّ وعلى كتابتي، بما

فيه بعض الادب الاسرائيلي . اكيد انه بعد ان قرأت « إزاء الغابات » ليهوشواع، لم أعد نفس الشخص . او بعد ان قرأت « ابتسامة الجدي » لجروسمان ما عدت نفس الشخص . . . الادب الاسرائيلي الذي اثرفيّ هو الادب الذي بيّن لي تعقيد المشكلة، حتى ولو كنت اختلف تماما معهم . يعني لا شيء يجمعني مع يهوشواع، برؤيته الفكرية والثقافية والسياسية . لكن على الاقل ساهم هذا الرجل في توعيتي على تعقيد المشهد . . ومساهمة « باب الشمس » هي ان تجعلهم يرون المشهد معقداً اكثر مما يعتقدون .

حكاية الطفل والرغيف، هي باعتقادي بؤرة باب الشمس (اذا كان علي ان اختار ثلاث او اربع صفحات من الكتاب، اختار هذه الصفحات لانها بالنسبة لي هي « باب الشمس ») . انت تحاول في نهاية القصة تلطيف الانطباع، او الاثر، الذي تتركه قصة فاجعة من هذا النوع، عن طريق اعطائها عدة نهايات بدل الحسم بنهاية واحدة . ارى ان هذا نوع من الحذر؟! انت لا تترك القارئ مع نهاية واحدة وانما تطرح نهايتين او ثلاث نهايات . لماذا؟

صحيح . تركت عدة نهايات لقصة الرغيف وهذا اسلوب الكتاب كله، وليس فقط قصة الرغيف . وترك عدة نهايات ليس الهدف منه تلطيف الجو . ترك عدة نهايات هو جزء من بنية، حبكة الحكاية . فنحن نتعامل مع رواية يرويها اناس عن اناس . هناك اسلوب التواتر الذي هو اسلوب السرد الاساسي في هذا الكتاب والذي تجده في « الف ليلة وليلة »، وفي كثير من كتب السرد العربي الكلاسيكي . استخدمت هذه التقنية ليس لاني احب « الف ليلة وليلة »، انما لاني اعتقد انك تتعامل مع تجربة موجودة في الذاكرة، ولم تعبر عن نفسها قبل الان . الحقيقة ان مفاجاتي بدات يوم بدات اعمل في مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت، من ١٩٧١ الى ١٩٧٨ . كانت مفاجاتي انه لا توجد نصوص تروي نكبة الـ٤٨، واذكر اني قدمت اقتراحاً، عومل يومها بعدم جدية، لاني كنت شابا صغيرا واديباً، لم اكن مؤرخًا . . . دعونا نؤلف كتاباً كبيراً نجمع فيه قصصاً عن نزوح الـ٤٨، ولم يقابل هذا الاقتراح بجدية . . . بالتالي فإن « باب الشمس » هو مساهمتي الشخصية لهذه الفكرة التي ادهشتني لما بدأت اتعامل مع الواقع الفلسطيني، ليس في مركز الابحاث، انما في المخيمات والحياة اليومية . هذه الروايات لم تكتب وبحثت عنها في الادب الفلسطيني ولم اجدها . فلان الرواية تحكي عن ذاكرة لم تتذكر حتى الآن، كان من الضروري دفعها الى التذكر . . الذاكرة كما تتذكر . وكما يمكن لها ان تعبر عن نفسها، لا تعبر عن نفسها برواية واحدة . ثم انه وانا اكتب، اكتشفت غنى التجربة الفلسطينية وغنى التجربة الانسانية . . ومهمة الادب هي ان

يكشف لنا غنى التجربة الانسانية وهو انها لا تملك رواية واحدة. ان تملك رواية واحدة معنى هذا ان تصبح اسير الإيديولوجيا . . . في الاخير ليس من مهمة الادب، وهو لا يستطيع، اذا كان يفتش عن العمق الانساني، ان يقول قولاً واحداً، ان يقول نهاية واحدة. فمن اجل ذلك يفتح الادب الاقوال . . . حتى الاقوال المقفلة يجب ان يفتحها. ففي هذا المعنى تأتي قصة الرغيف، لكني اعتقد انها قصة قاسية جداً حتى ولو كان لها عدة نهايات، لان الولد مات. الطفل مات. هل قتله الرجل ام قتلته امه؟ النقاش من قتل الولد. وفي الحالين اذا كان الرجل هو القاتل، فهو كان مثل الاب، اذ كان يقود قافلة النازحين في شعاب الجليل الى لبنان. واذا كانت الام هي القاتلة، ايضاً نكون في وضع متوحش جداً. وفي الحالين الوضع وحشي.

انت تؤمن بان الادب الجيد يجب ان يترك القارئ في حيرة اخلاقية ولا يقدم له احكاماً مسبقة؟

رايي ان الكاتب الجيد هو الذي يملك حيرة اخلاقية عميقة. لو ان لديّ جواباً شافياً لما كتبت رواية. في «الف ليلة وليلة»، الفكرة المركزية هي ان شهرزاد تروي للملك روايات لا تنتهي لكن جميعها مرآة لحكايتها معه لانها لا تملك جواباً على حكايتها معه، فتُعدد الحكايات كي تتعدد الاجوبة والاحتمالات والامكانيات.

جمهور قراء الادب العربي المترجم الى العبرية هو جمهور قليل العدد.. المثقف الاسرائيلي، في اغلب الاحيان، لا يرى ان التعرف على الادب العربي هو جزء من بنيته الثقافية، او جزء ضروري منها. انت مثل الكثير من المثقفين العرب تتابع عن كثب ما يجري داخل الادب العبري وما يجري داخل الثقافة الاسرائيلية، عن طريق الترجمة الى العربية والانجليزية، وتقرأ مثلاً صحيفة «هآرتس» وتعتقد انها «افضل صحيفة عربية». ما الذي يثير اهتمامك لدى الاسرائيليين؟ لماذا داء المعرفة هذا؟

أولاً اسرائيل موجودة في بلادنا، في المشرق العربي، فأنا اريد ان اعرف بلادنا. معرفتي بالادب العبري هي جزء من تعرفي على المشهد داخل بلادي . . . مش بلدي او وطني . . . داخل هذا المدى . . . الثقافة السياسية التي اعيشها. الامر الثاني هو انه احب ان اعرف.. ليس بمعنى «إعرف عدوك»، لان الادب لا يعرفك على عدوك . . . معرفة العدو تأتي من ترجمة ادبيات الجيش الاسرائيلي او الاحزاب الإسرائيلية . . . الادب لا يعرف على العدو، بل على المشهد الانساني والثقافي المعقد الموجود الان في فلسطين واسرائيل. وبالتالي عندي

حشرية انسانية للمعرفة . .

حب استطلاع . . .

حشرية حقيقية . ورأيي انه اذا كان هنالك حلّ حقيقي للصراع ، وانا اؤمن بالتأكيد ان هنالك حلاً ، وانه سوف يأتي . . .

تؤمن بان هنالك حلاً سياسيًا؟

يجب ان يكون . يجب ان نناضل من اجل ان يكون حلّ سياسي . ولكن يمكن ان لا يأتي قبل سنوات طويلة . . . هذا الحل سيجري مع اناس ، هم الاسرائيليون ، ولذا يجب ان نعرفهم . . يجب ان تتسع الثقافة التي ننتمي اليها لكي تستقبلهم . لذا انا احب ان اقرأ الادب العبري ، ليس لكي اعرف العدو ، فهذا ليس في الادب . . نقد الادب الاسرائيلي في الثقافة العربية هو برأيي باغلبيته نقد مبتذل ، لانه ينظر الى الادب الاسرائيلي من زاوية « اعرف عدوك » . اذا قرأت « عزيزي ميخائيل » لعاموس عوز ، ما الذي تعرفه من هذه الرواية؟ انه وجودي ، وانه يرى التوأم . . لن تعرف شيئًا اذا رأيت ان هذه الرواية تعرفك على العدو الاسرائيلي . . إنه يعرفك على الثقافة الاشكنازية التي تحاول ان تجعل من اسرائيل دولة اوروبية . وتحاول ان تفرض على هذا المجتمع الشرقي ، الموجود في جغرافية شرقية ، وتكوين شرقي ، اذ ان اغلب السكان في هذه البلاد هم شرقيون ، تحاول أن تفرض عليه نمطًا ونظامًا اوروبيًا وتدمجه في الادب الاوروبي او تجعله امتدادًا للادب الاوروبي . ويهوشواع يفعل نفس الشيء . انا رأيي ان « عزيزي ميخائيل » لعوز او اي نص آخر في الادب الاسرائيلي يفيدك في هذا المعنى . انا اعتقد انه اذا كانت الثقافة الاسرائيلية تريد ان تصل الى السلام فيجب ان تتعرف على الادب العربي بهذا المعنى . بمعنى ليس « اعرف عدوك » كما قيل في سياق حادثة محمود درويش . التعرف على الادب العربي عامة وليس الادب الفلسطيني هو كي يعرفوا اين يعيشون . يجب ان يعلموا في اية بلاد يعيشون . صحيح ان العالم اصبح صغيرا ومعولما ، لكن هذه البلاد لها ثقافة وتاريخ وحضارة وطرق تعبير . اضافة الى ذلك ، لغتهم نفسها لم تأتِ من اوروبا ، هي لغة خرجت من هذه البلاد . . . فبهذا المعنى فقط يصبح الادب مهمًا ، وليس له اي معنى سياسي آخر . المعنى السياسي يصنعه خيال كبير سياسي يقتنع بالسلام والعدالة بالطرف الاسرائيلي كما بالطرف العربي الفلسطيني ، لكن الطرف الاسرائيلي مطالب اكثر لانه الطرف

المحتل. ليس الفلسطينيون هم المحتلون لاسرائيل بل بالعكس. نحتاج الى عقل واع ورؤية سياسية تقتضي ان تقوم اولا دولتان، وبعد ذلك نرى كيف سينشأ في هذا المدى الجغرافي مزيج ... انا برايي انه لم يتم الوصول بعد الى مزيج... حتى في اسرائيل، اذ ما زال فيها تقسيم بين الشرقي والغربي، فبهذا المعنى انا ارى الادب مهمًا. ألا توافقني الرأي؟

هنالك بعض المثقفين الاسرائيليين الذين يذكرون لك مواقف سابقة عبّرت عنها في عدة مواضع ومناسبات. احداها المقابلة الشهيرة في «الآداب» في عام ١٩٩٣، تقول: «انا لا املك موقفًا سياسيًا محضاً. في الموقف السياسي انا استطيع ان اقبل تنازلات كثيرة، فانا شخصيا لا اتصور امكانية صلح مع اسرائيل، وهذا رابي العميق ولا اتصور اسرائيل الا منتهية، شانها شان الحروب الصليبية. فدولة مثل دولة اسرائيل هي احتيال على التاريخ، ولا يمكن ان تستمر. ولكنّي استطيع ان افهم بالتكتيك ان تقوم بمفاوضات ونقيم دولة فلسطينية، واستطيع ان انضبط سياسيا. لكن اذا اردتُ ان اكتب فانا لا استطيع ان اقول بان هذه هي الحقيقة، بل هي مجرد تسوية، واما الحقيقة فهي ان اسرائيل هي دولة غير قابلة للبقاء في العالم العربي». كيف نقرأ هذا الكلام اليوم بعد ثماني سنوات؟

ما زلت عند نفس الكلام.

وهذا لا يتعارض مع ما كنت تقوله قبل قليل؟

كلا على الاطلاق. السلام برايي هو رؤى.. برايي ان هذا الكلام ليس كلامًا سياسيًا انما نضال. بالنسبة لي الكلام للنضال السياسي هو حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير واقامة دولة فلسطينية مستقلة على كامل الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧. هذا هو الكلام السياسي. وما عدا ذلك هو تاويل للمستقبل. تاويلي الشخصي للمستقبل هو ان دولة اسرائيل ستندمج في العالم العربي. يمكن ان يكون هذا تاويلاً خاطئا ولكن اعتقد في العمق ان المشرقية الاسرائيلية ستتغلب على غربيتها وهذا سيقود الى اندماجها في العالم العربي. ولن يكون اليهود في العالم العربي مختلفين عن بقية الاقليات.. العالم العربي ليس فقط مسلمًا، انما مليء بالاقليات، المسيحيون عددهم كبير جدا. مسيحيو العالم العربي اكثر عددا من يهود العالم.. في مصر وحدها يوجد ٩ ملايين مسيحي، في سوريا مليونان، وفي لبنان مليون ونصف، وتقريبا مليون في العراق.. انا انتمي لهذه الاقلية واساهم في الثقافة العربية

والنضال من اجل العلمنة والديمقراطية والحرية، الخ. كلامي السابق هو رؤيا للمستقبل وليس مشروعي السياسي. مشروعي السياسي الذي اؤمن به هو ان الحل السياسي للازمة يكون في دولتين مستقلتين.

كيف ترى اليسار الاسرائيلي، «اذا كان هنالك حيوان يحمل هذا الاسم»، كما يقال بالعبرية؟ كيف ترى موقف اليسار من الانتفاضة، ومن المشاركة في حكومة شارون؟

الحقيقة ان خيبة الامل هي من اليسار اولا، وحزب «العمل» هو خيبة أمل لكل قيم اليسار. حزب «العمل» ساهم بالاستيطان مثل الليكود ان لم يكن اكثر، والاستيطان هو سبب هذه المشكلة الكبرى. حزب «العمل» غطى ويغطي القمع، وغطى ويغطي هدفًا بدأ منذ ما يسمى بخطة آلون بعد احتلال الضفة الغربية وغزة مباشرة، وهو هدف ان لا تعطى الارض الفلسطينية لاهلها وان لا تقوم عندنا دولة ذات سيادة وقابلة للحياة، وان تقطّع. وان تحتل اسرائيل حدود هذه الدولة، وبالتالي تقوم دولة بدون حدود. ما في دولة بالعالم بدون حدود.. لذا اعتقد ان موقف حزب «العمل»، اذا كان يعبر عنه قادته الحاليون، بنيامين بن إليعيزر وشمعون بيرس، هو امر يدعو الى خيبة الامل الكبرى. اما القوى الاخرى مثل «ميرتس» ومن على يسار «ميرتس»، فرغم انها تتفاوت في مواقفها، اعتقد ان ضعفها في المجتمع الاسرائيلي لا يفيدنا في شيء. فمن مصلحة النضال الفلسطيني ان يقوى هذا النوع من اليسار الذي يدعو الى حد ادنى من التفاهم، لانه في آخر الامر سيقوم الفلسطينيون بعمل سلام مع أحد، وهم بحاجة الى تيار سلام في المجتمع الاسرائيلي وبحاجة الى دعم هذا التيار. يجب ان يدعموا هذا التيار مثلما هو يدعمهم. ولكن للاسف، في الخارطة السياسية الحالية في اسرائيل، ويمكن ان تكون معرفتي قليلة، لا اجد هذا اليسار. من ناحية اخرى انزعجت جدا بعد كامب ديفيد، عشية الانتخابات الاسرائيلية، عندما اصدر المثقفون الاسرائيليون بيانا يدعون فيه السلطة الفلسطينية الى القبول باقتراحات باراك- كلنتون، ووقع عليه كبار المثقفين الاسرائيليين. كتبت ردا طويلا على هذا البيان نشر في «ملحق النهار»، وقلت ان العجيب في هذا البيان انه يصرّ على الدولة اليهودية، وهذا لا علاقة له بالتراث العلماني لليسار، ويصر فيه على رفض حقوق اللاجئين بشكل مطلق، ويصر فيه على ان تأخذ اسرائيل مناطق من الضفة الغربية بحجج مختلفة، وخصوصا استعمال الحجج الدينية لضم مناطق حول القدس. لا اعتقد انه يمكن للمرء ان يكون يساريا ويتكلم عن علاقة خاصة بمدن مرتبطة بالدين. انا كيساري ليس لدي اي علاقة خاصة باي مدينة في العالم، الا العلاقة الانسانية

بالمكان الذي ولدت فيه . . . اما ان تكون لي علاقة خاصة بالقدس لاني مسيحي، واقول لك كما قال الصليبيون اننا نحن نريد ان نأخذ القدس لان فيها قبر المسيح . . . اعتقد ان هذا يدعو على الاقل إلى الشك بعلمانيتي ويساريتي . فأنا شعرت بالاسى عندما قرأت هذا البيان . ثم صدر مقال بيني موريس . .

قرأت عن ردّة بيني موريس، وقرأت مقاله في « الجارديان » . وفي الطبعة العربية لـ« باب الشمس » انت تدرج اسمه في قائمة المصادر التي استعنت بها في الكتابة . كيف ترى دور المؤرخ، والمثقف بشكل عام، ودور الاديب بقراءة الواقع المحيط بنا . هل ثمة ما يميز هذا الدور عن دور الشخص العادي الذي لا يملك ادوات المؤرخ او المثقف او الاديب؟

الحقيقة ان مقال بيني موريس في « الجارديان » مخيف . المؤرخ اصبح، كما رد عليه آفي شلايم، مشعوذا، يؤلف من رأسه : كأنه كان جالسا في فراش حافظ الاسد وقت قال لإبنه : « اوعا تصالح اليهود » لانو في وراه صور صلاح الدين . هذا امر مضحك، ان يقوم به مؤرخ، استاذ في التاريخ . . . ورأيي انه كان له دور اساسي بفتح الباب على مساءلة الرواية الصهيونية لنشوء دولة اسرائيل، وقضية اللاجئين . . . طبعا روايتنا، نحن الفلسطينيين او العرب، موجودة ولكنها غير مكتوبة، وللاسف في الواقع، لأن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ . فالدور الذي لعبه المؤرخون الاسرائيليين الجدد كان دورًا اساسيًا باعطاء شرعية لتشقيق الرواية الاسرائيلية . اعطى شرعية لان تبدأ الرواية الفلسطينية، التي للاسف لا يزال العمل عليها لدى المؤرخين الفلسطينيين في بدايته . لكن ان يقوم هذا المؤرخ تحت ضغط وصول الموضوع الى النقطة الحاسمة، وهي ان ينسحب الجيش الاسرائيلي من المناطق المحتلة، ويبدأ بالتردد لاسباب متعددة هو ما يجعل مقال بيني موريس مقالاً سياسيًا وليس مقال مؤرخ . عندما يتردد في النقطة الحاسمة عن ضرورة الانسحاب واخلاء المستوطنات وارجاع الاراضي لاصحابها ويتمسك براي اعتى غلاة اليمين، أنه سيضطر لاحتلال الضفة الغربية من جديد فهذا يطرح سؤالاً حول علاقة المعرفة العلمية بالموقف السياسي . المعرفة العلمية هي اخلاق، لا تستطيع ان تكون مجردة من الاخلاق، فانت هنا عمليًا تكتشف ان الفلسطينيين طردوا من بلادهم ثم لا تستنتج من ذلك اي استنتاج اخلاقي، وهذا ما يفعله بيني موريس .

بيني موريس يقول انه معني بالتاريخ وليس بالعدالة . انت تقول بانه لا وجود للموقف العلمي دون الموقف الاخلاقي .

الموقف العلمي يحمل بداخله اخلاقه: البحث عن الحقيقة، والحقيقة لها اخلاق. لا يوجد حقيقة بلا اخلاق، وإلاّ لعدنا الى اعتى النظريات النازية: النازيّة هي فصل المعرفة عن الاخلاق، وجعل المعرفة في خدمة هدف لا اخلاقي. او تحويل جزء من المعرفة لايديولوجيا في خدمة هدف لا اخلاقي. برأيي ان فصل المعرفة عن الاخلاق هو كارثة على البشرية. بيني موريس مؤرخ جيد ولكنه ليس بعالم كبير.. ولكن ادعاءه انه معني بالتاريخ وليس بالاخلاق يدل على انك امام خطر فكري حقيقي، بصرف النظر عن الصراع العربي الاسرائيلي. هذا يثير علامات استفهام ويبرر كل شيء. بل وينهي عن المثقف دوره وينهي عن المعرفة دورها بوصفها قوة، فكما علّمنا ميشيل فوكو، المعرفة هي سلطة. والسؤال دائما: اين تضع سلطة المعرفة، في خدمة ماذا؟ انا لا اقول أن نضعها في خدمة هذا الطرف او ذاك، انما ان نضعها في خدمة فكرة العدالة وفكرة المساواة، وهي افكار الانسانية الكبرى. عندما يتخلّى المؤرخ عن هذا الهدف، يصبح عمله ليس فقط فارغا من المعنى انما خطيراً. يعني ان شغله يخدم النزعات العنصرية والفاشية، بدل الانسانية.

هل يختلف دور المثقف عن دور الانسان العادي؟

دور المثقف الاول هو ان يكون انسانا عاديا، ويحس كالبشر العاديين. ولكن ما يميزه عن الانسان العادي هما امران: المعرفة، لانه متفرغ للتفكير ولإنتاج المعرفة، وكونه يملك السلطة. هذه المعرفة وهذه السلطة يجب ان يضعهما المثقف في خدمة الحقيقة. اذا خان المثقف الحقيقة ووضع المعرفة في خدمة السلطة الايديولوجية او السياسية او الدينية فيكون عم يخون موضوعه، عم يخون الثقافة.

هنالك مقطع في الكتاب تتحدث فيه عن المفاتيح (ص ٤٠٧ في الاصل). «يقول خليل: حين اخبرتني يا ابي عن نظرية نهيلة اللغوية، تذكرت كمال الذي اراد جمع مفاتيح البيوت في الاندلس.. اردت القول اننا لم نفهم الفرق الجذري. القشطاليون لم يضطهدوا العرب المسلمين واليهود من اجل طردهم فقط، فالطرد مهما كان كبيرا وفعالا لا يستطيع طرد كل الناس. القشطاليون فرضوا على الاندلسيين دينهم ولغتهم لذلك كان انتصارهم نهائيا ولذلك اندمجت الاندلس في اسبانيا وانتهى الامر. اما هنا فمفاتيحنا ليست مفاتيح البيوت التي سرقت. مفاتيحنا هي اللغة العربية. اسرائيل لا تريدنا ان نندمج ونصبح اسرائيليين ولا تفرض علينا دينها ولغتها». لماذا تعتقد ان المفاتيح هي بأيدي الاسرائيليين؟

يوجد مقارنة بين الاندلس وبين فلسطين، وبرأيي المقارنة غلط كليًا . هي مقارنة شائعة ولكنها خاطئة . اساسها خاطئ، اي، كون الاندلس ضاعت وفلسطين ضاعت، وان الحنين الى فلسطين هو نفس الحنين الى الاندلس . برأيي ان الحنينين مختلفان، وليسا متشابهين . الحنين الى الاندلس هو حنين ثقافي، الى ازدهار ثقافي وتنوع فكري . في فلسطين لم يكن هذا موجوداً، هذا لكي لا نعمل اسطورة من فلسطين . وانا لا احب المقارنات التاريخية لا بالاندلس ولا بصلاح الدين . وفي الرواية هناك مكان آخر، نهيلة تتناقش مع يونس وتقول له صلاح الدينك بصلاح الديني . . . هذه المقارنات لا معنى لها . اما فيما يتعلق بالاقلية الفلسطينية في اسرائيل، باللي نهيلة بتقول (وهذا برأيي مفتاح لفهم الاقلية الفلسطينية في اسرائيل في الكتاب)، « انه نحن اصبحنا يهود اليهود وعرب العرب، نحن الوحيدين الذين اسمهم عرب » . فقط فلسطينية اسرائيل اسمهم عرب، اللبنانيون ليس اسمهم عربًا، ولا السوريون ولا المصريون ولا حتى في الضفة وغزة . فقط اهل فلسطين في اسرائيل هم العرب . وهذه تسمية خاطئة . . . ولكن بالمقارنة، ما فعلته اسرائيل في العام ١٩٤٨ غير الطرد، هو اخضاع الاقلية الفلسطينية الى الحكم العسكري لفترة طويلة . ومحاولة تجزئتها الى دروز ومسيحيين ومسلمين وبدو وشركس، يعود لكون اسرائيل دولة ملتبس فيها معنى الانتماء القومي منذ تاسيسها . بمعنى انها ليست دولة تقوم على قومية واضحة انما على مزج بين الانتماء الديني والانتماء القومي، وبالتالي هناك رفض للاغيار، فالفلسطينيون الذين بقوا في اسرائيل لم يعرض عليهم لا التهود ولا الاندماج بالطريقة التي عرضت قسرًا على اهل الاندلس . . . تقرأ في المصنفات التاريخية انه بعد ١٠٠ او ١٥٠ عام من انتهاء الحرب، كان المسلمون الذين تنصروا يذهبون الى المقابر بعد دفن موتاهم على الطريقة المسيحية، يخرجون الموتى ويدفنونهم على الطريقة الاسلامية . هذه مقاومة مديدة واجبر السكان فيها على تغيير دينهم . هذا مغاير لما حدث في اسرائيل . اذا لم تكن يهوديا فانت لست يهوديا . وبالتالي انا برأيي اسرائيل يقلب المشروع، لأن الطرد لا يفيد . . طردوا الكثيرين، كم بقي من فلسطينيين في اسرائيل؟ ١٥٦ الفًا . الآن هم اكثر من مليون . رغم جميع الهجرات، نسبتهم ما زالت اساسية في تكوين المجتمع الاسرائيلي . برأيي ان اسرائيل ليس لديها حل للاقلية الفلسطينية . حتى حل قسري كالاندماج . وليس لديها حل ثاني الذي هو القبول بالمساواة الكاملة، والتحول الى دولة لكل مواطنيها . وليس لديها حل ثالث وهو الاعتراف بهم كاقلية قومية لها استقلالها الثقافي . اسرائيل لا تملك حلاً للاقلية الفلسطينية . وبالتالي لا يوجد خطر الذوبان في المجتمع الاسرائيلي . كتب كثيرا عن الاسرلة، لكن برأيي لا يوجد خطر كبير من هذا النوع . لا شك انهم خاضعون لتاثيرات ثقافية واجتماعية اسرائيلية ولكن هويتهم القومية

واللغوية لا خطر عليها، لان اسرائيل غير معنية بذلك. اسرائيل ليست لا مشروع دمج ولا مشروع اعتراف بالآخر. هناك مشكلة في المشروع الصهيوني نفسه تجاه السكان الاصليين.

ما رأيك بالفكرة الداعية الى تحويل اسرائيل الى دولة مواطنيها؟

انا رأيي انه اذا نجحت هذه الفكرة فهي الحل. لكن هذا حل بالنسبة للتكوين الصهيوني لاسرائيل اخطر من اي حل آخر. مثلاً، ليش الإنسحاب من الضفة وغزة – «خلّينا نعمل دولة لكلّ مواطنيها في كلّ فلسطين التاريخيّة»! أو يا سيدي، ينسحبوا من الضفة وغزة ومنعمل دولة كل مواطنيها في كلّ إسرائيل. برأيي ان هذا يرتّب تغييرًا بنيويًا على التركيبة الاسرائيلية، وهذا التركيب البنيوي لم يجرؤ حتّى بن غوريون على المس به، اي ان تمسّ بطبيعة اسرائيل المزدوجة: الطبيعة الدينية والطبيعة العلمانية. اسرائيل دولة دينية وعلمانية في الوقت نفسه، والامور مخلوطة. لذلك فالحل الامثل هو دولة لكل مواطنيها. هذا يعني ان اسرائيل ببنيتها الحالية تزول، وهذا لا يعني اننا نريد ان نطرد اليهود وينكبّوا بالبحر، او ان يمنعوا من التكلم بلغتهم.. انما ازالة الفكرة الصهيونية لاسرائيل كما تأسست. انت تعرف كم هي مرفوضة فكرة دولة كل مواطنيها، كيف كانت ردود الفعل عليها عندما قمت انت بطرحها في الماضي. هذه الفكرة تهدد حتى اليسار الاسرائيلي. للاسف، الاطراف التي تقبل هذه الفكرة ما زالت هامشية. فكرة دولة اليهود هي الفكرة التي ما زالت مسيطرة.

هل وارد حسب رأيك حل دولة لكل مواطنيها من النهر الى البحر؟ هل تقبل اليوم بمشروع الدولة الواحدة؟

انا اتمنى ذلك، لكنّي اعتقد انه مستحيل ويرتب حروبًا اطول بكثير من حرب انشاء دولتين. لذا افضل انشاء دولتين كمقدمة للبحث في حل حقيقي، ديمقراطي وعلماني، ويحفظ حقوق كل الاقليات ويحترم حقوق الانسان والفرد.

دائما هناك مشكلة الموازاة والتوازي. مثلا، في غالب الاحيان التي تطرح فيها قضية حق العودة، تقوم هناك اصوات في اليمين الأسرائيلي، وليس فقط في اليمين، تدعو الى التوازن، او الموازنة – هناك مشكلة لاجئين فلسطينيين، وهناك ايضاً مشكلة لاجئين يهود من البلدان العربية. كيف ترى هذه الموازاة؟

انا مع حق اليهود العرب الكامل في العودة اذا شاءوا الى بلادهم وفي التعويض عن املاكهم. تهجير وهجرة اليهود العرب من العالم العربي الى اسرائيل كان كارثة على العالم العربي. انا برأيي ان العالم العربي، الاقلية اليهودية موجودة فيه من قبل الاسلام. لدينا شاعر يهودي كبير في العصر الجاهلي اسمه السموأل. وان يفرغ العالم العربي من يهوده، وبالمناسبة ليس كلهم ذهبوا الى اسرائيل بل الكثيرون ذهبوا الى اوروبا، هذه كارثة ثقافية عربية. برأيي ان المسؤولين عنها ان كانوا عربًا او كانوا عملاء لـ«الموساد» يجب ان يحاسبوا. هذه جريمة لا يمكن ان تغفر. من جانب آخر، الموازاة هي حجة: فالفلسطينيون طردوا من بلادهم، اما اليهود فطردوا، كما يدعي الخطاب الصهيوني، الى بلادهم. واحد طُرد من بلده وواحد طُرد إلى بلده مش زي بعضها! يعني التوازي غلط. النقطة الثالثة والاهم برأيي هي: في عام ١٩٩٨ كنت مدير «مسرح بيروت» ونظمنا سلسلة من الفعاليات لمدة ثلاثة اشهر، لإحياء ذكرى النكبة. وكانت اول فعالية عبارة عن زيارة جماعية وحمل الشموع الى مقبرة ضحايا صبرا وشاتيلا، وذلك كان في ذكرى يوم مذبحة دير ياسين. وكان من ضمن الفعاليات جزء اساسي مخصص لمناقشة مسالة اليهود العرب، ودعي الى هذه الندوة مثقفون يهود عرب يعيش بعضهم في فرنسا وبعضهم في المغرب، وكان بينهم العالم النفسي المصري الكبير جاك حسون، ادموند عمران المليح، سليم نسيب، ابراهيم صرفاتي، وشنت علينا حملة من الاوساط القريبة من التيارات القومية وخصوصا من اخواتنا السوريين باعتبار ان هذا تطبيع وعمالة لاسرائيل والى آخره. فلم نقدر ان نعزم هؤلاء الاشخاص، ولكنهم ارسلوا مداخلاتهم وعملنا جلسة. كان في المسرح اربعة كراسي شاغرة، وكان كل واحد يطلع من القاعة ويقرأ نص هؤلاء المشاركين، لانه برأينا صوت اليهود العرب هو صوت اساسي في الثقافة العربية، وثانيا تهجير اليهود العرب كارثة، والانظمة العربية التي ساهمت في ذلك هي اولا تضطهد شعوبها، مثل نوري السعيد وملك المغرب واليمن... الطرق التي تم فيها تهجير اليهود العرب طرق مخجلة؛ قصص اليمنيين والعراقيين اصبحت معروفة، كان هناك شيء مرتب لاخراجهم من بلادهم الى اسرائيل. برأيي هؤلاء جزء من الشعب العربي ولهم حقوق مثلي ومثل اي مواطن العربي، وهذا صحيح في جميع الاوقات، ولا من احد لديه الحق بمنعهم من ممارسة حقوقهم كمواطنين عربًا اذا شاءوا. واذا لم يشاءوا فنحن نحترم ارادتهم. لا نفرض عليهم ان يعتبروا أنفسهم عرب. اذا لم يحبوا اعتبار انفسهم عربًا فهم احرار، فالهوية ليست شيئًا من السماء انما يعتمد على خيار الانسان. ولذلك علينا احترام اختيارهم. ولكن، بنظري، انهم جزء من الثقافة العربية ولهم نفس الحقوق مثل اي مواطن عربي. وهنالك نقطة اخيرة فيما يتعلق بالموازاة. الموازاة تعني ان اسرائيل تعتبر العالم العربي واحد، فهل هذا صحيح؟ هل

اليهود العرب هم شعب واحد، ام انهم عراقيون ومغاربة واكراد والخ؟ انا برأيي ان لعبة الموازاة لعبة هدفها سياسي وهدفها تغطية طرد اللاجئين الفلسطينيين من بلادهم. ومن هنا رأيي ان خسارة المثقفين اليهود في العالم العربي هي خسارة كبرى للثقافة العربية. وكذلك خسارة للحرف في الشام وبغداد، وللموسيقى...

نذكر فقط ان احد المشاركين الذي لم يحضر الى بيروت، وهو سليم نسيب، او سليم تركية، كتب كتابا رائعا عن ام كلثوم واحمد رامي. وترجم هذا الكتاب من الفرنسية الى العربية قبل سنوات ولكن الغلاف لم يذكر شيئا عن هوية سليم نسيب. ذكر انه صحفي يعمل في «ليبراسيون» ولكن لم يذكر لا من قريب ولا من بعيد انه يهودي لبناني يكتب عن احمد رامي وام كلثوم.

صحيح. لقد اجريت معه مقابلة طويلة في الملحق وروى فيها قصص ابيه وقصص عائلته. هم اساسًا من الشام، من دمشق.

هناك تعاطف في الكتاب مع ضحايا الهولوكوست، وهناك طلب صريح جدا من ثوار فلسطين، من القيادة الفلسطينية، من كل شخص فلسطيني، ان يبدي التعاطف والتفهم لمذبحة يهود اوروبا تحت الحكم النازي كشرط لمعرفة الذات. يجب ان تعرف ما الذي عاناه الآخر لكي تطلب من هذا الآخر الاعتراف بما عانيته انت. في السنة الماضية وقعت بالمشاركة مع محمود درويش وادوارد سعيد وآخرين على عريضة تطالبون فيها بالغاء مؤتمر كان من المزمع عقده في بيروت باشتراك اشخاص ينكرون حدوث الكارثة اليهودية.. والعريضة دعت الى الابتعاد عن هؤلاء الناس. ما هي ردود الفعل التي قوبلت بها العريضة، هل شعرت بأن هناك استعدادًا بين مثقفين عرب لتقبل وجهة النظر هذه، ام ما زلت ترى اننا في بداية الطريق؟

برأيي أن معرفة المحرقة النازية ودراستها هي جزء من فهمنا لتاريخ البشرية لان هذه احدى الكوارث الكبرى في القرن العشرين، وربما إحدى الكوارث الكبرى في التاريخ. وما جرى يدل، كما كتبت حانا ارندت على تفاهة الشر. وانا معني بالمحرقة النازية كإنسان، بصرف النظر عن قضية فلسطين، لانها تهديد للانسان. فأن تقوم دولة بإبادة ملايين البشر بسبب انتمائهم الديني، هذه وحشية لا يمكن القبول بها ولا يمكن الا دراستها من اجل فهمها كي لا تتكرر مع اي شعب ومع اي دين او عرق في العالم. ثانيا، هناك في العالم العربي، نتيجة

الضعف والهزائم، بعض الذين اعتقدوا، من جهة خطأ، ومن جهة نتيجة فكر قومي متعصب انا ضده، ان حلفاء العرب هم منكرو المحرقة النازية. برأيي هذه حماقة، لأن منكري المذبحة النازية هم اناس بلا اخلاق. قبل ان تفحص من معك ومن ليس معك، عليك ان تفحص من هو هذا الإنسان. هذا موقف سياسي عنصري هو استمرار للموقف النازي وميزته الاساسية انه بلا اخلاق. فانا لا استطيع ان اتحالف معه تحت اي ثمن. ثالثا، في «باب الشمس» الحكي عن المحرقة النازية مهم جدا للفلسطيني لفهم نفسه. اذا اراد الفلسطيني ان يفهم نفسه عليه ان يفهم هذا الاسرائيلي لان وعيه، او جزءاً اساسيًا من وعيه، مصنوع من ذاكرة المحرقة النازية. وجزء اساسي من الخوف، البرانويا الاسرائيلية، ناتج عن المحرقة. فاذا لم نفهم هذا لن نفهم من هو المحتل للارض. اما بخصوص المؤتمر، اذكّر ان السيد روجيه غارودي دعي الى العالم العربي، الى الامارات، والى القاهرة والى بيروت. روجيه غارودي هو الفيلسوف الفرنسي الذي بدا حياته شيوعيا ثم انقلب الى مسيحي ثم الى مسلم وآخر كتاب صدر له كان عن الاساطير الاسرائيلية وفيه شارك في حملة الانكار او التقليل من حجم المحرقة النازية. ان عدد الضحايا ٣ ملايين وليس ٦ ملايين، واشياء من هذا القبيل... وخلال زيارة روجيه غارودي الى العالم العربي خضنا معركة، باعتقادي من اهم المعارك الثقافية، ضد روجيه غارودي، ضد هذا النوع من الفكر، وكانت النتائج ممتازة. توقعت ان نكون اصوات معزولة واذ بنا نكتشف ان صوت العقل اذا طلع ليس ضعيفا على الاطلاق، المهم ان يكون جريئا ويطلع.

انت تتحدث على مستوى الصحافة العربية.

نعم. قوتنا الاساسية كانت في بيروت، وهي اكثر بكثير من القاهرة مثلا، ولكن لم يخل الامر من صدور اصوات في اكثر من عاصمة عربية. وايضا عند صدور البيان الداعي الى الغاء مؤتمر منكري المحرقة، اثيرت معركة ثقافية في بيروت، ونجحنا. منعناه، وفزنا فوزًا ثقافيًا. كان معنا مجموعة من المثقفين، ادونيس، الياس صنبر، وآخرون. عندما تقوم مجموعة من المثقفين العرب بطرح موقف واضح وعقلاني، فإن بإمكانها إثبات ان هذا الموقف له صدى الى درجة ان المؤتمر لم ينعقد، الحمد لله. المعركة كانت قاسية جدا، لان بقايا الفكر العنصري والقومي والرجعي لا تزال موجودة. لكن مجرد النجاح في منع عقد مؤتمر من هذا النوع هو انجاز كبير في الثقافة العربية.

افترضني قارئًا اسرائيليًا، ما الذي كنت لتقوله للقارئ الاسرائيلي، عدا عن الذي تقوله في

الكتاب. قارئ يدخل الى مكتبة لشراء «باب الشمس» ويجدك هناك واقفا، ما الذي كنت ستقوله؟

ساقول له ان «باب الشمس» هي قصة حب، وعليك وانت تقرأها ان تفتح قلبك للحب، وهذا اقوله للقارئ الاسرائيلي والقارئ العربي والقارئ الاوروبي. هذه قصة حب. في الاخير الحب هو اهم من كل شيء، واهم من التاريخ.

هل كان نشر الرواية مبرمجًا له في ذكرى الخمسين؟

كلا، الراوية كان يجب ان تنشر قبل ذلك بسنة. انتهت قبل ذلك بسنة وابلغت «دار الآداب» انه غدا ستأتيهم هذه الرواية، وكانوا في انتظارها. وفي تلك الليلة اللعينة، لم انم، ووجدت نفسي في الساعة الثالثة صباحا جالسا وراء الطاولة، وقررت ان اعيد كتابتها... للمرة الرابعة. كتابة كاملة، هذا استغرق سنة كاملة وسبّب لي انهياراً عصبياً. وقتها كنت أوقفت التدخين ولكني عدت للتدخين، ورجعت القرحة... اكتشفت انه كان فيها مشكلة في الايقاع... فقررت اعادة كتابتها، ولذلك صدرت في عام ١٩٩٨.

شخصيتك انت ككاتب ضمني، كما يقال في النقد الادبي، تظهر هنا وهناك في تضاعيف الكتاب، وتظهر بصور مختلفة. بشكل فاضح وواضح احيانا لمن يعرفك جيدا، واحيانا بصورة مخفية. تتحدث عن كتابة ملحمة فلسطينية (وهذا الاقتباس من صفحة ٣٦٦-٣٦٧ النسخة العربية): «كان سميح لا يتوقف عن ترديد حلمه بكتابة كتاب لا اول له ولا آخر، ملحمة، كان يقول، ملحمة الشعب الفلسطيني، وسيبدأه برواية تفاصيل الطرد الكبير عام ١٩٤٨». كتاب لا اول له ولا آخر، ملحمة الشعب الفلسطيني، هل انت سميح؟ هل هذا هو «باب الشمس»؟

هذا طموح «باب الشمس»، ان لا يكون له آخر. آخره ليس آخر. الرواية لا تنتهي. انا رأيي ان المأساة الفلسطينية مأساة كبرى. مأساة انسانية. وافظع ما فيها، غير المجازر والمذابح، انها ما رُويت. وبالتالي شعرت انه لسبب ما. ربما السبب هو انا، حسابي الشخصي وشبابي المبكر ومشاركتي في العمل الفلسطيني، واشياء غامضة جدا، منها تربيتي المسيحية المبكرة والمسيح، الخ... اعتقد ان هذا ما دفعني نحو فلسطين وكان شعوري ان مساهمة الادب في

هذه المأساة هي في ان يكتبها، واذا كتبها فلن يكون قد خفف من مأساويتها، لكنه على الاقل سيضع هذا الوعي المأساوي في السياق الانساني العام. الفلسطينيون ليسوا شعباً خاصاً او مختلفاً، هم مثل كل الشعوب..

ليسوا شعبا مختاراً.

ليس مختاراً على الاطلاق. انما مثل كل الشعوب. واذا رووا حكايتهم سيكتشفون انهم مثل الاخرين. اعتقد أن هذا يناقض المفهوم الصهيوني والأسرائيلي وكأن رواية المأساة اليهودية تجعلك متميزاً. تجعلها، مثلما يقول إيلي ڤيزيل، «فريدة». انا اعتقد ان المأساة الفلسطينية ليست فريدة. شعرت وانا اكتب هذا الكتاب بآلام كل التاريخ، وبعبث التاريخ... التاريخ يستخدم الناس، أو كما يقول خليل في الرواية ان التاريخ وحشي. التاريخ يستخدم الناس كي يعمل مآسي. وبهذا المعنى فهمت واقتربت من المأساة الفلسطينية وكتبت هذه الرواية.

البعض وصفها بانها الرواية الفلسطينية الكبرى.

كان هذا وصف صبحي حديدي وهو يرد على نقاش دار في «القدس العربي»، حيث كتب سمير يوسف ان هذه ليست الرواية الفلسطينية الكبرى لأن الرواية الفلسطينية الكبرى لا يمكنها ان تكتب الا بعد ان تنتهي مرحلة. صبحي كان يناقش، واعتقد ان صبحي معه حق نظريًا، ولكن حاولت ان اكتب كل الحكايات التي لا اعرفها. كانت الكتابة هذه وسيلة كي اعرفها...

تقول في مقابلة «الآداب»: «لماذا تكتب؟ لتخبر بما هو غير معروف. انا اعتقد انك حين تخبر القصص تصبح القصص غير معروفة لديك. حين اخبرك بقصة تعرفها فانك تتعرف اليها من جديد. كتابة الرواية بحد ذاتها عمل غريب ومستغرب لانك تخبر فيها حكايات لناس يعرفونها». هل صادفتك ردود فعل عنيفة بعض الشيء، بما معناه «من انت، انت كاتب لبناني تتطفل على قضيتنا وتدعي انك تكتب ملحمة الشعب الفلسطيني». هل شعرت بغيرة ما في هذه الردود اذا كانت قد صدرت؟

لم يكتب شيء من هذا القبيل. وانا اتخيل ان هناك مشاعر من هذا القبيل، لكن لم يكتب هذا ابدا. انا جزء من تاريخ المقاومة الفلسطينية. لا احد يستطيع ان ينكر اني شخصيا جزء من هذا التاريخ، على الرغم من ان ابي ليس فلسطينيًا، ولا امي ولا اي احد من سلالتنا فلسطيني. لكني انا جزء منذ شبابي... منذ كان عمري ١٦ سنة. اول مرة اعتقلت فيها في لبنان كانت في آخر عام ١٩٦٧، بعد الهزيمة مباشرة لاني كنت اجمع التبرعات لحركة «فتح». وهذه اول تجربة لي في السجن. بالنسبة لي التجربة الفلسطينية هي تجربة شخصية. هي جزء من حياتي.

حدثنا عن خلفيتك في المقاومة الفلسطينية، اذا اردت التحدث عن هذا الموضوع.

– ولدت في الأشرفية في الحي الشرقي المسيحي من بيروت. وفي عام ١٩٦٧ احسست بمهانة فظيعة. ثم حدث ان عقد مؤتمر مسيحي شارك فيه الاب يواكيم مبارك وهو كاهن ماروني وكاتب، وهو باعتباري كاتب كبير. وذهبت انا والاب يواكيم مبارك ومجموعة من المؤتمر الى الاردن لزيارة مخيم البقعة. كان مخيم البقعة ما زال خيمًا، وفيه نازحون من الضفة الغربية. واتذكر ان الخوري اجهش بالبكاء. كنت واقفاإلى جانبه، وقال لي: «يجب ان نعمل شيئا ما». قلت: «طبعا». قال: «ماذا؟». قلت: «تمشي عالبيت». قال: «شو باك!»، قلت «لكان منظلّ هون!». طبعاً رجعت، رجعت وبعدها اذكر انني اخذت سيارة اجرة وذهبت الى عمان. لم اكن اعرف احدا. نمت في فندق رخيص، نمت على السطح... في الصباح اخذت تاكسي... قال السائق «الى اين؟» قلت «عند المقاتلين». خفت ان يكون هذا السائق ضابط مخابرات فاجد نفسي.. الا انه كان فلسطينيًا، واخذني الى السلط، هناك التقيت بشخص نصحني بان اعود الى البيت لاني صغير. لكن امام اصراري الحقني بمعسكر.. وفعلا انا لم اطلق النار على عصفور، واكره صيد العصافير. تكويني ضد العنف.. التربية.. يعني مبيّن من وين جايي. ما بعرف. اعتقد انه رأى اني لا انفع... لكن امام اصراري الشديد، أشفق علي والحقني بالمعسكر. لم اكن اعرف من هو، فيما بعد عرفت انه «ابو جهاد».. و«ابو عمار» كان هناك. كانوا ينادونه «الختيار»، واتى مرة وشرب معنا الشاي، لكنه لم يتكلم معي.. الذي تكلم معي كان «ابو جهاد» الوزير... والتحقت بالمقاومة، وبعد ان انتقلت المقاومة الى لبنان، اشتغلت معهم في لبنان. في تلك الفترة كنا طلابًا في الجامعة وتاثرنا بالفكر الجيفاري وماو تسي تونغ، الخ. بعد ايلول ١٩٧٠، قررت ان اسافر الى فرنسا للدراسة، وبعد ذلك عدت الى مركز الابحاث.

في ايلول ١٩٧٠ كنت في الأردن؟

رحت على الاردن .

ثم انتهت مشاركتك في المقاومة؟

في المقاومة المسلحة . بعد مجازر ايلول اصبت بالاحباط وقررت ان التحق بالدراسة ، واكملت الماجستير والدبلوم، الخ . . ثم عدت الى لبنان واشتغلت في مركز الابحاث . وعندما اندلعت الحرب الاهلية شاركت، يعني ساهمت .

شاركت ايضا في الحرب الأهلية؟

نعم .

دفعت ثمنا غاليًا .

بالمقارنة مع الآخرين، لا شيء .

تكلّم قليلاً عن تجربتك الحدودية . عن عملية الاجتياز من طرف الى طرف . تاتي من عائلة مسيحية لبنانية ثم تلتحق بالمقاومة الفلسطينية، ثم تؤيد اليسار اللبناني في الحرب الاهلية .

ليست المشكلة مع اليسار اللبناني، لان تكوينه له علاقة وطيدة بالبيئة المسيحية . قياداته كانت تاريخيا من النصارى . حتى عند الفلسطينيين لم تكن هناك مشكلة كبيرة . جورج حبش ونايف حواتمة، وكثار آخرون من غير المسلمين، هم جزء من المقاومة الفلسطينية . لكن الاجتياز هو الاجتياز من عائلة برجوازية صغيرة الى الالتحاق بشعب آخر مشرد ومحطم ويناضل . الانتقال الى قيم مختلفة كليا بالمعنى العميق، الجوهري . اعتقد ان هذه المسالة كانت مأساوية . . بالنسبة لي، اذا اردت الحقيقة، كان هذا الاجتياز مرتبطا بالأدب . كنت اذهب الى قواعد في الجنوب اللبناني، ولأني لبناني فكنت اقدر على اجتياز حواجز الجيش، ولذا كنت اذهب كثيرا كضابط ارتباط ثقافة، فكنت دائما اقرأ كتبًا وروايات واشعارًا على

الطريق. كانت التجربة بالنسبة لي لها علاقة بالادب اكثر منها بالسياسة. لذلك لم اترق سياسيًا. ولم اصبح مسؤولاً سياسيًا. كنت مناضلاً ومقاتلاً . . . يعني طبعًا ترقيت لكن لم اصبح في القيادة، لانه فعلا، كنت اريد ان اناضل. لم اكن اريد ان اعمل في السياسة. كنت اقول لنفسي، انه لولا قضية فلسطين. لكان وعيي انني اتعاطى السياسة لان هناك قضية عدالة وليس لاني اريد ان اتعاطى السياسة. واليسار دخل من مفهوم العدالة؛ بمعنى اننا ندافع عن الفقراء والمظلومين. . . لم اكن اعتقد انه عبر السياسة تستطيع ان تصنع مجتمعًا افضل، الخ. هذا تطور فقط لاحقا في وعيي المتاخر عبر قراءاتي الماركسية التي لم تدم طويلا. لانه برايي، هناك شيء عبثي في التاريخ البشري الذي لا يصل بنا الى محل، يعني ليس بالضرورة ان يمشي بنا التاريخ الى الامام. المسالة اذن كانت مرتبطة بمفهوم العدالة، ودخلت تجربة مخيفة تحطمت فيها. . . نفسيًا احسست بتحطم داخلي كبير، لان الفدائيين كانوا فدائيين، كانوا يموتون. ترى الفدائي يسقط الى جانبك وتواجه انت خطر الموت في كل لحظة. اعتقد ان هذه هي تجربتي الكبرى في الحياة.

هنالك اشارة في «باب الشمس»، (صفحة ٤١٢–٤١٣ من النسخة العربية)، خليل يقول: «احكي عن بلاد لم ازرها. دخلتها مرات قليلة مع الفدائيين ليلا لكنني لم ارها، حتى قلت انها تشبه الجنوب اللبناني». هل دخلت الى فلسطين؟

قليلاً.

ليلاً؟

نعم.

ذكرتَ في مقابلة «الآداب» رأيك في ادب الحرب اللبناني. قلت هناك بان كل الكتب التي كتبت عن الحرب اللبنانية، وانت كتبت عدة اعمال، الحرب في خلفيتها، معظم هذه الكتب، ان لم يكن كلها، يتعامل مع هذه الحرب من وجهة نظر الموقف، اي ان هناك ادب الموقف، وتستثني البعض كهدى بركات وحنان الشيخ. هل يمكن سحب هذه المقولة على الادب الفلسطيني والقول ان الادب الفلسطيني الذي قرأناه حتى اليوم هو ادب موقف، وكيف تعرّف ما تفعله انت في هذا الكتاب؟

انا احب الادب الفلسطيني كثيرا. وقبل ان تصل إلى الجليل، دعني احدثك عن علاقتي بالعمل الفلسطيني. انا اشتغلت بـ «مجلة شؤون الفلسطينية» طويلا، كنت سكرتير التحرير، ورئيس التحرير كان محمود درويش. ثم عملت في مجلة «مواقف» التي كان يرئس تحريرها ادونيس، وكان في هيئة تحريرها محمود درويش وصادق جلال العظم وحليم بركات... كان الجو فلسطينياً، جو النضال الفلسطيني كان اساسياً... واعرف جبرا ابراهيم جبرا جيدا، وأجريت معه مقابلة طويلة وكتبت عنه كثيرا لأني احب ادبه. كذلك كتبت عن الشعر الفلسطيني، وباختصار اعرف الأدب الفلسطيني من الداخل، واحبه. واول كتاب كتبته عن نقد الرواية اهديته الى غسان كنفاني. فهذا ادب انا احبه، لكن مع تطوري الفكري والثقافي والادبي، بدات اكتشف ان هذا الادب لسبب ما... وبرايي ان هناك سببًا وجيهًا وعميقًا، يمنع الفلسطينيين من ان يحكوا وجوه الحقيقة المختلفة التي يعيشونها، وينصرفون عن ذلك الى الموقف والرمز والاستعارة. وانا اتحدث عن جيل المؤسسين، الذين اسسوا الحداثة في الادب الفلسطيني، يعني جبرا وكنفاني وحبيبي ودرويش والقاسم، وراشد حسين قبلهم. هذا هو الجيل الاساسي الذي ما زال يشكل مبنى الادب الفلسطيني حتى الان. هذا الجيل، انا اعتقد، لم يعترف بالمنفى.

باي معنى؟

فكرة اللاجئ هي فكرة المؤقت. انت لاجئ يعني انك تعيش في المؤقت، وغدا سوف يزول هذا المؤقت، لذلك لا حاجة لان تكتب ماضي هذا المؤقت لأن ماضي هذا المؤقت مؤقت مثله تماما. فانت بحاجة لان تخترع او تستنبط، كاديب، مبنى رمزيا، مبنى فكرياً ثقافياً رمزياً موقفياً من اجل النضال لإزالة هذا المؤقت. هذا هو تحليلي الفكري لهذا الادب رغم ان فيه شخصين متناقضين كليا مثل غسان كنفاني الذي كان قومياً وعربياً ومن ثم ماركسيًا لينينيًا ويسارياً، متطرفاً، جبهة شعبية؛ وآخر مثل جبرا المثقف، البرجوازي الليبرالي، الغربي. ولكن اذا قارنت الاديبين والشخصيات الروائية تشعر ان هناك هذا القاسم المشترك: دعونا نخلق شخصية فيها رمز وموقف، من اجل ان يزول هذا المؤقت. حتى في ادب الفلسطينيين في اسرائيل، وهو مختلف. يعني ادب اميل حبيبي مختلف في هذا السياق. فاول من اشار الى القرى التي نكبت في الـ ٤٨ في الجليل هو اميل حبيبي، في «المتشائل». اول حكايات حقيقية عن الجليل قراتها كانت في «ارابيسك»، عن قرية، وكيف عاشت، وكيف دخل اليها جيش الاحتلال، يعني كيف سقطت بأيدي الاسرائيليين في سنة الـ ٤٨. ولكن حتى

هذا الادب لم يذهب في لملمة الحكايات، لان ادب الفلسطينيين في اسرائيل كان مشغولاً بخلق شخصية المقاوم. يعني الادب في الخارج خلق شخصية العائد (المؤقت سيزول)، وفي الداخل كانوا مشغولين بخلق شخصية المقاوم، الذي، برايي، اكثر من يجسدها هو محمود درويش في شعره، شعر مليء بالرموز والمواقف، ومحمود درويش لم يتحرر من الرموز والمواقف الا مؤخراً. بعد بيروت، بعد ١٩٨٢، بدأ شعره يتحول الى الحياة اليومية والى التفاصيل. واول مرة يكتب عن ضيعته كانت في «لماذا تركت الحصان وحيداً؟»، عن الذي حدث في البروة. لذلك كان الادب الفلسطيني في الاساس ادب موقف ورمز. انا اعتقد ان هذه الرواية مهمة في تاريخ الثقافة الفلسطينية، غير اهميتها الادبية، اذا كان لها اهمية ادبية، لان الواقع الفلسطيني ينتقل الآن الى وعي المنفى. وهذا تجده عند المؤرخين وليس فقط في الادب. تجد بعض العمل على ذلك في جامعة بير زيت في تجميع اخبار القرى، رغم ان الشغل الاسرائيلي اكثر تقدما، لكن بدأ البحث بالتاريخ الشفهي، يعني روزماري الصايغ، بيان الحوت، ومجموعة بيرزيت، الى آخره، بدأ هنالك وعي في المنفى. وانا برأيي ان الدولة الفلسطينية التي ستقوم في الضفة الغربية وقطاع غزة ستكون اول دولة في العالم يمكن ان نطلق عليها اسم دولة منفى، لان اكثرية سكانها ستكون من اللاجئين... فوعي المنفى يعيد الاعتبار للذاكرة الحقيقية. وبالتالي سينفتح في الادب الفلسطيني باب كتابة ما جرى وتذكّر ما جرى لان الذي جرى ليس مؤقتا بالمعنى الذي فهمه ابناء الجيل الاول من ادباء النكبة... وبالتالي سيعيش الوعي الفلسطيني وعي المنفى لأوّل مرّة.

دعنا نعود إلى الجليل. شيء جال في خاطري وخاطر القرّاء الذين قرأوا الكتاب حتى اليوم: الشيء الباهر بالنسبة لي كفلسطيني آت من الجليل، ورغم أنك لم تكن ذات يوم في الجليل، والانطباع الذي يخرج به القارئ هو انك تعرف كل شجرة وصخرة وجدول ودرب ترابية في جبال الجليل وتلاله. كيف يمكن للكاتب ان يتوصل الى هذا التماهي التام مع جغرافيا لا يعرفها؟

الحقيقة ان مشروع الرواية كان مشروع قصة حب. الفكرة التي استهوتني كانت ان يونس، هذا الفتى الجليلي، الذي يغادر الجليل سنة الـ٤٨ ويترك امرأة في الجليل يغرم بهذه المرأة، ويرجع اليها ولا يقدر ان يسكن معها. هذه ربما اول مرة في العالم يغرم أحد بامرأته... بدلاً من يغرم بنساء أخريات. لأنها رواية حب... فالحب يجعلك تكتشف تضاريس المرأة، والحب يجعلك تكتشف تضاريس الامكنة وتكتشف كيف تصل الى هذه الامكنة، وهذا

اقتضى مني، لأني اكتب عن الحب، ان اتعرف على المكان واقرأ عنه.

جغرافيا الجليل ترتبط في بالك بجغرافيا جسد المرأة. قد يثير هذا الكلام بعض التحفظات...

اذا كنت تحب امرأة، فهذا يقتضي ان تكتشف جغرافيتها، تكتشف جسدها. ولأن هذا العاشق كان يسافر الى الجليل ويعيش في المغارة، ويعيش في الطبيعة من اجل الحب، فقد اضطر الى اكتشاف جغرافية المكان... انا بالنسبة الي المرأة هي شيء والارض هي شيء آخر، وانا اكره هذا الربط.. رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني، وهي اول رواية فلسطينية، تبدأ بابو قيس ينام فوق الارض ويشم رائحة المرأة. هذا خرب الادب الفلسطيني، فما حدث انه كلما تكلمت عن الارض هنالك امرأة، كلما تحدثت عن امرأة هنالك ارض. انا اكره هذه الاستعارة واشعر انها اساءة للحب. تخيل انك بدل ان تنام مع امرأة تنام مع شجرة، مع ارض... ثم ان لدي صديقتين ذهبتا الى هناك وجلبتا لي كميات هائلة من الصور عن كل القرى والمناطق. رؤية المشهد تختلف عن القراءة عنه.. لدي فيلمان صورتهما صديقتاي الاثنتين، طول كل واحد يبلغ ٦ ساعات، عن كل القرى ومغاور دير الاسد...

مشاهد ڤيديو...

كل شيء، المقبرة وساحة البلد والرقابة والمغارة. حضرت لهما خريطة ونفذاها وصوراها.. ثم ان لبنان والجليل هما منطقة واحدة فعلاً. التضاريس الجغرافية متشابهة جدا. كان يطلق على الجنوب اللبناني اسم الجليل اللبناني. أي الجليل كان جليلين، الجليل اللبناني والجليل الفلسطيني. وانا اعتقد ان هناك تواصلاً حميمًا. ما اكتشفته اكثر وهو لاني اشتغلت في المخيمات، سألت الناس ورووا لي قصصًا، فاكتشفت عمق التداخل بين الجليل الفلسطيني والجنوب اللبناني، مما سهّل علي سيكولوجيا ان اقترب من المنطقة. انا فعلا افتكر، انطون، انو الحب بيعمل العجايب. يعني وانا اكتب الكتاب صدقت الغرام.. الى درجة اني لا اعرف اذا كان يونس المغرم فيها ام انا. صدقت ذلك الى درجة اني تورّطت بهذه المرأة وبحكايتها وصارت حكايتي. لذلك عندما انتهى الكتاب كانت احزن لحظة بحياتي، يمكن لان الحب خلص. يعني حسيت انه قصة غرام شخصية انطوت.

كم استمرت الكتابة؟

الشغل استمر ست سنوات .

بما فيه البحث الاول؟

لا، البحث الاول معمول على دفعات ابتداءً من السبعينيات . .

منذ كنت كنت تعمل في مركز الابحاث...

كنت افتش واقرا . . . يعني مثلا اتذكر انه عندما توفي عزالدين القلق، الله يرحمه، الذي كان سفير فلسطين في باريس، وذهبت بعد موته الى مخيم اليرموك للتعزية، امه اخبرتنا قصة الطنطورة . امه من الطنطورة . فانا كتبت نصًا لم انشره في كتاب . نص صغير، ٢٠ صفحة تقريبا، قصة زيارتي لاهل عز الدين القلق، وكتبت فيه حكايات مذبحة الطنطورة .

هل نشر هذا النص؟

نشر في « شؤون فلسطينية » عام ١٩٧٩ . وعندما ظهرت حكاية المذبحة، عندما اثارها الباحث الاسرائيلي من جامعة حيفا، تيدي كاتس، كانت كل تقارير الصحف تقول ان هذه اول مرة يُنشر فيها الخبر، وأنا كنت متاكدًا منه، لاني انا شخصيا كنت قد نشرت رواية ام عزالدين، وان باحثين فلسطينيين لا بد وان كتبوا عن الموضوع قبل ذلك، لكني لم اجد اي نص قبل بحث كاتس الا نصي انا . . طيلة الوقت كنت ابحث في هذا الموضوع، ولكن البحث الفعلي للكتابة مع الكتابة دام ٦ سنوات . يعني في « المتشائل » لاميل حبيبي، البطلة هي طنطورية لكن ليس هناك اي ذكر للمذبحة . بعد قصة كاتس، اول ما قمت به هو ان قرأت اميل، لان ما كتبته انا كان من ذاكرتي فانا لم اسجل قصة المرأة عندما اخبرتني اياها، فبحثت في رواية « المتشائل » لكني لم اجد اي ذكر للمذبحة .

اردت ان اثير قصة الطنطورة ومشكلة الذاكرة الفلسطينية والتعامل مع الذاكرة الشفهية، وكيف يتعامل الفلسطيني نفسه مع الذاكرة الشفهية لجيل الآباء، اذا اردت . احد الاشياء التي ذكرها الباحث الاسرائيلي من جامعة حيفا انه كان هناك صمت شبه مطبق في الجانب الفلسطيني . الناس الذين نجوا من المذبحة، كان الشيء الذي عقد السنتهم على مدى الزمن

هو العار، الشعور بالعار، «بأننا جلسنا على الشاطئ في تلك الصبيحة عندما اتى الجنود الاسرائيليون وصاروا يأخذون من بيننا مجموعات من الرجال، ثم نسمع صوت اطلاق النار ولا نفعل شيئا. فالعار من الحكاية.. انا لا اريد ان اتذكر هذه الحكاية، هذه الحكاية بالنسبة لي حكاية مؤلمة اكثر من كونها حكاية حقيقية.. يتغلب علي عاري الشخصي ويشل ذاكرتي». هذا شيء اثاره الباحث الاسرائيلي ولكنه استطاع ان يستدرج معظم الذين قابلهم للتحدث عن المذبحة. حدثني قليلا عن تجربتك انت في التعامل مع مخيمات اللاجئين.

قبل ان اتحدث عن المخيمات، اريد ان اخبرك قصة اخرى. في العام الماضي كنت اعلم في جامعة نيويورك، وكانت في صفي طالبة من الناصرة، وقالت لي بعد ان قرأت «باب الشمس» ان والدها لم يرو لهم شيئا عن الـ٤٨ ويرفض التكلم مهما حاولوا معه..

من اين الاب؟

من عيلبون.

في عيلبون ايضا كانت هناك مذبحة.

لكنه قرأ «باب الشمس» وبدأ يتكلم. الرواية فتحت له الباب. الطالبة كانت تخبرني عن تجربة شخصية «انظر ما فعلت.. ما جرى مع ابي». النقطة الثانية... الدعاية التي تقول ان العرب هربوا لان الانظمة العربية امرتهم بالراديو.. كل هذا الكلام كذب. لكن ما نجح فيه الاسرائيليون، او اكبر نقطة نجاح للاسرائيليين في نكبة الـ٤٨ متعلقة بتركيب الوعي الفلسطيني. الوعي الفلسطيني كان متيقنا ومحشوا بامتلاء قومي عربي وهمي ان الجيوش العربية ستأتي في النهاية وتنهي هذا الوجود الاسرائيلي.. كان محشواً بوهم قومي الى درجة انه لما حصلت النكبة شعر بالعار ولم يستطع ان يعبر عن النكبة لان ما جرى فعليا بعد النكبة مباشرة كان ظهور الانظمة القومية العسكرية التي جاءت مرة اخرى بفكر قومي وهمي يحمل الكثير من الافتخار بالنفس، الخ. هذا احد العناصر، الضعف الذاتي، احد عناصر التكوين الذاتي التي شلت الوعي وشلت الذاكرة. بالنسبة للعمل في المخيم، الحقيقة هو انه قبل ان ابدأ البحث في المخيم كنت قد قرأت. اولا عرفت اناسًا واخبروني بقصص، وبعدها قرأت الكثير. قرأت تاريخ الهاجاناه وبيني موريس. قرأت كل المؤرخين الجدد.

وهذه قائمة تثبتها في نهاية الرواية.

نعم. وقرأت نصوص بلدانية فلسطين المحتلة. يعني قرأت الكثير، وكانت لديّ خارطة للجليل. الحكي كان يتراوح بين الصمت المطلق. اي انه يبدأ بالصمت المطلق، المطبق. فجأة يصير كلامًا بلا نهاية. الآلية كانت معقدة، لكن من فتحها امامي امرأتان عجوزان، واحدة من مخيم برج البراجنة والاخرى من مخيم شاتيلا. لا اعرف لماذا احبتني هاتان المرأتان... جد، انا كنت ازورهما.. اقول لهما اني اولا لا اكذب، في «باب الشمس» لم اكذب. لا اقول لهما اني قادم للتعرف عليكما، بل اني اكتب قصة وبدي تخبروني قصص. بس ما خبروا. كنت ازورهن، ويطعموني مناقيش بحرّ، دقة. لساني الآن يلتهب. وصرت ضحية معهم، وهن بلّشوا الحكي. وانطلاقًا من حكيهن، رحت عند آخرين مزودًا بمعرفة. فلما كنا نقعد ويبلشوا يحكوا صير انا شوي اصلّح.. ولما بتصلحلوا اولا بيحترمك وثانيا بيحكي الحقيقة، او بيحكي.. وبعد ذلك لعندما بدأت الحكايات صرت فعلا اصلح اقوالهم وادخل في مناقشات معهم حول تفاصيل.. مثلا عن البروة انها سقطت مرتين وكيف سقطت اول مرة، ومن اين جاء الاسرائيليون.. فدخلنا بجدل داخلي سمح للقصص ان تنفجر الى الآخر... النقطة الثالثة وهي مهمة جدا هي انه بعد اوسلو نشأت ظاهرة كتبتها في قصة «ام حسن» ان اناسًا كثيرين زاروا الجليل وجلبوا افلام ڤيديو، انا جمعتها كلها... افلام غير قابلة لان تفهم منها اي كلام لان المصور هاو ويصور عادة «كلوز»، يعني يقرب الكاميرا الى الآخر بحيث لا تستطيع رؤية شيء. وهذه كانت مفتاحًا كبيرًا للحكاية. نقعد على الارض في بيوت المخيم ونعرض الڤيديو الذي لا يمكن ان نرى فيه شيئًا. تصير المرأة تروي اشياء لا علاقة لها بالصورة والناس يبكون. وصار مخيم شاتيلا في تلك الفترة فعلا كانه مخيم ڤيديو، كل الناس معهم ڤيديو من فلسطين.. من معه.. والڤيديوهات تهتري.. ففي سنتين سمحت فيها الزيارات للجليل، وهذه الزيارات تزامنت مع بداية بحثي، حلحلت الحكي عند الناس. طبعًا وصف المعارك والمذابح كان صعبًا جدًا. كان يجب أن ادقق في المصدر واقول له صار في مذبحة حتى يعترف الزلمي بها وبانه هرب ويقول تركنا المنطقة.. كان هذا صعباً جدا.. طبعا يجب ان لا تاخذ «باب الشمس» باعتبارها وثيقة تاريخية، هذه رواية..

تخلو من التاريخ؟

كلها تاريخ. انا ادعي ان كل شيء عن السقوط محقق. سمعته من الناس.

اين دور المتخيل في هذا؟ اذا كانت الرواية مبنية على حقائق... اين تنتهي الحقائق وتبدأ الرواية؟

يوم كذا سقطت البروة ويوم كذا سقطت شعب ويوم كذا سقطت الكويكات.. هذه كلها حقائق. والمذابح سمعت عنها من الناس، ولا اقدر ان ادققها علميًا.. لكني سمعتها من اكثر من مصدر. لا يوجد اي شيء ذكرته في الرواية سمعته من مصدر واحد، بل من عدة رواة. لكن كل تكوين القرى والعلاقات بداخلها، ان كلها حكايات خيالية، حكايات ادب.. لكن النسيج التحتي كان يجب ان يكون دقيقًا لكي اعرف ان اتخيل. يمكن لأني مش فلسطيني. لو انا فلسطيني كنت مش بحاجة يمكن لهذا التدقيق لكي استطيع ان اهني... بس لأني مش فلسطيني حسيت انو ما عندي حق بهذه النقاط ان لا اكون حقيقيا، او لا ابحث عن الحقيقة. ولكن من يقرأ «باب الشمس»، سيأخذ بالتأكيد حقيقة عامة عن العذاب الفلسطيني اكثر من حقائق تاريخية هي من مهمة المؤرخين...

اجبت عن سؤال كنت اريد طرحه عليك عن تعاملك مع الشهادة، كما قلت، كبنية تحتية للادب... واردت ايضا ان اسالك سؤالاً آخر اجبت عليه بشكل او بآخر، عن تعاملنا مع الذاكرة الفلسطينية، مع شبه انعدام الارشيفات في العالم العربي فيما يتعلّق بفلسطين، الارشيفات العامة التي يستطيع المؤرخ ان يذهب اليها ويقرأ شهادات مكتوبة... انت ذكرت شبه بدايات في معهد الابحاث. السؤال يتعلق اكثر بتفاصيل ردود الفعل، اذا كانت هناك ردود فعل، من الناس الذين اخذت شهاداتهم وادخلتها في الكتاب. كيف كان رد فعلهم بعد ان قرأوا الكتاب؟

الحقيقة اني غيرت كثيراً، غيرت في الاسماء والاماكن، لكي لا ازعج الناس.. والكتاب قُرئ في المخيمات... انا فوجئت انه قرئ في المخيمات.. مرة كنت في ندوة في مخيم مار الياس (وانت تعرف ان مخيم مار الياس غير محاصر مثل باقي المخيمات لانه مخيم صغير... ويوجد هناك كل المنظمات ما عدا حركة «فتح» غير الموجودة الا في الجنوب خارج نطاق السيطرة السورية...). كنا في ندوة ونقاش عام عن فلسطين و«باب الشمس». بعد انتهاء الندوة اقترب مني رجل وقال لي (بصوت خافت) «فضحتنا... هذا ابن عمي». وهو يقصد قصة في الغابسية عن ولد يذهب الى المغارة ويجن.. القصة كما سمعتها مختلفة عما كتبت. لكنه عندما قرأها تبناها.. تبنّى القصة المكتوبة. هذه برأيي نقطة مهمة جدا للنقاش، لان

الذاكرة تصبح ذاكرة عندما تكتب . . طالما لم تكتب تبقى تاويلاً، او تذكراً .

بحسب رايك، الصيغة المكتوبة تتحول فيما بعد الى ذاكرة، تحل محل الذاكرة . .

بالضبط . تحل محل الذاكرة الاولى التي هي تاويل . . . انا جربت ان احافظ على الطابع التاويلي في الكتابة، عبر تقديم عدة تاويلات، الخ . ذلك الرجل قال لي : «ابن عمي المجن، لكن كيف تكتب عنه هيك؟» . . قلت : «انا لا اعرف انه ابن عمك!» قال : «ما بصير هيك، هاي فضيحة!» سالته لماذا لم يحك امام الجميع، فقال «هذا عيب» . مع اني كتبت قصة فما اعتقده هو بانها قصة ابن عمه، بقي رأيه بانه «عيب» . هذا رد فعل اساسي . . .

هل شرح لك ما الفضيحة في هذا الامر؟

وجود مجنون في العائلة هو الفضيحة .

يعني يجب ان نتستر عن الجنون . .

نعم . . . «لا نعلم اين هو»، وضعوه في عكا واختفى . . . بعد ان قامت اسرائيل لم يبق احد للسؤال عنه . . القصة فضيحة للعائلة . . . هذا الرجل اعتبر اني فضحته . البعض الآخر كانوا لطفاء . اعتقد انهم لم يكونوا مبسوطين، لكنهم لم يبدوا شيئا . كانوا متحفظين في الحديث معي . . اتو يعطيك العافية، بتدافع عن فلسطين، وشكرا . . بس ما كانوا سعداء . لكن أكثريتهم كانوا سعداء انهم دخلوا في الادب . . يعني مثلا قصة سقوط البروة وسقوط شعب . سقوط البروة هي قصة فظيعة . لما احتلّها الاسرائيليون لمدة ١٢ يومًا، وجاء الفلسطينيون وطردوهم، وجدوا ان كل الثياب موضوعة في اكياس ليسرقها الاسرائيليون . أخذوا الثياب وقالوا ثيابنا شراطيط . هذه قصة حقيقية . انا اتذكر ان امرأة اخبرتني اياها . هي قرأتها . وقالت لي شو حلوي الرواية، شو حلوي الشراطيط . صارت تضحك وتقلّي نحنا شعب شراطيط .

هذه هي اللحظات التي تسبّب لك حبوراً تاماً ككاتب؟

لحظات تسبب لي الفرح كثيراً . عندما يتبنّى القارئ الحكاية باعتبارها حكايته . اي انه

يصدقني، مع أني لا أسوق الحكاية كما جرت بالضبط، ولكنه يصدّقني، وتصبح هذه الحكاية حكايته. في هذه اللحظة انا اشعر، وهذه اهم نقطة. أعتقد ان هذا الكتاب ربّاني، علمني...

رباك ككاتب؟

رباني ان الكاتب هو شيء هامشي. في هذا الكتاب اقتنعت جوهريًا بشيء فظيع، وأنت تعرف ان الكتابة مهنة قاتلة، انت تعرف كم تعذب وكم تأخذ من الوقت، وأن وعزاء الكتابة الوحيد هو انك انت مهم. الكاتب شخص مهم. ولكني اكتشفت في هذا الكتاب ان الكاتب غير مهم. الكاتب اداة للكتابة نفسها. هنالك آلة اما ان تشتعل في داخلك وتجعلك تكتب، او لا تشتعل، ومهما فعلت، ما بتطلع معك كتابة. فاذا اشتعلت في داخلك انت مجرد اداة وليس بطلاً. الكاتب لا يستطيع ان يكون بطلاً، هو هامشي جدا.

هل يتماشى هذا مع بعض آرائك الادبية النقدية في الماضي بالنسبة لظاهرة الحديث عن موت الكاتب؟

الفرق هو ان الحديث شيء والكتابة شيء مختلف نهائيًا.. مثل الحديث عن الموت. اذا عايشنا الموت لن نعايشه مثلما نتكلم عنه. اتذكر انه عندما مات نزار قباني كتبت عنه مقاله، وقلت ان كونه مات هو أمر غير مهم. فعلا، فاذا اردت ان اتحدث عنه كشاعر او عن اي شاعر او كاتب آخر مات، اتحدث عنه وكأنه لم يمت. هو اكيد عاش الموت بقسوة شديدة، وانا اعرف ذلك من صديقه سهيل ادريس. عاشه بقسوة فظيعة. فانا هنا اختبرت الكتابة وكانت قاسية جدا، وتعلمت منها درسًا بليغًا جدًا، ومن الصعب قبوله، اني انا فعلا شخص غير مهم.

قلت ايضا انك تتعامل مع الموتى كانهم مازالوا احياء.

نعم.

كتبت مؤخراً مقالة تصف فيها نفسك بانك مسيحي–مسلم. هل تحدثنا قليلا عن ذلك؟

قامت مجلة «دراسات فلسطينية» بتخصيص عدد عن الاسلام. وانا تحدثت عن علاقتي بالاسلام. انا رأيي اني جزء من الثقافة العربية والاسلامية، وان هذه الثقافة في تحليلي لها هي انها ثقافة متعددة ومتنوعة وتحتمل التعدد وما يجرب الان على السطح السياسي من تعصب واصولية هو ظرف طارئ ومرتبط بانحطاط الانقلاب العسكري في العالم العربي. واذا ازحنا هذا الظرف الطارئ جانبًا، فحبّي للقرآن مثل حبي لمزامير داوود وحبي لخطبة المسيح على الجبل كادب. هذا ما كتبته في تلك المقالة.. الدين هو رمز ثقافي وانا اتعامل معه على هذا الاساس وبالتالي انا انتمي اليه. وما يظهر بشأن الدين الآن في العالم العربي والاسلامي هو تحطيمه كرمز ثقافي وتحويله الى فقر سياسي واجتماعي، وهو برأيي تعبير عن الانحطاط. وقد أعطيت مثلاً عن شخصية احمد فارس الشدياق، الذي هو برأيي اهم مثقف عربي في القرن التاسع عشر والعشرين. احمد فارس الشدياق كان مسيحيًا مارونيًا، تحول الى البروتستانتية، لان رجال الكنيسة المارونية قتلوا اخاه، ومن ثم اسلم... في آخر حياته لا نعرف ان كان مسلما ام مسيحيا. لكننا نعرف بالتاكيد ان احمد فارس الشدياق مثقف عربي كبير ومجدد كبير في اللغة والادب، فهو الذي ترجم التوراة والانجيل الى العربية وهو الذي اخترع كل الكلمات التي نستعملها الان في حياتنا اليومية، هو الذي استنبطها باللغة العربية الحديثة، وبالتالي هذا التعدد والازدواج في شخصيتي انا هو جزء من تراث طويل في الثقافة العربية. بالطبع، كانت الحرب الاهلية اللبنانية مؤذية، فكنت احس قبل الحرب انني مسلم مع المسلمين ومسيحي مع المسيحيين. لكن في الحرب الاهلية اصبحت احس بالعكس؛ اني مسلم مع المسيحيين ومسيحي مع المسلمين قبل ان ابدأ بالاحساس اني لبناني مع الفلسطينيين وفلسطيني مع اللبنانيين.

هل تعتقد انه كان يمكن لشخص كالشدياق ان ينشأ في العالم العربي اليوم في هذه الأوضاع؟

لا. انا رأيي ان الانظمة العسكرية في العالم العربي، بسبب قمعها البدائي والمملوكي، انستنا واجبات... مش بس واجبات، قوة في الثقافة. الانقلاب نشأ من وسط عسكري يمتزج بالانتجلنسيا القومية، فاوحت انها صادرت الانتلجنسيا وقمعتها قمعا لا سابق له... القمع الذي عاشته الانتلجنسيا المصرية والسورية والعراقية لا سابق له في تاريخنا..

ولا تستثني اي حكم عربي؟

لا . ولان الانقلاب كان مزدوجًا، اي كان فيه انتلجنسيا، دمر شعور الانتلجنسيا بقوتها. وهذا احد اسباب سؤالك انه هل يمكن ان ينشأ شدياق جديد . نحن نحتاج ان نتجاوز هذه المرحلة التافهة من تاريخنا .

واعادة الايمان بأنفسنا؟

واعادة الايمان بأن الثقافة قوة والمعرفة قوة، واننا اقوياء، وانه امام هذه الانظمة التي تقتل روح الانسان العربي، مهمتنا ان ندافع عن الروح عند الانسان وبالتالي نحن اقوياء وليس ضعفاء.

جميل.

وقادرون ان نكتب اذا اردنا . . انا برأيي ان الثقافة العربية دائما تحمل الانظمة والقمع المسؤولية، لكن هذا اطار المسالة نفسها : هل نريد او لا نريد؟ اذا ارادوا من يقدر ان يمنعهم؟ عدد كبير من الانتلجنسيا العربية يعيش خارج الوطن العربي . هل يعقل ان شخصًا يعيش في باريس يظل يتذرع بالقمع؟ من يمنعك عن الكتابة؟ اذا كنت عبقريا اجعلنا نرى . انا اعتقد ان ما يمنعه هو فقدان الايمان بالثقافة نتيجة القمع .

القمع الداخلي لدى هؤلاء دخل إلى المياه الجوفيّة .

نعم .

(آن آربر / ميشيجان / الولايات المتحدة / السبت ٢٣ شباط ٢٠٠٢)

جزء من هذا الحوار نشر في صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية، ١٥/٣/٢٠٠٢، بمناسبة صدور «باب الشمس» باللغة العبرية عن دار النشر «أندلس».